FAYSSAL HOURANI



فيصل حوراني

بير الشوم







فيصل حوراني

بير الشوم



الإهداء

إلى باولا ، زوجتي
محبةً واعترافاً بالجميل

١

أقول لكم بصراحة منذ بداية البداية : «سأقص عليكم هذه القصة ، بينما سأظل حتى النهاية مجهولاً بالنسبة لكم» . وأذكر لكم السبب لكي لا تبحثوا عن أسباب . فالناس الذين أتحدث عنهم كانوا كلهم عزيزين علي ، وما زال كثيرون منهم أحياء ، وأنا أخجل من أن يعرفني هؤلاء فيلومونني على ما أفعله حين أقدمهم اليوم بالصورة التي كانوا عليها قبل ثلاثين سنة ، في حين أنهم تبدلوا وانتهوا إلى مصائر لا توحي بها الأحداث والمواقف التي سأحكي عنها ، أو يلومونني على تحويرات اقتضتها طبيعة الرواية أو أخطاء ، في الحديث عنهم أو عمن أحبوهم ممن رحلوا ، فرضها ضعف الذاكرة .

أما الذين تستحوذ عليهم الرغبة في التوثق ، فإني سأطمئنهم قدر المستطاع ، فأقول لهم عن نفسي شيئاً واحداً فقط ، وأرجو ألا يطالبونني بسواه : إن الرغبة ذاتها تستحوذ علي أنا الآخر .

ويمكن أن أذكر لهؤلاء ، على سبيل المثال ، أنني بذلت من الجهد أقصاه لكي أتحرى عن ذلك اليوم الذي ذهبت فيه نجدة القرية إلى «بيت

دراس» لمساعدة مجاهديها في ردّ الهجوم الصهيوني حتى أحدده بدقة ، وفشلت ، ولكني تيقنت من أنه كان يوم جمعة . فالشيخ حسن ، وهو أحد أبطال روايتي ، كان يتهيأ ليؤم المصلين ظهر ذلك اليوم في المسجد ، ورجال القرية لم يكونوا يصلون في المسجد إلا صلاة الجمعة . وهذا ما أكدته ذاكرتي وشهادات الشهود الأحياء . وتأكدت أن يوم الجمعة ، الذي بدأت فيه أحداث هذه القصة ، قد سبق بما لا يزيد عن أسبوع يوم الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ ، الذي أصبح في التاريخ الفلسطيني من الأيام التي لا تنسى .

فلأعد إذن إلى نهاية الأسبوع الأول من شهر أيار (مايو) تلك السنة . وكان موسم القيظ قد حل ، بعد أن سقطت آخر الجمرات ، كما اعتاد الفلاحون أن يقولوا ، غير أن الأصباح كانت ما تزال تحمل طراوة الربيع : ندىً وبرودة مستحبين . ولما لم يكن لدى الفلاحين ما يعملونه في الحقول سوى انتظار نضج الزرع ، فقد كانوا يستحْلون النوم ويمضون فيه حتى شروق الشمس . والذين اعتادوا أن يؤدوا صلاة الفجر في موعدها كانوا يعودون إلى النوم بعدها ، ومثلهم يفعل أولئك الذين يتوجب عليهم أن يسلموا غنمة أو بقرة للراعي الذي ينطلق عادة قبل شروق الشمس .

وقد حاول الشيخ حسن أن يعود إلى النوم بعد فراغه من الصلاة ، غير أن القلق الذي أمضّه مساء وجعله يمضي ليلة مسهدة هو ، ذاته ، الذي منعه من النوم بعد الصلاة .

وما دامت البداية قد قادتنا للحديث عنه فلأقدمه لكم على الفور . فالشيخ حسن هو إمام مسجد القرية ، اختير للإمامة لأنه الوحيد الذي يجيد قراءة القرآن . كان والده قد أصر على تعليمه ، ثم بعث به إلى «الأزهر» ليجاور في أروقته مع المجاورين ، الذين كانت قرى مصر والبلدان

المجاورة ، ومنها فلسطين ، تقذفهم إليه ، طمعاً في أن ينال بنوها شيئاً من علوم الدين ومنازل رفيعة . وفي الأزهر ، أمضى الذي كان شاباً زهاء سنة عاد بعدها إلى قريته ، لأن موارد والده قصرت عن تحقيق طموحه ، وأعطته تلك السنة الحق في أن يُنادى بلقب شيخ وأن يلبس زي الإمام ، وأعطته الإمامة الحق في أن يشرف على بئر القرية ، يستثمر الحقل التابع للبئر ، يرويه من فائض مائه ، ويستنبت فيه الخضار ، يعيش لدينه ودنياه عيشة رتيبة طبعت شخصيته بهدوء صار يميزه ، وطوت ، بمضي الوقت ، التوق إلى العلم وطموح الشباب إلى حياة أكثر حرارة .

ومع ذلك ، يمكنني ، أنا الذي عرفت الشيخ ، أن أقول إن طموحه هذا كان يعاوده بين وقت وآخر ، ينبعث شيئاً فشيئاً حتى يسيطر عليه رغم سنوات عمره الخمسين . وقد أجج اندلاع الثورة في فلسطين مشاعر الشيخ واستفزّه قعود قريته عن المشاركة فيها . وأعتقد أنكم ، بهذا ، عرفتم سبب سهاد الشيخ ، فقد أمضى الليلة الفائتة وهو يفكر في الأمر ، يُقلبه على وجوهه كافة . أحس بأن عليه أن يحسم الأمر ، وأنه يستطيع ذلك لو جازف بمجابهة المختار علانية . وكان موزعاً بين رغبته في المجابهة وتخوّفه من نتائجها . ولهذا لم يستطع أن ينام ، بل قرر أن يغادر داره . وهمّ قبل المغادرة بأن يوقظ وحيده ، واسمه حسان ليذهب إلى المدرسة . ثم تذكر أن اليوم هو يوم جمعة ، فترك ابنه وأمّ ابنه نائمين ومضى هو إلى البئر . وهناك رشق وجهه رشقات متتالية بالماء البارد ، متوخياً التغلب على ثقل رأسه ، فأنعشه الماء ، ومضى يتفقد مساكب الحقل دون أن يكون بحاجة إلى تفقده ، كأنما أراد أن يشغل نفسه ليصرف ذهنه عن الخاطر الذي يلح عليه في أن يذهب إلى المختار ويجادله في أمر المشاركة في الثورة . ولم يجد في الحقل ما يشغله . كانت نبتات البندورة والخيار والفاصولياء على خير ما

يرام . ونبتات البطيخ كانت قد شقت الأرض وأخذت عيدانها الخضراء المزغّبة تتمدد فوق التربة الناعمة ، تكسوها الأوراق الطالعة التي جعلها الندى لامعة براقة . وأوراق البصل كانت تمتد فارعة كأنها نخلات صغيرة تبالغ في الاعتزاز بنفسها .

ولم تثر جودة الموسم في نفس الشيخ أي إحساس خاص ، بل ظلت الكآبة التي يغالبها لاصقةً به مثلما يلتصق العرق الجاف بالجسم الوسخ ، كما ظلت الخواطر تلاحقه ، فعاد إلى البئر ، وجهز البغل وربطه إلى الساقية وحركه . فبدأ البغل دوراته الثابتة فوق الدائرة التي صلبتها أقدام بغال كثيرة قبله طيلة ما لا يدري أحد من السنوات وأخذ الماء الذي تسحبه القواديس من البئر ينصب في الجابية المعدة لجمعه ، محدثاً هو الآخر صوتاً رتيباً كرتابة دوران البغل ، الأمر الذي عمق إحساس الشيخ بالكآبة . وكأن كآبة الشيخ انتقلت إلى البغل ، فقد توقف هذا عن الدوران ، فانتهره الشيخ بصوت مرتفع أنكره هو نفسه . ثم فاجأه صوت :

- الله يصبحك بالخير يا شيخ حسن ، طوّل بالك على البغل ، الدنيا بدري ومخلوقات الله نايمة!

- وانتِ مش من مخلوقاته ، ليش هالسروة؟

- لازم جرار دار المختار تمتلي ، إذا فاطمة ما اشتغلتش ، كيف بدها تمتلي ، صحي بدري وحرمني من حلاوة النوم ، الخادمة خادمة ، الحمد لله على كل حال .

راقبها وهي تغطس الجرة في الجرن ، وسمع بقبقة الهواء وهو يخلي الجرة أمام دفق الماء حتى امتلأت ، ثم سألها :

- المختار حضّر قهوته؟

- عمّرت المنقل قبل ما اطلع .

ثم راقبها وهي تمضي حتى اختفى جسدها بين عطفات الدور .

اجتاز الشيخ عتبة دار المختار ، وتنحنح بصوت عال ، ودخل المضافة .

- أهلاً بك يا بركتنا . . .

- وبالمهلّي يا مختار!

تجاوز المختار وليد أبو حامد سنته الستين منذ مدة طويلة ، وهم يدعونه الشايب حين يتحدثون عنه في غيابه أو حين يخاطبه من تسمح لهم منازلهم أو أعمارهم برفع الكلفة معه . وقليلون ، فقط ، من أهل القرية يعرفونه قبل أن يكون المختار ، فقد ولي المخترة شاباً ، وعرفه جيل تلو جيل بهذه الصفة التي أصبحت تلازمه كما يلازمه شكله . ومن الصعب أن أصف لكم شكله بدقة ، فأنا لم أره منذ ذلك التاريخ . وإنما قرّ في ذاكرتي شكل لرجل متوسط القامة أميل إلى النحول ، شعره أشيب حليق دوماً يشكل ، حول رأسه ، هالة بيضاء غير تامة الإنارة يلتمع بياضها حين يحرك الرأس ، وصوته يجمع حين يتكلم بين العمق والحدّة بصورة تجعله مميزاً عن أصوات الآخرين ، وأسنانه بيضاء تنتظم كاملة في فمه . ولا أستطيع أن أجزم الآن ما إذا كانت طبيعية هذه الأسنان أم صناعية ، ولئن كنت قد احتفظت بصورتها ، فلأنها كانت تكسب ملامحه مزيداً من القسوة حين يحتدّ ويعبر عن حدته بالكلمات . وكان يجلس على فراش يمد له في صدر المضافة على اليمين بحيث لا يكون بمواجهة الباب ، الأمر الذي يمكنه من أن ينهض لاستقبال الداخلين إليها أو يتجاهل دخولهم ، متشاغلاً بتقليب جمرات المنقل الموضوع على الدوام أمامه ، حسب الأحوال!

وحين حيا المختارُ الشيخَ حسن ، انفرج ثغره عن نصف ابتسامة ، بينما ظلت عيناه مركزتين باهتمام كامل على الإبريق الذي تفور فيه القهوة ، وأمسكت إحدى يديه بالإبريق ، فيما أمسكت اليد الأخرى بملقط النار

وأخذت تقلب الجمرات .

- صباح حلو يا شيخ .

- يحلّي أيامك يا أبو خالد .

- حلاوتها بوجودك يا بو حسان .

تناول المختار فنجانين من صينية موضوعة بجانبه ، وسكب قليلاً من الماء في كل منهما ، وفرك داخلهما بإبهامه ، ثم سكب الماء على رماد المنقل الواسع ، وصبّ القهوة ، وقدم فنجاناً للشيخ .

- القهوة الجيدة للأجاويد .

ورشف المختار من فنجانه رشفة كبيرة وتلمظ بصوت مسموع ، واتجه بعدها بكليته إلى جليسه الصامت .

- . . . فش إشي في الدنيا زي القهوة ، بتجلي الراس ، اشرب! ليش ما بتشرب قهوتك؟

- مشروبة يا مختار .

قالها الشيخ ورشف من فنجانه رشفات متتابعة ، ثم أعاد الفنجان للمختار وهو يحتفظ بصمته . فعدل المختار قعدته ونظر إلى الشيخ بامعان .

- انت مش على بعضك ، في فمّك كلام ، قوله ، أنا أخوك!

- أخ كبير يا أبو خالد . الدغري ، الواحد منّا باله مشغول هالأيام ، الدنيا قايمة قاعدة حوالينا .

- يا فتاح يا عليم! قامت ولا قعدت ، إيش اللي متعبك أنت؟ قل لي!

- شو بدّي أقول؟ الانجليز زوّدوها ، واليهود زاد طمعهم في الأرض ، كل الناس مشغولة بحكايتهم ، إلا إحنا .

- أم م م ، نفسي أعرف أنت عَ إيش خايف؟

فانطلق لسان الشيخ يقول بسرعة :

– خايف من حكي الناس ، خايف من غضب الله ، خايف عَ البلاد يا أبو خالد . . .

– بس ، بس! الله عليم ، اللي بيسمعك بيظن إنه اليهود صاروا في دارك ، أبعد الشر يا رجل! حفنة هَمَل مستقويين بالانجليز كأنُّه الانجليز ما لهم غيرهم ، لكن ربنا أقوى منهم يخزيهم دنيا وآخرة ، خلّي أملك بالله ، أنت رجل مؤمن!

– أنعم بالله ، قادر على كل شيء ، لكنه أمر بالجهاد ، وإذا كنت أنت حاطط إيديك في ميّه باردة ، غيرنا مش قاعد .

صار الشيخ مستفزاً تماماً ومستعداً للمماحكة ، وقد حملت نظرته إلى المختار طلبه منه أن يكف عن المراوغة واستعداده للتحدي . وبدا المختار مستعداً هو الآخر ، وقد عدّل قعدته مرة أخرى وجلس متوفزاً ، وقال بلهجة ليس فيها ملاينة :

– اسمع يا شيخ! هي كلمة ، قلتها وبظل أقولها ، خلّ غيرنا يسوي اللي بدّو ياه . اليهود معهم الانجليز ، أنت بنفسك قلت هذا ، ومختار المستعمرة قال لي إذا قعدتوا بحالكو بنهاجمكوش ، والكابتن الانجليزي أكد هذا الحكي في حضوري وحضور وجوه القرية ، وانت كنت قاعد وسمعت بنفسك .

وصمت كلاهما برهة أستطيع أن أجزم أن عينيّ الشيخ بينت خلالها عدم قناعته بهذا الكلام المعاد ، وأن المختار استعاد شيئاً من ضبط النفس وأصبح أميل إلى الملاينة . والمختار هو الذي استأنف الحديث بعد الصمت :

– ليش نسعى لهلاكنا ما دام قادرين نسْلَم .

- القرى اللي وعدوها وبعدين احتلوها؟ سِلْمَتْ!؟
- سلمت قريتنا لليوم ، إذا هاجمونا بنرد عليهم ، تسلّحنا والحمد لله .
- تسلحنا بايش! وشبابنا اللي بيغلوا غلي ، القرى حواليهم بتقاتل وهم قاعدين غصبن عنهم .
- شباب ولاّ مش شباب ، القرية إلها راس ، مش فالتة!

أحس الشيخ حسن بأن الحديث لن يصل إلى نتيجة ، وكان يدرك أن المختار يثق في قرارة نفسه بالانجليز وعلاقته بالكابتن حميمة . وكان هذا الضابط الانجليزي يستجيب لمطالب المختار فيقوي ثقته به ، يتدخل للعفو عن مخالفات الفلاحين إذا طلب المختار ذلك ، ويدعم المختار في خصومته مع آل العلمي الذين يسكنون في غزة ، وكان هؤلاء قد ضغطوا لشراء قطعة أرض يملكها المختار ليضموها إلى أملاكهم ، فوقف الكابتن إلى جانبه ونصح آل العلمي بأن يتركوا صديقه وشأنه .

وإزاء المشاعر التي تناوبته ، وجد الشيخ حسن نفسه يقول بصوت كأنه ليس صوته :

- أقول لك الدغري ، الشباب بردُّش راسهم إشي ، وإذا تحرّكوا أنا معهم!

فانفجر المختار :

- انت؟ انت يا شيخ حسن ، بتتركني ، وبتقف مع المفاعيص!
- بقف مع الحق ، عملت اللازم عشان ما يصيرش هالخلاف ، لكنك ، بلا مستحى ، عنيد ، والشيّاب اللي وقفوا معك خايفين منك ، لو كان شورهم في روسهم لعملوا مثلي ، «وليقضي الله أمراً كان مفعولا» .

وبدا الشيخ وهو يردد هذه الآية كأنه يصدر قراراً لا رجعة عنه . وفهم المختار أن جليسه مصمم ، وقال بلهجة لم يألفها الشيخ منه :

- تتفصحنش عليّ بالنحوي تبعك! اسمعها كلمة وحطْها في راسك كويس : إذا فلت النظام في القرية بتقع في راسك!

وكرر الشيخ :

- «ليقضي الله أمراً كان مفعولا» .

- فكر كويّس ، وما تنساش إنه ممكن نلاقي إمام غيرك ، قسماً بالله بَحُطْ غيرك حتى لو كان لا بيقرأ ولا يكتب ، يكونش في فكرك إنه ما فش غيرك بيحفظ الفاتحة!؟

وقد أدرك الشيخ فحوى التهديد ، فالمسألة ليست مسألة الإمامة ذاتها ، التهديد يتعلق بالحقل المروي ، وسيخسره إذا ما جافاه المختار .

وزاد المختار الأمر وضوحاً .

- بترفص النعمة؟ بتظن إنه سنة في الأزهر هي اللي نفعتك ، قسماً بالله (هذه يقولها المختار دائماً فصيحة) لو ما شبعش القائمقام ومفتيه من مناسفي ما فرحت فيها .

ووجد الشيخ نفسه مدفوعاً للملاينة :

- يا أبو خالد ، ما وصلتش بينا لهذا الحد يا بو خالد ، الشباب معهم حق ، لازم تعرف ، والقيادة عينها حمرا علينا ، صبرت وصبرت لكن إحنا ما تحركناش ، وجيرانّا بيعيرونا ، والانجليز راحلين ، ووعود اليهود زي ما وصفهم ربنا ، انت عارفها مش أنا اللي بعلمك ، إذا استحكموا بيوفروناش .

واعتقد المختار أن تهديده قد فعل فعله ، فقست نبرة صوته .

- عف عني! حمرا ولاّ بيضا ، يهود ولاّ عرب ، حط راسك بين الروس ، وإلاّ قسماً بالله العظيم ما بتدوس الحاكورة في عمرك .

وظل الشيخ متشبثاً بالأمل الذي يوهنه الخوف على مصدر رزقه :

- وإذا الكل أجو عليك ، بتظل لحالك؟

- الله؟ الله؟ خوّفني يا حسن ، أيوه! مفكرني مغمّض ومش شايف اللي بتعمله ، ما أنا عارف إنك راس البلا . امبارح أجاني أبو مَرَتك ، زي هذاك الطير ، وحكى الحكي اللي بيسمعه منك .

ثم تحدث المختار بحدة خلت من السخرية ، وهو يحرك يده مؤكداً كلامه .

- . . . مختصر الكلام ، يا معي ، يا بتخسر كل شيء .

بق المختار تهديده ثم أسند ظهره إلى الوسادة الموضوعة خلفه ، ثم انتفض من جديد مستعيداً نبرته الساخرة .

- . . . حقا ، ليش كل شي؟ نسيت إنه عندك عشر دونمات خلفها الوالد .

وإزاء صمت الشيخ ، ازدادت حدّة المختار .

- خلّيها تشبعك خبز ، لأشوف!

ظل الشيخ صامتاً . واعتقد المختار أن الأمر انتهى ، فعدّل قعدته واسترخى وصب فنجاناً جديداً من القهوة وناوله له ، فرشفه الشيخ دفعة واحدة ثم حيا مودعاً ، من غير أن يتبادل النظر مع المختار ، وانصرف .

خطر للشيخ حسن أن يذهب إلى حميه ليمضيا معاً إلى وجوه القرية يحثانهم على وضع حد لعناد المختار ، ثم آثر أن يرجىء ذلك إلى ما بعد صلاة الجمعة ، حين سيلتقي الجميع ، وعاد إلى البئر .

كان البغل قد توقف عن الدوران مؤثراً الراحة ، وماء الجابية قد نقص كثيراً . فتوجه الرجل المأزوم إلى البغل وأحكم شد أربطته . وعاد الماء يسيل محدثاً خريره المألوف . وسرى صخب الحياة في صباح القرية . وارتفعت الشمس لضحوتها المشرقة مبشرة بيوم قائظ جديد . وازداد لمعان أوراق

النبات وهي تودع آخر قطرات الندى . وانتظمت حلقات لعب الأولاد قريباً من البئر . وكان ولد يتباهى بصخب بعدد الدبابير التي تمكن من الإمساك بها . واشتدت حركة النساء رائحات غاديات لملء جرارهن .

أسند الشيخ ظهره إلى حائط الجابية ، يرقب بصمت هذه الحياة الناشطة . واخذت نفسه تهدأ شيئاً فشيئاً . وكأنما أفرغت محادثته مع المختار ما كان يوتره ، فانتظمت أفكاره : لا يصح أن يظلوا سبَّةً في أعين الآخرين ؛ لأن المختار يثق بصديقه الانجليزي . سيتحدث في موعظة الجمعة عن الجهاد ، وسيذكر الناس بأن المؤمنين إخوة كالبنيان المرصوص ، وأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، سيروي لهم قصة الذين قعدوا عن الجهاد أيام الرسول وكيف كان عقابهم . وسيتحدث مع الوجهاء بعد الصلاة . واستقر رأيه على ذلك فنهض وهو يردد لنفسه : «ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» . وأدرك من صوت الماء الذي خفت أن الجابية قد امتلأت . فأوقف البغل وفك أربطته ثم أخذه إلى مكان معشب وتركه يرعى . وعاد فأسال الماء على المساكب ووقف يتأملها وهي تستقبل وجبتها اليومية مع بداية القيظ .

لاحظت أم حسان حين استيقظت أن الشيخ لم يتناول فطوره ، فسلقت بيضتين ووضعت رغيفاً وملحاً وفلفلاً مطحوناً في صرة ، وحملتها إليه يرافقها حسان . لم يفاجأ الشيخ حين رآهما مقبلين . كان مزاجه قد راق فبادل زوجته تحية باشّة . وتقبل برضى حركة حسان حين وقف بجانبه واحتضن خاصرته بأحد ذراعيه .

- قلت أجيب لك إشي توكله .

- بارك الله فيك ، الأفضل نروح للدار ، نوكل هناك .

وانتشل من مسكب قريب بعض رؤوس الفجل . وقطع أوراقاً من

البصل . وعادت الأسرة إلى دارها .

وفي الدار ، أكل واغتسل استعداداً للصلاة . ثم تمدد ليستريح بانتظار حلول موعد الأذان . وقد غلبه النعاس فاستغرق في النوم . وفي الحلم رأى نفسه في الأزهر يجلس في حلقة الشيخ الذي كان يحفظّهم الحديث النبوي . ورأى شيخه يشير إليه كي يعيد قراءة الحديث الذي حفظهم إياه في اليوم السابق ، فيكتشف أنه لا يحفظه ويتجاهل إشارة الشيخ وكأنها موجهة لسواه . غير أن الشيخ يقول : «أنت يا فلسطيني اتل الحديث» ، فلا يملك أن يتجاهل الأمر بل يقف متردداً وشيخه يلح . وتختفي حلقة الطلاب فلا يبقى في الرواق سواه هو وشيخه ، وشيخه يزعق غاضباً بكلام لا يسمعه ، وهو يحاول أن ينطق فلا يستطيع . ويسترعي انتباهَه وضعُ أعمدة الرواق : تستدير نحوه وكأنها رجال يلتفتون كلهم إليه وحده ، ثم تثخن الأعمدة وتقصر ، ويهبط السقف نحوه بمقدار ما تقصر الأعمدة ، والشيخ ما يزال يزعق ويصبح بكلام غير مسموع ومسموع في الوقت نفسه ، والفناء كله يضيق ويضيق ، ومعه يضيق تنفسه الذي غدا صعباً ، وهو يعرق ويجاهد لكي يبتلع قدراً كافياً من الهواء .

في مقدوري أن أحكي المزيد عن الحلم الذي رآه الشيخ ، لكني أوثر ألا أثقل عليكم كما أثقل عليه حلمه ، والواقع أنه لم يلبث أن استيقظ من ذلك الكرب فوجد امرأته تهزه بعنف .

- نمت وأفسدت وضوءك ، قم شوف إيش صار!
- خير انشاء الله .

قالها تعقيباً على الحلم الذي رآه ، وظنت هي أنه يسألها عما جرى .

- وصل مفزّع من «بيت دراس» بيطلب النجدة .
- خير إن شاء الله .

- الهاجاناه هاجمتهم ، والمعركة دايرة هناك من الفجر .

أيقظته هذه الكلمات ، ومن المدهش أنه رغم أن النعاس كان ما يزال يسيطر عليه قد فهمها بجلاء ، كأنما كان يتوقعها .

قالت زوجته : «صار وقت الصلاة» . قالت ذلك وقدمت له القمباز والجبّة ، ثياب الإمامة ، لكنه لم يرتدها ، بل غادر الدار وهو يقول لزوجته :

- خلّي بالك من حسان!

- بقول لك وقت الصلاة صار .

- أنا رايح للبدرساوي ، إن كانت قريتهم متضايقة لازم نعمل إشي .

فوقفت هي محتارة . وتمهل هو برهة أمام باب داره وحسان بجانبه ، ورأى شاحنة عباس تقف في الساحة ونفراً من رجال القرية يحملون بنادقهم ويقفون بجانبها يتبادلون الحديث مع شاب غريب حزر أنه البدرساوي ، فاتجه إليهم وهو يسير بهدوء .

- خير يا رجال؟

- خير إن شاء الله .

ثم شرع البدرساوي يشرح ، والشيخ يصغي بنصف انتباه : هاجموا القرية من ثلاث جهات وهم الآن في الكروم ، ورصاصهم يقطع طريق الإسفلت ، القرية في ضيق . . .

التفت الشيخ لرجال قريته : «مستعدين؟» . ولم ينتظر الإجابة بل تابع مخاطباً حسان : «روح لجدك وقل له : أبوي عاوز البارودة» .

وهتف عباس : «حيّاك الله يا شيخ ، بنروح كلنا بالسيارة» .

قال الشيخ : «اسبقوني! لازم ألبس» . وعاد إلى داره ، ولبس القمباز والجبّة ، ووضع العمامة ، وقبّل حسان ، وودع امرأته بكلمات قليلة ، ولحق بهم .

٢

أوثر أن أعود بكم الآن إلى المختار الذي غادره الشيخ حسن تاركاً إياه وحيداً في مضافته . لقد أحس وليد أبو حامد بالانزعاج لأن الشيخ انصرف غير قانع ، كما أحس ، وهذا هو الأهم بالنسبة لحكايتنا ، بأن الأمور تكاد تفلت من يده . ولم يكن المختار قليل الفهم أو الخبرة حتى لا يلحظ ذلك . والحقيقة أن إحساسه ذاك بدأ يساوره قبل الآن ، فكان من شأن محادثته مع الشيخ أن تؤكد ذلك الإحساس فقط . صحيح أن كثيرين يجاملونه ، غير أنه يقرأ في عيونهم غير ما يسمعه من ألسنتهم . وقد لازمه القلق ، فهو يدرك أن فيما يقول الشيخ وجه حق . وهو يجهد في أن يخفي قلقه عن الآخرين ، لكنه لا يفلح في أن يخفيه عن نفسه .

انتظر المختار في المضافة بعض الوقت . وحين لم يزره أحد ، ارتدى الرجل القلق ملابس الخروج وغطى رأسه بالحطة البيضاء والعقال الأسود الغليظ ، وغادر الدار من غير أن يحدد لنفسه وجهة بعينها ، وتمشى وحيداً في طرف القرية ، ثمّ عزم على أن يقوم بجولة بين الحقول .

كان لوليد أبي حامد منطقه الخاص . والحقيقة أنه لم يكن ضد

الجهاد كما يتصور منتقدوه ، لكنه لم يكن متحمساً له . وكان يعتقد أن هذه «الدوشة» التي تشغل البلاد سوف تنتهي إلى نتيجة ما ، ومن الخير لقريتهم أن تتجنب المتاعب وتترقب النتيحة التي ستقع بمشاركتها أو بغير مشاركتها . وفي الحق أن أنباء تهجير السكان من قرى شمال فلسطين والفظائع التي ارتكبتها العصابات الصهيونية قد هزت قناعته بعض الشيء ، إلا أنه ظلّ يتمسك بأمل السلامة . وكان يصعب عليه أن يتراجع عن رأيه ، وقد يحدث شيء يوقف المجازر ، وإذا لم يحدث فإن الموقف الذي اختاره للقرية سيجعل اليهود رحيمين بها ، ولعلهم يوفرونها فعلاً ، كما وعدوا ، فلا يهاجمونها . وقد أكد له الكابتن أكثر من مرة أنه تحدث بنفسه مع قادة الهاجاناة وحصل منهم على وعود ، واقترن ترديد تلك الوعود بالخدمات التي كان الكابتن يقدمها له ، وهي خدمات لصالح أبناء القرية .

وبوسعي أن أضيف إلى هذه السلسلة من الأفكار ، التي كان المختار يرددها بينه وبين نفسه ، فكرة أخرى لا يعيها هو : إن خوفه من مجابهة ناس السلطة قد تأصل في نفسه طيلة عشرات السنين التي أمضاها في المخترة منذ أيام حكم الأتراك . وحين كانت شكوكه بصحة موقفه تشتد ، كان خوفه هذا يتغلب على الشكوك ويحفزه على إيجاد مبررات يقنع بها نفسه .

امتدت أمام ناظريه ، وهو يسير ، الحقول بزرعها الذي تهيئه الشمس للحصاد القريب ، سنابل الشعير مكتملة النضج ، وسنابلُ القمح التي ما زالت تحتفظ بشيء من خضرتها ، يلوح لونها متموجاً تحت ضوء الشمس ، وقد انتصبت عيدانها بينما مالت هي ذات اليمين وذات الشمال . وبين وقت وآخر ، كانت قدماه تقودانه وسط حقل للعدس أو الحمص ، نبتات خضراء متجاورة شقت الأرض واكتسبت حقها في الحياة . والحقول

بالنسبة له لها شخصياتها المتميزة ، إنه يعرف أرض القرية شبراً شبراً كما اعتاد أن يقول . ومنذ أشرف بنفسه على إنهاء شيوع الأرض وتوزيعها على الأسر وهو يعرف تاريخ كل حقل ، من مَلَكه والذين توارثوه ، والذين زرعوه بالأجرة أو بالمحاصصة ، ويعرف شؤون هؤلاء وهؤلاء ، كيف يعيشون ومقدار الديون على كل واحد منهم وممن استدان . وما من صاحب حقل إلا سبق أن قدم هو له خدمة ما ، وها هم اليوم يتنكرون لجمائله ويثيرون له المصاعب . يحرضهم الشيخ حسن فيستمعون إليه ، ويوشوش في آذانهم مجاهدو القرى الأخرى فيؤخذون بكلامهم . ولكنه ما زال هو هو ، وليد أبو حامد ، وهو يعرف كيف يواجههم كلهم إذا اقتضى الأمر . ووجد نفسه في واحد من حقوله فجلس وسطه ، وأخرج علبة تبغه ، ولف سيكارة أخذ منها أنفاساً قليلة ثم عافها فرماها ونهض وفركها بحذائه . واستأنف السير على غير هدى تقريباً حتى أدركه وقت الصلاة . فكرَّ عائداً إلى القرية .

بوسعكم أن تحزروا أن أول فلاح لقيه المختار عند طرف القرية قد أنبأه عن مغادرة النجدة إلى «بيت دراس» . وأستطيع أن أقول لكم إن رد فعله كان متناقضاً . اختلط الإحساس بالغيظ مع الإحساس بالراحة . قد يبدو هذا مستغرباً ولكنه هو ما حصل . ومن الحق أن الإحساسين لم يكونا على الدرجة نفسها من الشدة في كل وقت ، ويصح أن أقول إنهما كانا يتناوبانه الواحد تلو الآخر : كان يكفي أن تقابله نظرة ذات مغزى من فلاح عابر أو تحية ذات رنّة خاصة حتى يتأجج غيظه ، ثم يكفي أن يعود لنفسه برهة فيرى أن ما كان يشبه الدمل قد انفثأ فيحس بالراحة . ولنقل إنه كان مضطرباً ، وقد انعكس اضطرابه في خطواته السريعة التي كانت تقوده إلى داره . ووضعت الصدف أم حسان في طريقه ، لاحظها وهي تمضي مقبلة نحوه ، ثم لاحظها حين انحرفت عن وسط الطريق محاولة تجنّبه ،

فاستفزته هذه الحركة ، فاعترض طريقها متعمداً ، واستوقفها .

- انت يا أم حسان ، إيش رايك؟

- عن إيش بتسأل يا عمّ؟

- عن اللي عمله زوجك .

- كفى الله الشر ، إيش عمل؟

- عامله حالك مش عارفه ، ركب راسه ، وخالف راي القرية .

- أبو حسان حر ياعم . وهو ما راحش لوحده .

وقد ضربت إجابتها على الوتر الحساس في دخيلة نفسه .

- راح مع المفاعيص .

- راح مع اللي راح معهم ، وما ظَلّش قاعد زي غيره .

أثارته الغمزة الصريحة ، فما تمالك نفسه .

- اخرسي يا وليّه ، صار لك لسان طويل . . .

نظرت المرأة إليه برهة ولم تقل شيئاً . ثم تابعت سيرها مهملة الإصغاء لبقية عبارته . وأحنقه هو أنها تحدث هيبته ، هي الأخرى تتحداه . واشتعل اضطرابه فأتبعها بشتيمة جارحة ، وانطلق لسانه يهدد . لكنها لم تلتفت ولم ترد .

تلفت حوله بحركة آليه فوجد الطريق خالياً . وأحس براحة خفية لذلك . ولم تعد لديه بعد رغبة في متابعة السير . وكانت على يمينه بركة القرية فجلس عند حافتها مولياً ظهره للدور . وأخذ يتأمل البركة التي أترعتها مياه الأمطار خلال فصل الشتاء وهو يغالب مشاعره المحتدمة . أحس وقع أقدام تروح وتجيء خلفه فلم يلتفت ، ولم يتوقف العابرون لتحيته كما تقضي واجبات الاحترام للمختار . وأدرك أن ما تخوف منه قد وقع وأنه قد فقد هيبته في القرية . وهاجمته من جديد الأفكار التي

تقلقه : حاول أن يصونهم لكنهم لا يريدون ، من سيطعم أسرة الذي يموت ، من سيعوض اليتيم أباه والأرملة زوجها ، مندوب القيادة الذي زاره مرات عدة كرر ، في كل مرة ، أن النقود التي تصلهم تكاد لا تفي بالأمور الضرورية وأن على كل قرية أن تدبر أمرها بنفسها ، بما في ذلك ثمن السلاح والذخيرة ، الذين اشتروا بواريد دفعوا مائة جنيه ثمناً للبارودة ، فلاحون دفعوا الثمن بعد أن باعوا ما فوقهم وما تحتهم ، وقد هرب التاجر بالنقود ولم تحضر البواريد ، وما زالوا يبحثون عنه . والانجليز يحبسون من تقع عليه أيديهم في القرى لمجرد الشبهة ، ويشنقون من يجدون عنده سلاحاً ، حبوس وشهداء ومتاعب لا قدرة للفلاحين عليها ، آه لو أنهم يسمعون رأيه ، لقد حمى القرية حتى الآن من المتاعب ، حماها من تسلط آل العلني وأنقذ فلاحيها من أن يصبحوا أجراء عندهم ، كما حصل لفلاحي قرى أخرى يعرفها ويعرفها أبناء قريته .

في سنة ١٩٣٦ ، عندما اشتعلت الثورة من أقصى البلاد إلى أقصاها ، تصرف بحكمة . لم يكن الحال كما أصبح الآن ، ولم يكن لدى الهاجاناة هذا المقدار من السلاح أو هذا العدد من الرجال . وقد سمح لنفسه بأن يساعد الثوار سراً . وأذِنَ لعدد من رجال القرية بأن يشاركوا في العمليات لكن خارج قريتهم ، وتدبر الأمر بحيث لا تصل أخبارهم إلى الانجليز ، وكان يولم في الوقت نفسه للحكام ويداهنهم ليقفل عيونهم ويسد حلوقهم . وقد وصل لمسامع الانجليز ، مرة ، أنه آوى في داره سرية من المجاهدين ، باتوا عنده ليلة وتزودوا بالمؤونة ثم رحلوا في الصباح ، وكان هذا صحيحاً . يومها ، داهم العسكر داره وأوقفوه مصفداً بالحديد مع من اشتبهوا بهم من أهل القرية ، وظل واقفاً والحديد في يديه أمام أعين الجميع ، إلى أن حضر القائد الانجليزي ومعه الكابتن ادوارد (لم يكن في

ذلك الوقت يحمل هذه الرتبة في واقع الأمر ، لكن المختار لا يذكره إلا بها ، كما أنه ظفر ، قبل وقوع أحداث هذه الرواية ، برتبة ميجر ، وما زال المختار وأهل القرية يدعونه الكابتن) . كان لقاء لا ينساه ، عنفه القائد وعاتبه الكابتن ، وكادوا يأمرون باقتياده إلى السجن . لكن حكمته أسعفته ، لم ينكر التهمة ، بل أكدها . وأقرّ بأن السرية نامت في داره فعلاً وإنه أولم لها ، ثم أضاف وكأنه كان مغلوباً على أمره : «لو لم أفعل لقتلوني» . يومها ، فكوا أصفاده بعد محادثةٍ بين القائد والكابتن ، واختلى الضابطان به وعرضا عليه أن يخصّاه بحراسة إذا كان يخشى الثوار ، فأسعفته حكمته ، مرة أخرى ، وتملص ، بيّن لهم أنه لن يستطيع أن يضبط القرية إذا حرسه الانجليز ، وكيف سيفعل ذلك إذا كانت كل البلاد ستشير إليه وتقول : خائن! واقتنع الضابطان بسداد رأيه وتركاه طليقاً ، صحيح أنهم فتشوا دور القرية واقتادوا بعض الموقوفين ، لكنه هو الذي استنقذ هؤلاء فيما بعد . لقد وجد العسكر بعض الأسلحة أثناء التفتيش ، وكانت عقوبة الشنق مؤكدة ، وقد حفيت قدماه وهو رائح غاد للتوسط لهم ، وهو نفسه الذي جمع من أبناء القرية كلهم المال الذي رشا به الحكام ودفع نصيبه من ذلك المال ، وبسببه وحده لم يُقدّم الموقوفون للمحاكمة بل احتفظ بهم كمعتقلين فقط ، وقد ظل يلاحق قضيتهم ثلاث سنوات بطولها حتى تم الإفراج عنهم . اليوم تنسى القرية جمائله وتخلق له المتاعب . ما الذي سيقوله للكابتن حين يسأله عن النجدة ، ما الذي ستفعله الهاجاناة حين تعلم بالأمر . لقد جعل هؤلاء المفاعيص رأسه في الأرض ، سيعرف الذين قبلوا كلمته أنه بلا هيبة ، بل إنهم قد يتهمونه هو نفسه . إذا كان هؤلاء المفاعيص يخشون كلام الناس فهو أيضاً يخشاه ، لكن مصلحة القرية فوق كل شيء ، سيقول لهم ذلك عندما يعودون ، لكن ماذا سيفعل إذا لم

يقتنعوا؟ هل ستزول سلطته كليا . وعلى هذا النحو ، عاود الاضطراب المختار .

وأستأذنكم في أن أترك المختار بعض الوقت جالساً على حافة البركة لأوجز لكم ما ذكره الكابتن ادوارد (وإذا شئنا الدقة : الكولونيل ادوارد الذي حمل هذه الرتبة قبل تقاعده من الخدمة في المستعمرات) عن الواقعة التي تذكرها المختار ، عندما نشر الضابط الانجليزي مذكراته حول خدمته في فلسطين . لقد روى هذا الضابط تفاصيل الواقعة ، وقال إنه وثق بالمختار في ذلك الوقت وصدّق أنه كان مغلوباً على أمره ، بينما اعتقد قائده أن المختار يراوغ وأن ولاءه الحقيقي للثوار . وروى صاحب المذكرات كيف تجادلا ، هو وقائده ، وكيف كفل هو المختار وأخذ الأمر على عاتقه . ثم قال في مذكراته بالحرف الواحد : «أما الآن ، وطبقاً لوقائع أخرى عرفتها فيما بعد ، فإني أقر بأنني كنت مخطئاً وأن قائدي ، بالرغم من أنه لم يخدم مثلي في المخابرات ، كان على صواب» . وعمم استنتاجه معترفاً : «أولئك الفلاحون ، ما كان أدهاهم ، لقد خدعني مختارهم وهو شبه أمي طيلة ثلاث عشرة سنة ، وإني لأحترمهم!» . وقد أثارني كلام الكابتن حين قرأته ، وحاولت ان أستوثق من مشاعر المختار في تلك الليلة التي أوى فيها سرية المجاهدين ، فلم أتمكن .

أما الآن ، فلأعد بكم إلى المختار الذي طال جلوسه على حافة البركة ، بعد أن أدرك أن صلاة الجمعة لن تقام في غياب الشيخ . لقد ظل يفكر ولا يصل إلى نتيجة قاطعة ، حتى أتعبه التفكير ، فنهض متباطئاً ، وعاد إلى داره . وقُدّم إليه الطعام فأصاب منه لقمات قليلة ثم عافته نفسه ، وتمدد حيث كان يجلس ، وقد تجنبه أهل الدار كعادتهم كلما لاحظوا أنه منزعج ، فتركوه وحيداً حتى أغفى .

أما ما قطع إغفاء المختار فكان صوت مكابح سيارة أزت بنزق قرب باب داره . وحين جاء من يوقظه كان قد صحا . وقيل له إنه الكابتن ، فنهض المسكون بالهمّ متثاقلاً كي يخرج لاستقباله . غير أن الضابط اندفع من باب المضافة مخالفاً سلوكه المتأدب المعتاد ، واندفعت من فمه الكلمات بالعربية الفصحى ذات اللكنة الخفيفة :

- وَثِكْتُ بك ، فجعلتني أُدحوكة!

لم يفهم المختار هذه الـ«أدحوكة» لكنه فهم فحوى الجملة ، ما كان ينقصه غير هذا ، وعجز عن إيجاد إجابة فورية مناسبة ، لكنه تمالك نفسه :

- تفضّل ، شرّفت دارنا .

غير أن الضابط المستثار لم ينتبه للدعوة ، بل تتابعت كلماته :

- كيف تفسر هذا؟ اعتمدت على كلامك وأعتيت تعهدات كثيرات ، إليك النتيحة الملعونة ، شباب كريتكم يكاتلون ضدّنا .

كانت اللحظات التي انقضت منذ وصول سيارة الكابتن كافية للمختار كي يستعيد يقظته كاملة . كان يتوقع أن يلومه الضابط ، وقد أعطته زلّة لسان زائره الساخط مدخلا للحديث . فألح عليه في أن يجلس ، فجلس هذا آخر الأمر وكرر الاتهام ، فقال المختار بهدوء :

- شباب القرية راحو لِـ«بيت دراس» نجدة ضد هجوم اليهود ، مش ضدكو .

- ددّنا أو ددّهم ، أين وعودك؟!

- عليم الله ما عرفت إلاّ بعدما راحوا .

فنظر الكابتن إلى المختار نظرة ثاقبة تعكس حنقه الشديد ، وإن بدا أنه ، هو الآخر ، يحاول أن يسيطر على نفسه :

- هل تستطيع أن تشرح لي كيف حدث ذلك؟

عزّ على المختار أن يدين مجاهدي قريته ، وخشي في الوقت نفسه أن يتورط في الحديث .

- المفزّع أجا من «بيت دراس» ، شويّة شباب تحمسوا وراحوا معه .

- شويّ! شاحنة مملوءة وتكول : شويّ ، لا تذن أنني لا أعرف .

- شاحنة صغيرة يا كابتن ، والله العظيم صغيرة ، راحوا قبل ما أدري .

- تريد أن تكول إنهم راحو من غير إذنك . . .

- تحمسوا وراحوا ، ما حد منهم شاورني ، وشرفك .

قال الكابتن بهدوء :

- أنا مش مخبول ، فاهم! ثلاث عشرة سنة في بلدكم ، أعرف مكركم ، أنت لن تخدعني .

بوسعي أن أقول إن هدوء الكابتن قد خدع المختار وجعله يتصور أن المسألة بسيطة ويمكن تسويتها كما سوي غيرها من قبل ، ولهذا عدل المعوّل على شطارته قعدته ليسترخي وقال متبسطا :

- المسألة ما بتستاهل زعلك ، بيرجعوا ، وبنسوّيها بالتي هي أحسن .

- تريدهم أن يئودوا؟ هل تظن أنهم كانوا في ماتش حتى نسمح لهم بالأودة ، أنا شايف في شيء مش مذبوت هون!

وأشار إلى راس المختار . وارتبك المختار بعد أن كان قد اطمأن .

- «بيت دراس» مش بعيدة ، وكل غايب لا بد يرجع .

صمت الكابتن برهة ، وأحس المختار أن الرجل لم يلق الكلام ، هكذا ، جزافاً ، وأراد أن يسبر غوره ، وكرر :

- لا بد يرجعوا . وكل شيء إله وقته .

قال الكابتن بلهجة صارمة :

- اسمع! إذا ثبت أنهم ذهبوا بإذنك فلن يسلم راسك . فاهم . . هذي المرة لن يسلم ، حالاً يبدأ التحكيك .

ولم يطل الأمر ، دخل أول من اقتاده الجنود من الفلاحين .

- ماذا تعرف؟

- أعرف؟ عن إيش يا بيك . الله يسترك .

- عن النجدة التي راحت إلى «بيت دراس» .

- «بيت دراس» بعيدة ، وأنا كنت في شغلي ، الله يطول عمرك ويعطيك من عنده ، السنة غلال . . .

- تكلم عن النجدة!

بقول لك كنت في شغلي ، الله لا يشغل بالك ، رجعت وفي بالي أحضر الصلاة . اليوم جمعة الله يبارك أيامك ، الصلاة ما صارت ، قالوا الشيخ مسافر ، كنت باوكل لقمة لما أجا الأفندي بتاعك وجابني ، حتى اسأله ، شافني وأنا باوكل . .

- من الذين زاروا المختار قبلما ترحل الشاحنة؟

- أهذا سؤال يا بيك؟ الله يزيد ويبارك ، المختار للكل ، داره مفتوحة ، وقهوته ما بتنطفي نارها . . .

قال الكابتن في مذاكرته « . . أمرت بضربه فانفجر صياحه حتى أزعجني شخصياً ، فأوقفت الضرب ، لكنه صار يئن بصورة مزعجة ، فأمرت بإخراجه ، واقتيد آخر ، وآخرون . تنوعت الأسئلة ، وظلت الإجابة واحدة ، الإنكار ببلاهة . مضى الوقت ولم أحصل على شيء مفيد» .

وهذا كلام صادق . فقد جُلد يومها كثيرون ، وظل الكابتن يستجوب الفلاحين حتى غياب الشمس . وكان مرتبطاً بموعد ، والأهم من ذلك أنه يئس من الحصول على نتيجة ، وملّ ، فنهض بعد أن رفض دعوة المختار إلى

العشاء ، وأصدر أوامره بالاحتفاظ بالموقوفين في بايكة دار المختار وتشديد الحراسة عليهم ، وأبقى عدداً من العسكر لهذا الغرض ، وأوصاهم بأن يمنعوا المختار من مغادرة المضافة ، ثم ركب سيارته ومضى .

وقد جلس المختار ساهماً ، وازداد احساسه بالوحدة والذنب ، وحين حاول أفراد أسرته أن ينضموا إليه منعهم العسكر . وجاء فلاح ممن لم تطلهم يد الكابتن فاحتجزوه مع الآخرين . وأحس المختار في وحدته بوطأة الوضع ، وقر في ذهنه أن الكابتن لم يعد يثق به ، ولسعه خاطر أمضه : لو عادت الشاحنة الليلة فسيواجه من فيها عقوبة الشنق ، وهو نفسه صار مهدداً . ومضى الوقت بطيئاً مرهقاً ، وهو يلوب داخل المضافة حتى تتعب قدماه ، فيجلس ثم تنهضه من جديد خاطرة مزعجة . كان المختار على هذه الحال عندما انتهى إليه صوت امرأة تصيح : «القرية محاصرة والعسكر ربّطوا الدرب» . وتكرر الصياح المحذر . وأطلق جندي النار . وكررت المرأة تحذيرها ، ثم صمتت .

هدأت حركة القرية كأنما لفّتها يد قادرة بجلباب سابغ من الصمت والسكون . وكانت أصوات أقدام العسكر حين ينتقلون هي الوحيدة التي يسمعها المختار بين وقت وآخر ، وقد ضخمها السكون الشامل فصار لها وقع المطارق فوق رأسه ، كأنها تؤنبه . وطغى عليه الإحساس بالعجز . وردد وهو يلوب في المضافة : «لا حول ولا قوة إلا بالله» بصوت مسموع . وأجهد فكره وهو يبحث عن مخرج حتى صارت تمر به لحظات يعجز فيها عن التفكير . كان عليه أن يفعل أي شيء حتى يهدأ . وكان عجزه عن الفعل يزيد اضطرابه ويبعد عنه الهدوء . وانتبه إلى نفسه وهو يمسك رأسه بين راحتيه ويهصره : أين شطارتك يا وليد؟ أكَلَ هذا النغل من زادك ، وقبض المال من يدك ، مرات ومرات ، ولم ينفع كل هذا ، كان يتظاهر بصداقته

لك مجرد تظاهر ، كان يداهنك كي يستغلك ، والآن يحتلّ عسكره دارك ويحجزون فلاحيك في البايكة كالحيوانات ، يحاصرون القرية ، ويترصّدون مجاهديها ، وقع الأمر الذي حسبت له ألف حساب ، وقع وأنت لا تدري ما إذا كنت مخطئاً أم مصيباً . وظلّت الأفكار تحاصره فيبهظه تواترها . ووجد نفسه مدفوعاً إلى الباب ففتحه . فتنبه العسكري الواقف إزاء الباب واستعد لتصويب البندقية ، إلا أن المختار لم يتهيب ، بل وجد نفسه يقول له :

- انتو ما أكلتوش . لازم توكلوا .

لم يفهم العسكري فظل متحفزاً ، فأعاد المختار قوله وهو يشير إلى فمه ، حتى بدا على العسكري أنه قد فهم الإشارة . فرطن هذا بكلام ، فأتاه عسكري آخر . وتشاور العسكريان وامتدت المشاورات فشملت آخرين .

آخر الأمر جاء ، إلى المختار واحد منهم يعلق على عضده أشرطة ، وتحدث الإشارات ، ففهم المختار أنهم موافقون ، وأفهم حامل الأشرطة أن إعداد العشاء يقتضي ذهابه هو المضيف إلى أسرته . فتردد العسكري ، ثم هز رأسه ووافق على أن يستدعي أحد أفراد الأسرة .

عندما قام المختار بحركته تلك كان مدفوعاً بالحاجة لأن يفعل شيئاً ، أي شيء ، فكان فَتْحُ باب المضافة هو ذلك الشيء ، أما فكرة العشاء فقد جاءته عفو الخاطر ، ثم برزت في رأسه فكرة أخرى أحس بعدها بالراحة وعاوده الإعجاب بشطارته ، فهدأ .

دخلت زوجة المختار ، امرأة ناحلة ، مديدة القامة ، في حركاتها ثقة تجعلكم تدركون أن لها دالّة تستفيد منها بغير إسراف . وحين ترون ، إضافة لذلك ، أنها ، بالقياس لسن زوجها ، تعد شابة ، يتبادر لأذهانكم أنها آخر

زوجاته وأنها أثيرة عنده . وفي وسعي أن أزيدكم فأقول إنها زوجته الثالثة وإن كانت الوحيدة التي ظلت حيةً ، وهي أيضاً الوحيدة التي عاش خلَفُها .

حين دخلت زوجته ، طلب المختار منها بكلمات مقتضبة أن تعد عشاء للعسكر ، ثم بين لها ما يتهدد المجاهدين من خطر لو أمسك بهم العسكر ، وطلب منها أن تجد وسيلة لإبلاغ الأمر إلى المجاهدين .

قالت الزوجة ، من غير أن يشي صوتها بأن المهمة ثقيلة :

- الولد الكبير حطّوه في البايكة ، وإخوته زاغوا .

- مافيش وقت ، دبريها ، لو ما لقيتيش حدا روحي انت ، خبري جيرانّا في قرية «الخيام» والباقي عليهم .

- بقدرش أخلّي الدار العسكر بيتغششوا لو رحت .

- لازم حدا يروح ، لازم ، فاهمة ، لو العسكر مسكوا المجاهدين بننفضح في البلاد . فاهمة! بننفضح! وكل الناس بتقول مَسّكْهُم وليد أبو حامد ، أنا مش قد هالحمل .

- توكل بالله ، إذا ما لقيتش حد ببعث البنت .

- الولد ، البنت ، اللي هو ، لازم حدا يروح . . .

دخل العسكري ذو الأشرطة ، وبدا أنه ممتعض لأن الحديث طال ، فصمت كلاهما ، وانصرفت هي وصوته يشيّعها .

- زي ما فهمتك ، طبيخ كويّس ، لا تسودي وجهي!

وعاد إلى وحدته أقل اضطراباً ، وقد صفا ذهنه وهو يفكر في البنت التي قد تذهب وحدها ، وفي المجاهدين الذين لا يعرف الآن أين هم أو ماذا جرى لهم وكيف سيكون مصيرهم . وفكر في نفسه : داهمته الأحداث دفعة واحدة وهو بغير استعداد ، فأصبح في موقف لا يحسد عليه ، مثل

مُصَيِّفَةِ الغور ، لا الانجليز راضيون ولا أهل القرية ، كلهم يلومونه . لو مضت الأمور بسلام ووصل الخبر ونجا المجاهدون ، فإن كل شيء يمكن إصلاحه . سوف يرضى أهل القرية ويحمدون له تصرفه . وسيجد هو وسيلة ليقنع الكابتن ببراءته ، وإذا لم تقنعه الحجج فسيقدم له رشوة كبيرة ، وهو مستعد ، هذه المرة ، لأن يدفعها من جيبه . المهم أن يصل الخبر . وتذكر كيف أنهم ذهبوا بغير إذن منه ، اندفعوا من غير تفكير في العواقب ، لماذا لم يحسبوا حساب ما حدث ، هل يظنون أن الانجليز يلعبون ، لا شيء يخفى على الانجليز فهم يعرفون الكبيرة والصغيرة ، في القرى الأخرى يحتاط الناس لمثل هذه الأحوال ، عندهم مخابىء يلجأون إليها ووسائل للاتصال ، أما مجاهدو قريته فقد مضوا كالعميان ، أولاد ، مجرد أولاد!

وعندما وصل في تفكيره إلى هذه النقطة ، لسعه من جديد خاطر ورد في ذهنه ، فجعله يحس برعشة : أليس هو المسؤول؟ ألم تؤد ممانعته إلى تأخير الاستعداد؟ لو قبل أن تنهمك القرية في الجهاد مثل القرى الأخرى لما افتقدت الوسائل . ظل يعاند حتى وقع ما وقع ، وعليه الآن أن يُدبّر نفسه ، إنه يستخدم ابنته ، لقد وصل إلى هذا الحال وهو المذنب ، أجل ، ابنته ، في هذا الليل البهيم حيث لا يستطيع أن يحزر ماذا هو مخبأ لها .

وتعلق أمله في مقدرة زوجته على التدبير ، ربما وجدت واحداً من الأولاد ، أو أرسلت البنت إلى أحد فلاحي القرية ليقوم بالمهمة ، لماذا غابت عنه هذه الفكرة ، عزل نفسه عن أهل القرية فغابوا عن ذهنه ، وتعود أن يتشاطر وحده إلى أن وقع .

وعنّ له أن يتحدث إلى زوجته مرة أخرى ويلفت نظرها ، ففتح باب المضافة وجهد حتى أفهم العسكري أنه يريد رؤية زوجته . فازدادت شكوك العسكري وتردد لحظات ، ثم رفض وأغلق الباب وهو يدفع المختار إلى

الداخل . وعاود المختار شعورٌ من أُسقط في يده ، وحاول أن يشغل نفسه كي يطرد الأفكار الممضة من رأسه ، كانت حركة إعداد الطعام تتناهى إليه من داخل الدار ، فأخذ يتابع الأصوات محاولاً تفسير كل صوت ، لكن ذلك لم يشغله كلية . وأحس بالوقت يمضي ثقيلاً ثقل كتلة رصاص جاثية على صدره .

دخلت زوجته ومعها العسكري هذه المرة ، وقفت مترددة ، فانتهرها بلطف :

- تنسيش إنه ما بيفهمش حكينا ، طبَخت كويّس؟

- زي ما وصّيتني . . .

- البنت؟

- نعم ، هي .

وإذ أحست عدم رضاه فقد أكملت :

- . . انت اللي قلت .

واختلطت المشاعر في نفسه ، ما بين الارتياح لأن باب الأمل قد انفتح وبين الغيظ لأن البنت هي التي ذهبت . ولو سئل وقتها لقال إنه كان مغتاظاً فحسب . لكن لم أكن لأصدقه ، فمن الحق أنه كان مغتاظاً لأن الزوجة لم تجد أحداً سوى البنت ، إلا أن شعوره بالارتياح كان واضحاً ، أيضاً . وربما أدرك أن ذهاب البنت بنفسها سيُجَيِّرُ لمصلحته ، لأن الفلاحين سيعدّون ذهابها تضحية منه ، ويحسبونها له . وحين سألته زوجته : «أين أطعم العسكر؟» ، كان هو قد أصبح قليل الاهتمام بمسألة الأكل ، بل إنه تنبّه في تلك اللحظة بالذات إلى أن أهل القرية سوف يلومونه لأنه أولم لهم ، وردد في نفسه : بسيطة ، شرحها هين! والتفت إلى العسكري يسأله بالإشارة ، فلم يفهم ، فقال لزوجته :

- يوكلوا مطرح ما يوكلوا .

- وانت؟

- الله يلعن الأكل ، مليش نفس .

خرجت الزوجة ، وخرج العسكري وراءها ، وأغلق هو الباب ، أغلقه هذه المرة بهدوء . وجلس المختار غارقاً في أفكاره إلى أن تنبه لصوت محرك سيارة قادم من بعيد ، أصغى حتى تأكد من أن ما يسمعه ليس وهماً بل صوتاً رقيقاً يخترق سكون الليل حتى يصل إلى أذنيه ، فلم يعد ، بعد ، يسمع غيره ، كأنما الصوت سلك ممتد ما بين تلك السيارة التي يلفها الليل وبين رأسه : إذا كانت هذه هي الشاحنة فقد وقعوا وذهب تدبيره سدى . وراوده أمل بأن البنت سوف تقابلهم على الطريق وتحذرهم ، غير أن هذا الأمل برق لحظة ثم بهت . وقد أدرك أن البنت لن تسير على الطريق المسفلت وأنها ستختار درب المشاة الأقصر . وسيطرت عليه أحاسيس ثقيلة قلّ أن سيطر عليه مثلها في حياته ، غير أن تلك الأحاسيس أخذت تخفت شيئاً فشيئاً مع اقتراب الصوت ، واتضح له بشكل جازم أن ما يسمعه ليس صوت الشاحنة ، ثم ميز بجلاء صوت سيارة الكابتن المألوفة لديه ، واستعد للمقابلة .

دخل الكابتن مبتسماً وسلّم بمرح وأساريره منفرجة وتحدث بأدب مقرون بالود . كان الأمر مفاجئاً للمختار الذي أعد نفسه لغير ذلك ، حتى لقد نسي أن يدعوه للجلوس .

قال الكابتن وهو ما يزال واقفاً :

- اعذرني ، ما توكعت أن تتعم جنودي ، لكنك أنت أنت ، لم تتغير .

لم يجب المختار بل أطرق وهو يداعب الحزام الملفوف على وسطه ، والتمع شعره الأبيض المقصوص تحت ضوء اللكس ، وبدا ، بوجهه

المنكمش وجسده الذي ضؤل ، مهموماً ومتعباً يتجلد كي لا يتداعى ، وجاءه صوت الكابتن :

- . . . سامحني على تصرفي الليلة ، دع نفسك في مكاني ، كانوا في الكيادة يدحكون ويكولون : سخر منك مختار الفلاحين .

فرفع المختار رأسه ، وهزّه هزّات بطيئة في وجه الكابتن الذي جلس من غير دعوة ، وغمغم بكلمات غير مفهومة ، بينما مضى الكابتن يقول :

- . . . جاءنا أمر بالتجمع ، نحن نستعد للرحيل عن فلسطين ، حكومة جلالته وعدت وهي تفي بوعودها ، أرجو أن نفترك كأصدكاء ، أصدكاء كما كنّا يا مختار!

أدرك المختار جلية الأمر ، وغمره شعور داخلي بالارتياح ، لم ينعكس ارتياحه على قسمات وجهه المكدود ، غير أن تنهيدة مكتومة انبعثت من صدره بصوت غير مسموع . وألحف الكابتن :

- . . . هل نفترك كأصدكاء؟ كنت صديكاً لك دائماً .

جلس المختار بجانب الكابتن ولم يشعر حتى بالرغبة في الملاينة كعادته ، بالرغم من اعتذارات الكابتن المتكررة ، وتذكر كيف كان جليسه يتهدده قبل قليل .

- حطّيت رجالنا في البايكة ، زي الدواب ، ابني بينهم!

لا شك في أن الكابتن فوجىء باللهجة الجافة ، واستاء ، فنهض ووقف منفرج القدمين .

- لو جاء دابت غيري أنا لما اكتفى بتوكيف المشبوهين ، أنت فاهم ، أنت لا تُكَدّر معروفي ، نحن راحلون على كل حال ، تنسى الآن ما فعلته من أجلك ، الآن تنسى .

- غلطان ، أنا أبو خالد ، بنساش إشي ، المليحة والقبيحة .

فكرر الكابتن :

- على كل حال نحن راحلون .

وانصرف . ونهض المختار متثاقلاً لوداعه ، لكن الرجل لم يلتفت بل تشاغل بجمع عسكره وإصدار الأوامر للرحيل .

٣

عندما غادرت زكية ابنة المختار دار أبيها لم تكن تعلم ، بطبيعة الحال ، أن رحلتها ستفقد أهميتها في سياق الأحداث . وقد ترددت في أن أقص عليكم قصة تلك الرحلة ، وها أنا ذا أفعل لأن زكية حكتها لي بنفسها عندما كنت أجمع شهادات الذين اشتركوا في تلك الأحداث . والحقيقة أنها لم تطلب مني أن أنشر ما روته لي ، وهي لم تكن تعلم أصلاً أني أجمع ما أجمع لأنشره . ولكني وجدت أنها المغامرة الوحيدة التي قامت بها أثناء حياتها في القرية ، ويعز علي أن أحرمها من حق التعريف بها .

زكية هي البنت الوحيدة للمختار ، ورثت عن أبيها قوة شخصيته وورثت كل ما عدا ذلك عن أمها : القامة المعتدلة والبنية القوية والبشرة البيضاء ، والشعر الفاحم المسترسل ، والعينين الواسعتين الصافيتين بسوادهما الذي يلفت النظر . كانت جميلة من الجميلات في القرية بل كانت أجملهن على الإطلاق ، وهي تدرج في بداية عامها السابع عشر . وقد أضفى عليها حسن التغذية نضارة تفتقر إليها الأخريات . ولوحت الشمس بشرة وجهها فأكسبتها ذلك الاسمرار البراق الفاتن ، فيما ظل من

الممكن أن تلمح حمرة العافية في ذلك الوجه . كانت أنوثتها من النوع الذي يفرض نفسه بغير تبجح ، وبغير تبذل أيضاً . وإذا كان شباب القرية لم يجرؤوا على معابثة زكية لأنها ابنة المختار ، فقد كانت تحس نظرات الإعجاب بها أينما حلت ، ويمكنني أن أقول إنها كانت تبتهج بها وتعتبرها حقاً من حقوقها وتغتاظ إذا لم يوف لها . وليس دقيقاً أن أقول إن زكية كانت معجبة بنفسها ، بما توحي به هذه الكلمة من احتمال أن تكون متكبرة ومتعالية على الآخرين . فالأصح أنها كانت راضية عن نفسها . وقد بدا لي ، وهي تحدثني فيما بعد عن حياتها ، أن رضاها في تلك الأوقات عن نفسها لم يكن يشوبه غير شيء واحد هو بقاؤها أميّة . وحين قلت لها إن جيلها كله من البنات بقي بغير تعليم فلماذا الحسرة ، صمتت ولم تجب . وقد فهمت ، من غيرها بطبيعة الحال ، أنها أحست بتلك الحسرة عندما عرفت أن الرجل الذي أحبته ، ولأبادر فأقول إنه شعبان صاحب الشاحنة وسائقها ، قد تعلم القراءة والكتابة قبل أن يعود للقرية . وكانت على العموم مطمئنة إلى تفوقها ، فهي جميلة ومرغوبة وهي ابنة المختار .

وحين تلقت زكية أمر أمها بالذهاب إلى «الخيام» لم تقل شيئاً . وضعت الحطة على رأسها . واستفادت من العتمة ، وتخطت الجدار إلى الدار التي تقع خلف دارهم . كان جيرانهم ملحاحين في الأسئلة ، فحكت لهم بإيجاز ما فعله العسكر بأبيها ، بينما تكتمت بإصرار على سبب خروجها ، كما رفضت أن يرافقها أحد منهم . ومن هناك انطلقت تجتاز أزقة القرية إلى أن بلغت مشارفها .

لم يغب عن بال زكية ما غاب عن بال أمها ، وكان باستطاعتها أن تقبل مرافقة أحد الرجال لها ، وإذا رفضت فلأن الرغبة كانت تحفزها كي

تقوم بالمغامرة وحدها ، هذا ما قالته لي على كل حال . ويمكنني ، وقد عرفت قصة حبها لشعبان ، أن أجد سبباً آخر ، فلعل الأمل قد راود البنت المحبّة بأن تلتقي برجال النجدة فيراها شعبان ويعرف ما فعلته من أجلهم . وحتى لو لم تلتق به ، فإن الجميع سيتحدثون عما فعلته ، وسيصله الحديث . كان شعبان بالنسبة لها هو الأمل الذي تترقبه وهي مقيمة في دار أبيها تنتظر الزواج . وما كان أملها مجرد وهم ، فقد فهمت أنه يريدها ، فهمت ذلك من نظراته إليها كلما جمعتهما الصدف ، وتأكدت منها حين أعلمتها أم حسان أن شعبان قد فاتح الشيخ برغبته في الزواج منها ، وأن الشيخ قد استمهله حتى يجد جواً مناسباً لمفاتحة أبيها . وحين علمت هي في الصباح أن شاحنة شعبان غادرت القرية ، أحست بالخوف من المعركة الغامضة التي يمضي إليها ، وانتابها القلق حين أعلمتها أمها أن النجدة ذهبت خلافاً لرغبة أبيها ، وخشيت أن يؤدي ذلك إلى تعقيد الأمور . أما وقد أرسلها أبوها لتحذيرهم فقد عاودها الأمل ، وقد عزمت على أن تشرح لرجال النجدة ، إن التقت بهم ، ما فعله العسكر في دارهم بالتفصيل .

اجتازت زكية بمهارة السياج المكون من نبات الصبار ، الذي يحد الناحية الغربية للقرية ، واستلمت درب المشاة الذي يوصل إلى «الخيام» وهي أقرب القرى إلى قريتهم ، وتقع على مسيرة نصف ساعة منها . وتلاحقت خطواتها تنشّطها الأفكار التي تدور في رأسها . ولم تلبث أن اجتازت صف الحواكير التي تلي حاجز الصبار . وطغى إحساسها بالرهبة على أحاسيسها كافة ، فالحقول التي لفها الغموض والظلام كانت تجعل ذلك الإحساس طاغياً . وفكرت في أن تعود ، إلا أن العودة كانت ستقضي على كل أحلامها . ووجدت نفسها تجري ، لكنه كان جرياً متعثراً بسبب الدرب غير المسوى ، وبسبب ثوبها السابغ الذي كان يلتف بين قدميها ،

وبسبب الظلام والخوف الذي صار يتضخم ويتضخم كلما ابتعدت أكثر عن قريتها . وتضاعف إحساسها بالرهبة حين انحدرت خطاها باتجاه قعر الوادي الذي يفصل بين القريتين . وتباطأت خطواتها في المنحدر ، وسارت متهيبة وهي تتلمس بيدها نبتات العوسج المحيطة بالوادي . ولامها شيء في داخلها لأنها أصرت على الذهاب وحيدة . وعاودتها فكرة النكوص عن الرحلة قويةً هذه المرة حتى إنها جمّدت خطاها . وتضخم في سمعها صوت نقيق الضفادع المنبعث من قعر الوادي حتى غدا ضجيجاً متصلاً يملأ أذنيها ، فحزمت أمرها على النكوص لتصطحب أحد الرجال . وعادت بالفعل تسير على الدرب الذي أتت عليه وقد هدأ اضطرابها بعض الشيء وانتظمت خطواتها . لكنها فكرت من جديد في السبب الذي حفزها على الذهاب وحدها . ولامت نفسها لأنها ستضيع الفرصة ، وفكرت في أنها يجب أن تقاوم خوفها . وشجعها بزوغ ضوء القمر وحسم ترددها ، فعادت إلى الوادي من جديد مصممة على أن تجتازه . وصوبت نظرها نحو مواطئ قدميها وأخذت تتنقل بحذر فوق الأحجار التي تبرز في القاع . ثم شرعت تصعد الدرب الضيق إلى الحافة الأخرى .

- مين انت؟

رعشة هزت جسدها كله حين أتاها الصوت من أمامها ، ووجدت نفسها تهتف بصوت محشرج :

- زكية بنت المختار .

- لا تخافي يا بنيّة ، أنا جابر ، عمك جابر ، وين لوحدك في هالليل!

بالرغم من المفاجأة التي هزتها فإن ظهور جابر قد أفرحها ، وقد اقتربت منه وهي تردد بلا حنق :

- الله يجازيك يا عم جابر ، خوّفتني .

ويبدو أن العمّ جابر هو الذي كان ما يزال تحت وقع المفاجأة .

- ما قولتِليش وين رايحة؟

- انت ما كنتش في القرية لما هاجمها العسكر؟

- انا راجع هالحين ، زي ما انت شايفة ، تأخرت .

شرحت له سبب خروجها ، وطلبت منه أن يرافقها ، ومن المؤكد أنه كان سيفعل حتى لو لم تطلب ، ومضت بجانبه بخطوات مرحة .

وتعرف حراس قرية «الخيام» على جابر . ووصل هو بعد قليل ومعه زكية إلى دار قائد فصيل المجاهدين . كان أبو جهاد في داره ، استقبلهما في المضافة ، ثم لم يطلب من البنت أن تدخل إلى الحجرات الداخلية . وداخل زكية شيء من الزهو لذلك ، فالرجل قد عاملها معاملة الرجال ، وهو لم يستعجل إيقاظ زوجته .

استمع أبو جهاد لزكية بانتباه . وأسهبت هي في وصف ما حدث ، ولم يفتها أن تخبره كيف أنها خرجت لوحدها .

- بارك الله فيك!

قالها أبو جهاد مشجعاً . ثم أضاف وهو يتبادل نظرة مع جابر .

- . . . يخلق من الشوكة وردة .

ولم تفهم ما الذي يقصده ، لكنها ردّت بعفوية .

- أبوي هو اللي بعثني .

قال أبو جهاد :

- إحنا ما كناش غافلين ، كنا مراقبينهم ، حسّبنا ، بلا مؤاخذة ، إنه أبوك عازمهم على العشاء قبل ما يرحلوا .

ثم قال وهو يرسل نظرة ذات مغزى نحو جابر :

- وقتها ما كناش عارفين إن النجدة راحت عَ «بيت دراس» .

فقال جابر :

- طلعت من القرية بدري ، قبل ما يروحوا هم .

وظلت زكية تنتظر الجواب .

وأكمل أبو جهاد :

- بعدين عرفنا كل شيء ، ما ينشغلش بالك ، رجالنا كمان ما رجعوش ، أهل «بيت دراس» بيفلتو همش ، حتى لو خلصت المعركة ببيتوهم عندهم .

وأخذت زكية تتأمل محدثها وهي نصف ساهمة . وأحست بالخيبة ، فهي لم تفعل ما فعلته كي تسمع كلاماً كهذا ، وما الذي ستقوله لوالدها الذي ينتظر . والتفتت إلى جابر كأنها تستنجد به ، فبادلها ابن قريتها نظرة متفهمة والتفت إلى المضيف :

- سمعت إن المعركة خلصت قبل الغياب ، بالك يكون عنّ على بالهم يرجعوا .

قال أبو جهاد بسخرية ليس فيها قسوة .

- كويّس ، بارك الله فيكم ، قال : قدّيش صارلك في القصر ، قال : من امبارح العصر ، صرتوا تعرفوا أكثر مني!

نظر جابر لزكية وكأنه يقول لها : ما رأيك . وأكمل أبو جهاد بلهجة خلت من السخرية :

- . . . اتركوها علي ، خبر بيصلهم ، وإذا أجو بنخبّيهم .

غير أن نظرات زكية ظلت تشي بعدم اطمئنانها . واكتسى وجه أبي جهاد صرامة حزينة .

- . . . اسمعي يا بنية ، انت صغيرة بس عاقلة ، الروحة عَ «بيت دراس» مش مثل الجيّة من قريتكو حذانا ، الليل في نصّه ، وسيارة ما

عندناش ، والطرق في الليل مش أمينة .
تدخل جابر :
- بس قريتنا محاصرة ، ورجال النجدة بيعرفوش .
فأجاب أبو جهاد موجهاً حديثه لزكية .
- ما تخافيش ، احنا ، بلا مؤاخذة ، مش عُجّز ، كل شيء بنراقبه ، قبل جيْتكو بشويّ خبّروني إنه سيارة الكابتن طلعت من قريتكو ، وهالحين بحط على الطريق حدا ينبه جماعتكو لو رجعو في الليل .
ظل وجه زكية مع ذلك أبعد ما يكون عن أن يوحي بالاطمئنان . والحقيقة أنها أحست بأن فرصة لقاء شعبان قد أفلتت . غير أنها سكتت ، منعها الحياء عن الإلحاف . وتابع أبو جهاد :
- تخافوش تهديدات الانجليز ، هي جمعة وبيرحلوا . وهم عارفين هالإشي .
وقال جابر الذي أدرك سرّ قلق زكية :
- هيِّك شايفة! أبو جهاد عارف كل شيء ، وكل شي إله عنده تدبير .
نهض أبو جهاد ، ونهضت زكية ، وبادرها هو :
- الليلة بتباتي عندنا ، والصباح رباح .
ثم لجابر :
- . . . روح انت طمّن المختار ، وقل له على لساني : اللي صار صار وياريته يوخذ عبرة!
وغادر المضافة ليوقظ زوجته .
فقالت زكية لجابر حين أصبحا وحدهما وقد عادت وقعدت :
- شعبان مع الرجال .
وبدا جابر مفاجأ تماماً بجرأتها . ووجدت هي نفسها مدفوعة للحديث

بقوة لا تملك أن تقاومها .

- . . . خايفه عليه يا عم جابر!

وأدركت فجأة أن ما قالته قد أفلت منها ضد إرادتها ، ونظرت بحيرة في وجه جابر ، وبادلها جابر نظرة حنونة ، وقال وهو يهز رأسه هزات متفهمة :

- بخفاش إشي على عمك جابر ، أنا عارف .

ازداد خجلها وارتباكها . وعدلت وضع الحطة على رأسها بحركات تنم عن حالها . وصمتت برهة ، بينما ظل جابر ينظر إليها بحنان تفيض به ملامح وجهه كله . وقد أثر فيها موقف الرجل المتفهم . واستعادت سيطرتها على نفسها بعض الشيء ، وقالت من غير أن تنظر إليه :

- هو قال لك إشي؟

- شعبان ما قلش ، بس عمك جابر فهيم ، ولما يرجع رايح يحكي معه .

أطرقت زكيه ، وأكمل هو مشجعاً :

- . . . راضية؟ قولي لي .

- في هالوقت اللي احنا فيه!؟ الله يسامحك!

- شعبان بيريدك ، وانت عارفة ، بلاش دلع!

أسكتها الخجل . وظن جابر أنها قلقة ، فتابع بلهجته المشجعة :

- . . . أبوك؟ ليش ما يقبلش ، شعبان زينة الشباب ، وبعدين الدنيا تغيرت ، شعبان مجاهد ، وهذا مش إشي قليل ، تصدقي بالله لو كان أبوك بيسمع كلام جابر لحكيته من الصبح ، بس أنا عارف ، الرطل بدو رطل ووقية . وأنا رايح أحكي مع شعبان واقول له ما تخافش .

وواتتها الجرأة فرفعت رأسها ونظرت إليه :

- لو حاكيته قل له : أمّي راضية ، وإذا أبوي ما قبلش رايحة تحاكيه .

أشار جابر إلى باب المضافة حيث دخل أبو جهاد .

- أم جهاد ناظرتك .

- سامحني يا عم أبو جهاد ، مش جييني نوم ، وابوي مستنّي ، إذا ما رجعتش بيتوغوش ، والبركة في عم جابر ، بروح معاه .

وتدخل جابر :

- بوصلها لحد دارهم سالمة مسلّمة!

لم يلحف أبو جهاد بل قال موافقاً :

- عارف انك بتوصلها ، فيك البركة ، وهي ، بلا مواخذة ، في معزّة بنتك .

ونهضت زكية مستعجلة ، ووقفت أمام باب المضافة تنتظر جابر الذي استوقفه أبو جهاد ، وسمعت قائد الفصيل يقول له :

- قول للمختار على لساني انه يثبت . قول له ، ما تستحيش منه ، الخوافين بس هم اللي بيخافوا من الانجليز وهو زوّدها ، يصبر جمعه وكل شي رايح يتبدل ، الجيوش العربية جايه ، فَهْمه هالحكي ، وما تخافش منه!

- حاضر .

قالها جابر ولحق بزكية .

سأعرفكم على أبي جهاد بعد هذا اللقاء الأول لكم معه . وأبادر فأقول إن قليلين ممن عرفت تنطبق عليهم الأوصاف التي يتميز بها . والرجل محترف جهاد ، وما أظن أن أحداً يستحق هذا الوصف كما يستحقه هو . وحين وقعت هذه الأحداث ، كان أبو جهاد في السابعة والأربعين من عمره ، وكان ما يزال يحتفظ بقامة ممشوقة وجسد يفيض

بحيوية الشباب ، له وجه طافح بالثقة بالنفس ، وهو قادر على أن يفرض هذه الثقة على الآخرين . وجدت السياسة طريقها إلى حياته منذ كان شاباً ، جذبه إليها شاب شيوعي وفد إلى قريتهم ليعمل في المطحنة وتوثقت الصلة بينه وبين أبي جهاد . ذلك الشيوعي أخذه الحبس بعد قليل من إقامته في القرية ، غير أن غيابه لم يأخذ ما زرعه لدى أبي جهاد من ميل للسياسة . والحقيقة أن الفلاح المجاهد لم ينتسب للحزب الشيوعي ولم ينتسب لأي حزب آخر من أحزاب فلسطين ، غير أنه ظل على صلة بالعمل العام ، ودخل اسمه في قوائم المشبوهين لدى سلطة الانتداب الانجليزي منذ مثل قريته في مؤتمر للفلاحين . وحين ابتدأت ثورة العام ١٩٣٦ ، انهمك أبو جهاد فيها منذ بدايتها ، ثم تولى قيادة فصيل مجاهدي القرية . وعندما تشكلت اللجان القومية غدا رئيساً للجنة قريته ، ومحضه أهل قريته والقرى المجاورة احتراماً يستحقه عن جدارة ، فصار بمضي الوقت صاحب الكلمة المسموعة في القرية وواحداً من الوجهاء المعدودين في المنطقة . كان يعرف قريته معرفة تامة ، الكبار والصغار من أهلها ، يعرف الحمائل ، أصولها ومنازعاتها ، ويعرف القرى المجاورة ، ما يجمعها وما يفرقها ، وقد أقام صلات شخصية مع كثيرين من سكانها ، واصطفى منهم أصدقاء حميمين . عنده تنتهي مشاكل أهل «الخيام» ، وإليه يأتي المتنازعون من سكان القرى الأخرى حين تكون منازعاتهم حادة . وقد سلم له مختار قريته بهذا الدور ، واكتفى بالنشاطات التي تحتاج لختم المختار الرسمي . ولم يفكر أبو جهاد من جهته بالحصول على المخترة ، بل اكتفى بالمكانة التي حققها بما هو قائد فعلي . وقد أضفى عليه تعود القيادة وقاراً يميزه ، ومنحه حضوراً طاغياً لا ينافسه عليه أحد في أي مجلس يحل به ، وساعده صوته الصافي دوماً وجديته التي لا تفارقه ، حتى حين يهزل ،

على تعزيز مهابته في نفوس الجميع .

وكان أبو جهاد يعيش من دخل أرض ورثها هو وإخوته عن أبيهم ، وكان على وفاق معهم ، وكان قبل أن يتفرغ كلية للجهاد يشاركهم العمل في الأرض ، ثم تعودوا على أن يقوموا بالعمل بدونه عن طيبة خاطر ، وأمنوا له معيشة مقبولة بالقياس لظروف الفلاحين البائسة ، يؤثرونه على أنفسهم بما يوفر متطلبات المضافة والعلاقات الواسعة التي أقامها أخوهم القائد .

لم يصبح الرجل قائداً للفصيل لأنه ابن وجيه وابن اسرة متنفذة على عادة تلك الايام ، وهذه مسألة أستطيع أن أؤكدها من غير شكوك ، بل انتزع مكانته بجهاده وخدماته للأهالي . وحين أقرت «القيادة العليا» تعيينه قائداً للفصيل ، كان القرار تحصيل حاصل . والقرار لم يتخذ بغير مشاكل ، فقد كانت القيادة تستسهل التعامل مع الوجهاء الجاهزين ، مع المخاتير والمتنفذين في الحمائل الكبيرة ، أما أبو جهاد فقد فرض نفسه آخر الأمر فرضاً .

وحين أكل الاهتمام بالحرب العالمية الثانية الثورة ،وفرضت قوانين زمن الحرب سطوتها ، وأضافت استثناءات جديدة إلى استثناءات قوانين جائرة في الأصل ، وتشتت المجاهدون ، احتفظ أبو جهاد بصلته برجال فصيله ، ووسع صلته بالمجاهدين الآخرين ، وظل يبشر بالزمن الآتي . ثم استؤنفت الثورة ، وكانت مكانته قد أصبحت أشد رسوخاً بين الفلاحين ، بحيث لم يعد بمقدور أي قيادة أن تتعامل معهم من وراء ظهره ، وغدا فصيلة أنشط فصائل المنطقة وأكثرها شهرة . وكان هو أكثر قادة الفصائل مقدرة على توفير متطلبات فصيله وأقلهم تطلبا من القيادة . وقد جمع الأموال من الفلاحين كافة ، من كل حسب مقدرته ونخوته ، واشترى

أسلحه حملها القادرون ، ونظم شبكات للاستطلاع امتدت في المنطقة بين الموظفين العرب في دوائر الحكومة والبوليس ، وعمال المعسكرات الانجليزية والباعة المتجولين ، وراقب نشاطات القوات الانجليزية ، والعصابات الصهيونية .

وهكذا ، سلم فصيل أبو جهاد من المفاجآت ، ونجا هو من الاعتقال في كل مرة حاولوا فيها اعتقاله . وتحدث الفلاحون عن مقدرة قائد فصيلهم ودهائه ، ورووا عنه الحكايات ، مضيفين إلى الوقائع الصحيحة ما شاء لهم الخيال الناقم على الأعداء .

ولن يفاجئكم بالطبع أن رجلاً كهذا الرجل كان صديقاً حميماً للشيخ حسن ، جمعهما الجهاد المشترك في العام ١٩٣٦ وماتلاه من أعوام . وكان أبو جهاد مطلعاً على الدور الذي لعبه الشيخ بين المختار وبين المتذمرين من موقفه في القرية ، وكان يعرف أن الشيخ قد عزم على مجابهة المختار ، فشجعه على ذلك ، وبين له أن المبادرة وحدها هي التي ستكسر سطوة المختار وستدفعه آخر الأمر إلى تغيير رأيه ، وعدد له أمثلة عن آخرين تهيبوا واتخذوا مواقف شبيهة بموقف المختار ، ثم انتهى بهم الأمر إلى الرضوخ أمام تمسك الفلاحين بضرورة الجهاد واستجابتهم لداعي الدفاع عن الأرض التي يهددها طمع المستوطنين اليهود وتأييد الانجليز لهم . وحين انصرف جابر وابنة مختار القرية المجاورة ، كان أبو جهاد يدرك أنه السيل وقد وصل إلى تلك القرية . وما من شيء سيوقفه بعد .

أما جابر وزكية فسارا على الدرب التي جاءا منها كان ضوء القمر قد أنار السهل وأنار الوادي . والعيون التي ألفت أن ترى في مصباح الكاز ضوءاً باهراً كان ضوء القمر كافياً بالنسبة لها . وقد اتفقا على أن تعود زكية إلى دارهم بالطريقة ذاتها التي غادرتها بها ، إلا أنهما لم يحتاجا لذلك ،

فحين وصلا إلى القرية كان العسكر قد رحلوا عن الدار . وقد سمعا صوت السيارة وهي تغادر ، وسمعا زغرودة انطلقت من دار المختار .

كانت تلك الزغرودة إيذاناً بزوال الكابوس ، سمعها أهل القرية أجمعين ، وكأنها الصوت السحري الذي حررهم من الرعب بعد أن جمدهم الرعب في دورهم طيلة تلك الساعات . لقد عاد الناس ناساً في حلوقهم ألسنة تنطق ولهم أقدام تتحرك . وكان الرجال المحتجزون في البايكة أوائل من تحرروا ، فانطلقوا بفرح غامر إلى الساحة الممتدة بين حافة البركة وبين دار المختار . وانعقدت في التو حلقة الدبكة وكأنه يوم عرس . وتمايلت الأجساد . وخبطت الأقدام الأرض على إيقاع الأهازيج . وانطلق صوت شبّابة يسيل منها المرح بقوة سرت في أجساد المتحررين ، فجعلت حركتها أكثر نشاطاً . واتسعت حَلَقةُ الدبكة بمن انضم إليها من الوافدين ، بينما وقف وليد أبو حامد أمام باب داره يتقبل تحيات المندفعين اليه . ووقفت زوجة المختار بقامتها المديدة ، التي أخفى الثوب الفضفاض نحولها ، والنسوة حولها يهنئنها بالسلامة ولا يتوقفن عن اللغط . وألقت عجوز حطتها - في القرية يسمونها الغُدْفَةَ - على كتفيها . وبان شعرها المدهون بالحناء ، لامعاً في ضوء لوكس أوقده ابن المختار . واندفعت العجوز إلى وسط حلقة الدبكة . واخذت ترقص بهمة جنية انشقت عنها أرض مسحورة ، وقد أهاج حماسُها الراقصين حتى صارت حركتهم قفزاً . وظلت العجوز ترقص حتى أقعدها الإعياء على الأرض ، فأنهضتها نسوة قدنها إلى خارج الحلقة ، وأخذت واحدة منهنّ مكانها ، ورقصت بنشاط أوقع حطّتها عن رأسها ، فلم تلتفت إليها بل داست عليها بأقدامها وهي تواصل الرقص . وتحمس رجل فتقدم ووقف قبالة عارية الرأس ، وأخذ يرقص وهو يداورها وسط الحلقة ، بينما أصوات الزغاريد المتوافقة مع مرح الشبّابة تملأ

الجو ، حتى ضاع الفرق بين الصوت والنور ، والرجال يدورون في حلقة الدبكة وهم يرددون الأهازيج .

ومضى فلاحون آخرون وفلاحات أخريات ، ممن فرغوا من تحية المختار وزوجته ، إلى الطعام الذي خلّفه العسكر . وراح هؤلاء يأكلون وهم يمزحون ويتدافعون حتى أتوا على الطعام كلّه .

وحين وصلت زكية بصحبة جابر ، كان الحفل في بدايته . فقبّلت البنت يدَ أبيها الذي تمت فرحته بوصولها ، ثم ذهبت إلى أمها . ووقف جابر يرقب الجمع فترة ثم تقدم نحو المختار ، وقال أشياء همس بها همساً . فلم ينم وجه المختار عن أي انطباع ، وسمعه الواقفون قربه يقول لجابر : «الصباح رباح» .

٤

كانت المدرسة التي يتعلم فيها أولاد القرية تقوم فوق تلة تنتصب بينها وبين قرية «الخيام» ؛ يمشي الأولاد إلى المدرسة عبر الدروب التي شقتها الأقدام فوق حقول القمح والشعير والعدس . وتلتقي الدروب المتفرقة حين تقترب من المدرسة في درب واحد يصعد وهو يلتف حول بيارة وحيدة تنتظم أشجارها في صفوف مستقيمة ، تبدأ مع بداية سفح التل وتنتهي قريباً من سور المدرسة .

وفي صباح اليوم التالي ، وأنتم لم تنسوا أنه كان يوم السبت ، وصل التلاميذ إلى المدرسة كعادتهم ، وجمعهم الجرس فانتظموا صفوفاً في الباحة . وفاجأ المدير حشد التلاميذ بخطبة مهيبة فهموا منها أن الدراسة توقفت ، وأن المدرسة ستنبىء أهاليهم إذا استؤنفت . وبوسعي أن أقول إن الصغار كانوا يحسون الأحداث إحساساً مبهماً ، كانوا يرون الكبار مشغولين بأمور جدية غير الحرث والبذر والحصاد ، دون أن تبدو على أي منهم البهجة ، فيحسون أن أموراً غير عادية تجري ، من غير أن يدركوا كنهها ، ومن غير أن يبلغ إحساسهم الدرجة من القوة التي تشغلهم عما

ألفوه من عبث أو تمنعهم عن الابتهاج بالعطلة . وقد فرح التلاميذ في ذلك الصباح لأن المدرسة أغلقت أبوابها قبل الأوان ، ولأن هذا سيعفيهم من مشقة التحضير للامتحانات السنوية التي كانت ترهقهم في مثل هذا الوقت من العام . وما كاد مدير المدرسة ينهي خطابه حتى تفرقوا مهللين صاخبين ، ومضوا على طريق العودة جماعات جماعات ، يلغطون ويتبادلون المزاح .

وانطلق حسان ابن الصف الرابع مع اثنين من أبناء صفه ، وهما رفيقاه الأثيران . واستحث الثلاثة الخطى وفي نيتهم أن يبلغوا البيارة قبل الآخرين . ولم يكن ناطور البيارة يترصدهم كعادته . فالرجل الذي طالما عابثه الصغار لم يتوقع عودتهم المبكرة ، وقد ترك مكمنه المألوف منذ اجتازوه في الصباح .

اجتاز الرفاق الثلاثة سياج الأسلاك الشائكة الذي يسيج البيارة ، وقصدوا الناحية التي تنتصب فيها أشجار البلنسيا ، وهي وحدها التي كانت ما تزال تحتفظ بالثمر بعد أن انتهى موسم البرتقال والكريفوت ، وأخذوا يقطفون حبّاتها المتبقية في آخر الموسم ، يحفزهم الحماس الذي أثارته فرحتهم بالعطلة . وأثارهم غياب الناطور وإحساسهم بأنهم يستغفلونه . وما لبث أن توافد الآخرون وتحلقوا حول الشجرات ، يقطفون ثمارها ، ويتراشقون بها ، أو يملأون جيوبهم وحقائبهم . وعنّت لأحدهم فكرةٌ شرع ينفذها ، واندفع الآخرون يساعدونه : التقط عودا وخطّ به على الأرض هذه الكلمات بأحرف كبيرة وممدودة : «كل سنة وانت سالم ، لن ترانا بعد اليوم» . وبدأت حبّات البلنسيا تتراصف فوف الحروف ، فبرزت الكلمات واضحة باللون الزاهي . وارتفعت أصوات الضحكات الطفولية عالية ، وازداد الصخب . وفجأة ، هتف صاحب الفكرة نفسه وهو يضحك :

«لا فينا ولا في تعبنا . نسينا أن الناطور لا بيقرا ولا بيكتب»! فأدركوا أن تحيتهم لن تصل إلى صاحبها . وبلبلتهم الحيرة . وواتت حسان فكرةٌ جديدة شرع ينفذها وحده ، فأخذ يتناول حبات البلنسيا ويرسم بها شكلاً على الأرض ، وقد انبعث الحماس من جديد حين بدأت معالم الشكل تتضح ، وبادر رفاقه إلى مساعدته حتى ارتسم فوق الأرض شكلُ طفل يلوح بيده مودعاً .

- ضبطتكو يا ملاعين .

كانوا مستغرقين في عبثهم تمام الاستغراق حين أتتهم صيحة الناطور بجرسها المخيف ، فجروا كلهم باتجاه السياج . وتجمدت قدما حسان للحظة ثم جرى هو الآخر . وكان الفارّ من سخط الناطور يباعد بين سلكين من أسلاك السياج حين حطّت على كتفه اليدُ الثقيلة وأحس بوطأتها ، وأمسكت اليدُ الأخرى بذراعه .

- عرفتك يا ابن الشيخ ، بتسرق وأبوك شيخ!

فصرخ حسان من الألم والخوف .

- دخيلك يا عم!

وفعلت الصرخة فعلها ، فتراخت يدُ الناطور وإن ظل ممسكا به .

لا أجد الكثير مما يمكن أن أقوله لأعرفكم بالناطور . كان للرجل اسم بالطبع ، غير أن صفة الناطور غلبت على الاسم فصاروا يدعونه بها ، والذين يعرفونه أكثر كانوا يسمونه : أبو علي الناطور . كان يعمل ويعيش في البيارة ليل نهار وقلّما شوهد خارجها . لا ولد ولا تلد ، كما يقولون . وقد ماتت زوجته منذ سنوات نسي هو عددها ، كما نسي عدد سنوات عمره . عاش لحاله لا يخالط أحداً ولا يشجع أحدا على مخالطته إلا بالقدر المحدود الذي تفرضه مهنته . كان شكله يميزه ، طويل وعريض ، وله

وجه لو رأيتموه لخيّل لكم أنه لم يعرف الضحك في حياته . ولا شك في أن بشرته كانت سمراء غامقة بدليل السمار الظاهر في بشرة يديه وقدميه الحافيتين دوماً ، أما بقية جسمه فقد كانت مغطاة على الدوام بثياب سابغة تكاد لا تتبدل : بنطال عسكري لا يعرف أحد من أين حصل عليه ، وسترة صوفية ذات أكمام طويلة اتسخت وكلحت بتقادم العهد عليها . وكان يغطي شعره الحليق بطاقية لم يَعُدْ من الممكن التعرف على لونها الأصلي . أما وجهه فهو أميز ما يميزه : البشرة التي صارت أميل إلى السواد من أثر الشمس المتراكم طيلة سنوات ، تملؤها التجاعيد على الجبين بينما تصبح ملساء عند الخدين لتتجعد بقسوة حول الفم ، والأنف ذو الفتحتين الكبيرتين ، تحيط به عينان غريبتا الشكل تبدوان ، بالرغم من تميز بياضهما ، أنيستين ، ونظرات حزينة وحنونة تتناقض مع جهامة الوجه ، والشفة العليا التي استدقت حتى تكاد لا تظهر ، بينما الشفة السفلى على نقيضها ، سمينة وبارزة تمتد إلى الأمام حين يتأثر لشيء ، الامتداد ذاته حين يكون ذلك الشيء محزناً أو مفرحاً أو باعثاً على الدهشة .

هذا هو الوجه الذي طالع حسان حين التفت برأسه نحو الناطور الذي يمسك به ، وكان يراه لأول مرة عن مثل ذلك القرب ، وقد تعلق بعينيه حين آنس حنانهما .

- رايح أخبّر أبوك حتى يؤدبك وما تسرقش .

- أحسن تضربني وما تخبروش .

وقد وقف الآخرون خارج السياج يرقبون مصير حسان بين يدي الناطور ، وقال أحدهم برجاء :

- اتركه يا عم ، هذي آخر مرة!

وقال آخر :

- اتركه الله يرحم أمواتك!

وقال حسان :

- آخر مرة ، والله العظيم .

- كل يوم بتحلفوا إنها آخر مرة ، وبتعيدوها .

فقال حسان وهو مطرق بلهجة خجلة :

- هالمرة دغري ، المدرسة عطّلت .

ونبهت كلماته الناطور إلى أنهم يمرون بالفعل في غير وقتهم المعتاد ، فامتطّت شفته السفلى وتساءل :

- ليش روّحوكو بدري؟

قال أحدهم بجرأة :

- خايفين علينا من الهاجاناه .

وعقب آخر :

- ما هو مش داري بالدنيا ، إيش عرفه!

وضحك الصغار . أما الناطور فقد بدت عليه علامات الارتياح ومطّ شفته السفلى ثانية ، وأفلت كتفيّ حسان .

- خايفين عليكو! لازم يخافوا منكو ، انصرفوا وما تورونيش وجوهكو ، الله لا يردكو!

انتقل حسان إلى الجانب الآخر من السياج ، ومن هناك سأل وهو يلتفت نحو الناطور :

- يرحم أمواتك ، ما تقولش لابوي!

- انصرف!

قالها الناطور ، وبرزت جهامة وجهه كأشد ما تكون ، ثم أدار ظهره لهم وخطا باتجاه داخل البيارة . وتفرقت حلقاتهم من جديد وهم يسيرون نحو

القرية نازلين منحدر التل بخطوات ناشطة ، صاخبين متصايحين ، وكل منهم يُري الآخرين ما أفلت به من حبّات البلنسيا . وقد ظل حسان قلقاً ، كان يخشى أن يخبر الناطور أباه ، وهو يعرف أن الشيخ لا يجيز مثل هذا العبث .

قال عادل ، أحد رفيقيّ حسان :

- ما يهمكش ، الكبار مشغولين ومحدش مهتم ، ولو حكى له ، إيش يعني؟ طز! كل الأولاد عملوها .

فقال عبدالواحد ، رفيقه الآخر :

- حتى لو اهتموا ، ما تكنش خوّاف ، كلها أكم كلمة وأكم كف .

ثم قال ، بلهجة من نسي الموضوع كله :

- . . . العطلة بديت ، تعالوا نروح عالمحطة ونسوّيها .

وغمز بعينه لعادل ، وتساءل عادل :

- وحسان؟ بيروح معنا؟

ثم لحسان :

- . . . ولك سوّيها ولو مرة!

فردّ حسان وهو يحس بالخجل :

- انتو عارفين ، أبوي بيزعل .

قال عادل :

- يا باي شو بتخاف ، كأنه الشيخ ضابعك ، شو هو قاعد لك في المحطة ، روح معانا ، بنقلش لحدا ، أقولك ، اتفرج ، اتفرج بس ، وإلك نصيبك .

لا شك في أنكم تدركون كيف أن مشاعر حسان قد تضاربت بين خوفه المزمن من عقاب الأب وبين مغريات المغامرة . وقد روى لي هو

بنفسه الحكاية فيما بعد وهو يبتسم . ولا أخفيكم أنني تعجبت : كيف ما زال يتذكرها بتفاصيلها بالرغم من كل ما مر به من أحداث . أما المغامرة التي كان مدعواً للمشاركة فيها فقد فعلها عبدالواحد وعادل مرات عديدة قبل ذلك : كانا يدبّران علبة فارغة من علب السجائر الانجليزية ، ثم يأتيان بعيدان الذرة التي تكون قد انتصبت عالية في ذلك الوقت من السنة ، وينتزعان لبابها ويقطّعانه بحجم السجائر ، ويملآن العلبة ، ثم يقفلانها حتى تبدو وكأنها علبة جديدة . ثم يتجول أحدهما بجانب الباص عندما يتوقف في المحطة ، ويبيعها لأحد ركابه ، فيفوزان بعشرة قروش هي ثمن العلبة .

ظل حسان متردداً حتى بلغوا القرية ، وافترق عن زميليه وهما يضحكان من تردده ومضى إلى الدار . وجد أمه في ساحة الدار مشغولة بإعداد الخبز . ألقى حقيبة كتبه إلى جانبها وخلع نعليه وطوّح بهما . ثم جلس يفرغ حبّات البلنسيا من الحقيبة ويقص على أمه ما فهمه من كلام المدير .

قالت له وهي تراقب الحبّات التي جلبها :

- رجعت للشيطنة ، إيش بيقول أبوك لو عرف!؟

لسعه سؤالها :

- رجع؟

- ما حدش رجع .

أحس بالارتياح ، وتذكر دعوة رفيقيه ، غير أن تردده لم يفارقه .

- . . . روّحوكو للّعب في الغبار ، بس أنا بقول لك اياها : مش رايح تفرح فيها ، من بكرة عالشغل مع أبوك في البير .

وأمسك حسان رغيف خبز ، وقد أثارته الرائحة الشهية :

- جعان . . . اسلقيلي بيضة

- جوع الكلاب . ما لكش ساعة مفطر!

وألحف :

- اسلقيلي بيضة ، الله يخليك يامّه .

- هذا البيض مش للأكل ، بعدنا ما وفيناش دينة أبو زكريا الدكنجي . سد حنكك بلقمة خبر ، واتركني بحالي!

وازداد إلحافاً وتذللاً ، غير أنها ظلت على رفضها ، فاستثاره الحرمان من البيضة التي اشتهاها ، وقرر في تلك اللحظة أن يغادر الدار ويلحق برفيقيه ، فحمل الرغيف وانطلق .

صرخت الأم وراءه :

- استنا ، في فجل وورق بصل ، خذ طرّي خبز الذرة .

لكنه كان قد أصبح عند باب الدار وصرخ :

- برجع لما بيرجع أبوي .

وأخذ يعدو نحو المحطة ، حافيا ، مرحا ، خفيفا . لقد حسم أمره على الاشتراك في المغامرة ، وأهاجه قراره ذاته . فأسرع في العدو لا يلوي على شيء . وهناك ، وجدهما كما توقع . كانا قد فرغا من إعداد السكاير الزائفة ، وكان عبدالواحد يضعها بأناة في العلبة .

كانت المحطة في واقع الأمر مصطبة من الطين سويت بحيث لم ترتفع كثيراً عن الأرض ، وهي تمتد بين الطريق الذي يمر منه الباص وبين حجرة من الطين يستخدمها أبو زكريا دكاناً يبيع فيها حاجات الفلاحين وبعض الحاجات التي يطلبها المسافرون في الباص . وأبو زكريا في الوقت نفسه هو «المسؤول» عن المحطة . وقد أقيمت أمام الحجرة فوق المصطبة منصة خشبية ، اعتاد أبو زكريا أن يستخدمها لإعداد أقراص الفلافل . وكان جابر واقفاً قريباً من المنصة وأمامه فوق منصب من الخشب صينيةٌ تكوّم فوقها

ترمسه المنقوع بالماء المملح ، بانتظار الشارين .

أقبل حسان على رفيقيه وهو يحمل رغيف الخبز تحت إبطه ، وجلس معهما فشكلوا حلقة تخفي عن المارة ، في ظنهم ، ما يفعلونه . ولم ينتبه حسان بسبب لهفته لوجود جابر ، وقد فوجئ عندما سمع صوت الرجل وهو ينادي بلهجة ممطوطة : «ترمس! ترمس!» ، فقال لرفيقيه :

– عم جابر شايفنا .

ورد عبدالواحد وهو ما يزال مشغولاً بحشو سكائره .

– ما يهمكش منه ، عم جابر زلمة طيّب ، بيخوّفش .

وكرر جابر النداء بلهجة ذات مغزى واضح ، وكأنه يؤكد لهم أنه يراهم ويعرف ماذا يفعلون . وقد أحس حسان بالانكماش ، بينما اتجه عادل بهدوء نحو عم جابر وسأله بجرأة :

– إيمتى بيمرق الباص؟

– هذا وقته ، يا شياطين .

قالها جابر بلهجة متواطئة ، ثم أشار إلى الدكان حيث يجلس أبو زكريا داخلها .

– . . . إذا عرف ما بتوخذوش إشي . من جهته عمك جابر مش رايح يحكي .

قال عادل :

– طز فيه ، هو شو دخله . إذا قبضنا بنشتري بقرشين ترمس ، طمن بالك!

– مال حرام! يا شياطين .

– حرام ولاّ حلال ، انت الثاني شو دخلك ، بنشتري وخلص!

وقال جابر :

- هيني ناطركو، لأشوف!

وقعدوا ثلاثتهم ببراءة متكلفة على طرف المصطبة. ومع أول صوت تناهى إليهم يدل على قدوم الباص، ردد جابر نداءه المطوط: «ترمس! ترمس!»، فأرسلوا إليه نظرات متفهمة. وقد ازداد إحساس حسان بالانقباض فغالبه، ونهض مع رفيقيه حين نهضا، ووقف الثلاثة مستظلين بظل الدكان. وخرج أبو زكريا من حجرته بحركات حفيّة كأنه يستقبل عزيزا. وتوقف الباص بإزاء المصطبة. لم ينزل أحد سوى السائق الذي انهمك في حديث مع أبي زكريا. وغادر الثلاثة مستظلهم. وتقدم عادل وأخذ يتجول حول الباص، وتبعه عبدالواحد عن قرب بينما تلكأ حسان: «بلايرز، بلايرز!» رددها عادل بصوته الجريء. وامتد من نافذة الباص رأس أحمر الوجه والشعر، يعتمر عمرة العسكر الانجليز، وأشار لعادل. نجحت العملية، وقبض عادل عشرة قروش، قطعاً كبيرة رنانة تملأ اليد، وممن؟ تساءل عبد الواحد، من الانجليزي!

قال جابر:

- أشهد بالله، من هالكلب المال حلال، وقع المغفل، يا شياطين!

وأخذ يكيل الترمس.

قال عادل:

- بقرشين، زي ما اتفقنا.

- بثلاثة، كل واحد بقرش، عشان متختلفوش.

علق عبدالواحد.

- تكنش طماع!

لكنه وافق.

تناول حسان الترمس من يد جابر، ووضعه في جيبه غير عابىء

ببلله . وأعطاه عادل قرشين وقال :

- بيكفيك ، انت ما عملتش إشي!

ولم يكن حسان مهتماً بالحساب . كان ما يزال واقفاً إزاء جابر .

- مش رايح تقول لبوي؟

- اللي بيخاف ما بيعملهاش .

وكرر حسان :

- بس انت مش رايح تقول له؟

غمرت جابر موجةٌ من العطف أحس بها حسان من نظرته إليه ومن لمسة كفه على كتفه ، وقال بصوت يفيض بهذا الحنان :

- ما تخافش ، بس رايح أخلّي الفلاحين يضحكو على غفلة الانجليزي حتى يشبعوا . الله يرجّع الشيخ بالسلامة .

اطمأنت نفس حسان ، وإن لم يفهم لماذا ابتهج جابر كل هذا الابتهاج . واشترى حسان بنصف قرش فلافل . وفطن رفيقاه فاشتريا بدورهما فلافل . وتقاسم الثلاثة الرغيف .

قد يصعب عليكم ان تتصوروا أي بهجة وجدها الأولاد وهم يأكلون رغيفاً بارداً من خبز الذرة مع أقراص الفلافل التي قلاها أبو زكريا منذ الصباح الباكر وبردت بدورها ، ولكني أعرف ان بهجتهم كانت في تمامها . وكان حسان أشدهم ابتهاجاً بعد تلك المغامرة .

ليس في حياة حسان حتى ذلك الوقت الكثير مما يحتاج للتعريف به . كان كما لا بد من أنكم حزرتم وحيد أبويه ، حصلا عليه بعد مشقة كبيرة . فبعد أن عاد الشيخ حسن من الأزهر ، زوجه أبوه . وعاش الشيخ مع زوجته سنوات لم تنجب خلالها ، ولم يكن على وفاق معها ، فطلقها بعد موت أبيه ، وتزوج قريبته التي أصبحت فيما بعد أم حسان ، وعاشا معاً

سنوات ولم تنجب هي الأخرى . وثارت الأقاول في القرية ، قال بعضهم : الشيخ هو السبب . وقال آخرون : الزوجة . ونُصح الشيخ بأن يراجع طبيباً ، فتردد حتى تغلب شوقه إلى الخلف على تردده ، فمضى إلى «الجدل» وعرض نفسه على طبيب وخضع للعلاج ، متكلفاً النفقات التي أبهظته . وقد حملت الزوجة وقرّ في ذهنها أن حجبها ونذورها نفعت أكثر مما نفع العلاج . وابتهج الشيخ . ونذرت الزوجة مزيداً من النذور . ومضت خمسة شهور صار حمل الزوجة المتأخر حديث القرية خلالها . لكن الأمنية لم تتحقق ؛ اجهضت المرأة جنينها الأول . ثم أجهضت جنيناً آخر . وعاد الشيخ يستدين ويستشير الطبيب . وأصر هذا : لا بد من فحص الزوجة . وعز الأمر على الشيخ : ماذا يقول الناس حين يعرفون أن زوجته كشفت عورتها أمام غريب . غير أن الحنين المستبدّ إلى الخلف قهره وأرضخه من جديد لمشيئة الطبيب فذهب بزوجته إليه . وتكتم الشيخ الأمر عن القرية التي كانت كلها في الواقع تتحدث باشفاق عن محاولاته . وأفهمه الطبيب أن الحمل لن يتم إلا إذا أُخضعت الزوجة للإشراف الطبيّ بشكل مستمر ، وإن عليها أن تزوره مرة كل أسبوعين ، الأمر الذي لا يمكن كتمانه . ورضخ الشيخ تلك المرة أيضاً ، موطدا النفس على أن يتحمل كلام الناس . والحقيقة أن ألسنة بعضهم قد سلقته بالسخرية أو باللوم ، غير أن أهل القرية بغالبيتهم تعاطفوا معه ووجدوا له المعذرة ، وغضوا النظر عن مسلك المرأة الأولى في قريتهم التي تكشف عورتها أمام الطبيب . وحين حلّ موعد الولادة ، كانت فرحة الشيخ قد بلغت تمامها ونذر لله أن يذبح عجلاً ، متعللاً بأن الدين أحل النذر . وأقسم ألا يذوق هو أو زوجته لحم العجل . ولم يسؤه أنه اضطر لأن يبيع قطعة من الأرض التي ورثها لكي يفي الديون التي ترتبت عليه . وأعد الشيخ للأمر عدته ، واتفق بنفسه مع

الداية ، ووعدها بمكافأة كبيرة سواء كان المولود ذكراً أم أنثى . غير أن الولادة تعسرت ولم تنفع خبرة الداية . وهرع أصدقاء الشيخ بأنفسهم فاستدعوا الطبيب من «المجدل» ، وقال هذا إن الزوجة يجب أن تنقل إلى المستشفى . وتبرع الأقرباء والأصدقاء مساهمين في النفقات . وكانت أم حسان أول إنسانة في القرية تلد في المستشفى ، وهناك ولد حسان بينما كان الشيخ يلوب غير قادر على إخفاء قلقه . وقد هنأه الطبيب ثم صمت لحظة وقال : «كنت مضطراً ، ينبغي أن تعرف ، زوجتك لن تحمل بعد الآن» . قال الشيخ : «إرادة الله والأمر بيده ، عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» . وتولى العناية بابنه على طريقته ، أراد أن يكون أحسن الأبناء تربية وعلماً ، وقد وضعه في الكُتّاب وهو في سن الرابعة ، بالرغم من أن الكُتّاب فَقَدَ أهميته منذ افتتاح المدرسة ، وتوسط كي يقبل في المدرسة وهو في السادسة ، أي قبل عام من السن التي يقبل فيها الأولاد . وقد نما حسان وهو يدرك وضعه المتميز إدراكاً مبهماً لكنه قوي ، يحس بما يشبه الاعتزاز بهذا الوضع ويضيق به في الوقت ذاته ، يحبّ أباه لعنايته المفرطة به ويخشاه بسبب هذه العناية ، يطيعه إلى درجة الانصياع ويندفع بين وقت وآخر إلى التمرد .

شكلت مغامرة حسان في ذلك اليوم واحداً من تمرداته ، وظل بعدها يتجول في القرية مع عادل وعبدالواحد ، يدلّون على رفاقهم بالفلين المحشو بمادة متفجرة الذي تيسر لهم شراؤه وفرقعته تحت سمع الأصدقاء وبصرهم ، ويتكتمون مصدر ثرائهم ، حتى عضّه الجوع من جديد ، فتذكر أنه تأخر عن العودة إلى الدار . وعاوده قلقه مما يمكن أن يفعله أبوه به حين يعود ، ومر بخاطره ذلك الاحتمال بأن يتكلم الناطور ، أو يتكلم جابر ، أو تشكوه أمه بسبب غيابه وتسكعه ، وراودته الرغبة في أن تتأخر عودة أبيه .

وحين وصل إلى الدار ، وجد حسان أمه غارقة في الحديث مع إحدى الجارات ، فتسلل تسللاً ولم يدخل بصخب كعادته ، وجلس مستكيناً . ثم طلب الطعام بخجل ، وجاءته أمه بطبق عدس وخبز وفجل وأوراق البصل التي عافها في الصباح ، فلم يقل شيئاً ، بل أكل وهو صامت ، ثم وضع رأسه في حجر أمه وتمدد أمامها وأغفى .

٥

أظن أنكم لم تفقدوا الشوق لمعرفة قصة النجدة التي مضت إلى «بيت دراس» ولم تعد بعد . لقد كتب الذين أرخوا لمعركة «بيت دراس» أن نجدات كثيرة من قرى عدة وصلت إلى القرية المحاصرة في ذلك اليوم . النجدة التي قادها الشيخ حسن بلغت «بيت دراس» بعد نصف ساعة من مغادرتها قريتها ، وانضمت إلى المجاهدين الذين تجمعوا لفك الطوق . وفشل مخطط القيادة الصهيونية في السيطرة على الموقع الذي يشكل عقدة مواصلات هامة بين عدة قرى وبلدات في ذلك الجزء من جنوب فلسطين .

وبعد انتهاء المعركة ، تجمع رجال النجدات يهزجون ويدبكون في ساحة القرية . وشكل صوت الرصاص الذي يطلقه المجاهدون ، المختلط بأصوات الهازجين ، أنشودة النصر للمحتفلين بفكّ الطوق وردّ المهاجمين . أما الوجهاء الذين قدموا مع نجدات قراهم فقد اجتمعوا في دار قائد الفصيل ، وانضم إليهم الشيخ حسن بعد أن تفقد رجال قريته وتأكد من سلامتهم جميعاً .

وأحصي شهداء قرية «بيت دراس» فكانوا ستة ، وتجادل المجتمعون

حول مسألة دفنهم ، يشيعونهم ذلك اليوم أم يبقونهم لليوم التالي ؛ معظم الضيوف كانوا مع الرأي الأخير ، وفي ذهنهم أن التأجيل سيتيح لقراهم أن تساهم في التشييع كما يليق وكما تقضي واجبات المجاملة ، فتحضر الذبائح وأكياس الرز والسكر والبنّ ، على عادة القرى . غير أن قائد فصيل «بيت دراس» ورجال قريته أصروا على إتمام الدفن في ذلك اليوم . وظل الشيخ حسن محتفظاً بالصمت خلال المناقشة ، وفي ذهنه هو الآخر حالة قريته وخلافه مع المختار . وحين لمس إصرار قائد الفصيل ، قال الشيخ كلمته : «ما دامت الشمس لم تغرب فالدفن أصحّ» .

ومن مجلسه مع الضيوف ، أصدر قائد الفصيل أوامره لإعداد موكب التشييع ، وظل مع ضيوفه يبادلهم الحديث ، وشرع يحيي وجهاء القرى واحداً واحداً مسمياً إياهم بأسمائهم ، والتفت إلى الشيخ حسن وقال :

– فيك البركة يا بو حسان ، انت اللي ما خيّبتش رجانا ، ورجالكو أسُود ، فضلكو على راسنا بننساهوش طول العمر .

وردد الجالسون عبارات الثناء على الشيخ ورجاله ، متجنبين الإشارة للموضوع الحساس ، غير أن مختار «بيت دراس» ، وهو عجوز متقدم في السن ، طرق الموضوع :

– انتو عزوتنا ، احنا عارفين ، عشنا مع بعض على الحلوة والمرة ، من يوم يومنا ، واللي ممخللني هو وليد أبو حامد الخوّاف ، من إيش خايف ، اللي زيّي وزيّو شو بقي لنا في هالعمر ، الله لا يجبره ، شايب النحس!

سيطر الحرج على الشيخ حسن ، أحرجه الثناء ، وأحرجه تجريح المختار ، وظل صامتاً ، وتمنى أن يكفوا عن الحديث وعن الاهتمام به وبقريته ، وواتته الفرصة حين دخل ابن قائد الفصيل ليعلن أن الموكب جاهز ، فنهض المختار وهو يقول : «نودع شهداءنا ، ونتعشى عندنا ، من

خيركم» . وثار الجدل من جديد حول هذه النقطة ، غير أن مضيفهم حسم الأمر : «الواجب واجب والعشاء حاضر ، والطرق في الليل ملهاش أمان ، بتتعشوا وبتباتوا ، والصبح على بركة الله» .

وصار الشيخ حسن مرة أخرى موضع الاهتمام حين طلبوا منه أن يؤمّ الناس في الصلاة على الراحلين ، فلاحظ مخلصاً : «كثيرون هنا مقدمون عليّ» ، وكرر الملاحظة ، بينما أصر الجميع على تقديمه ، فازداد إحساسه بالحرج ، وأمّ المصلين وهو مشتت الفكر .

بعد الدفن ، انفرد الشيخ حسن بقائد الفصيل :

- الشمس لسّه ما غابتش ، أحسن إلنا نروّح ، احنا عندنا سيارة ومشوارنا مش بعيد زي ما انت عارف .

- بتظن إنا بنفوتها إلكو . لا يا شيخ ، شهدانا شهداكو ، وفرحه النصر للجميع ، بتروحوش قبل ما نقوم بالواجب ، وانت خص نص بلاك بيصرش إشي .

ألح الشيخ ، وظل مضيفه على إصراره . وكانت الوليمة قد أعدت بالفعل ، ذبحت الخراف وأوقدت النيران . وامتلأت دور القرية وساحتُها بالوافدين من القرى التي وصلها الخبر ، وامتدت السهرة .

في الصباح الباكر ، حملتهم الشاحنة على طريق العودة ، جلس الشيخ حسن بجانب شعبان في حجرة القيادة ، واحتشد رجاله في صندوقها . كان الشيخ ، الذي لم ينل كفايته من النوم ، مشغول البال ساهماً ، وعلى العموم منصرفاً إلى نفسه . وقد امتزج صوت المحرك بصوت احتكاك الدواليب على الأرض الإسفلتية ، فخرج ذلك الصوت الرتيب الذي تأنس إليه نفوس من لم يعتادوا ركوب السيارات ، والشيخ منطو على نفسه يفكر ، نصف متنبه ، بما حصل وبما يمكن أن يفعله المختار ، بما يمكن أن

تأتي به الأيام . وكانت أصوات الرجال المحتشدين في الصندوق تأتي إليه ، هبات ، هبات ، باهتةً كأنما تأتي من مكان بعيد ، فيسمعها من غير أن ينشغل بها . وانغلق على نفسه تماماً ، بينما سرح بصره بغير تركيز فوق الأرض الممتدة أمامه ، حيث استقبل الزرعُ أشعةَ صباح مشرق غمرت السهل الأصفر وأضفت على هدوء لونه مزيداً من الهدوء .

أما شعبان فكان على خلاف الشيخ منشرح النفس متفتحاً للحديث ، وقد ضايقه صمت الشيخ فحاول أن يخترقه .

- جماعتنا مبسوطين يا بو حسان ، بيقولو إنه عناد المختار انكسر ، ما فش إشي بيقدر يوقفهم من هالحين وطالع .

فردد الشيخ باقتضاب :

- كن مع الله ولا تبالِ .

ثم صمت من جديد ، وقد أراح المنظر والصمت أعصابه التي وترتها أحداث اليوم الماضي ، واكتسبت بشرته السمراء الملوحة تحت العمامة البيضاء إشراقة هادئة نمت على ارتياحه ، حتى أنه استغرق في إغفاءة خفيفة ، أيقظته منها يد شعبان وهي تلكزه . وفتح عينيه ونظر إلى شعبان غير فاهم . فأشار شعبان بيده إلى شيء يلوح أمامهما ، بعيداً عن الطريق . وقدر شعبان أن ما يراه هو قافلة عسكرية .

لا بد من أن تفهموا سر قلق شعبان . ففي تلك الفترة كان التنقل بين المستعمرات اليهودية قد أصبح خطراً بسبب انتشار الثورة وتزايد نشاط المجاهدين . وفي تلك المنطقة من فلسطين ، كانت المستعمرات قليلة ومتباعدة للغاية ، الأمر الذي جعل التنقل فيما بينها أكثر خطورة ، لأن عشرات الكليو مترات التي تفصل بينها تتوزعها القرى العربية بسكانها ومجاهديها المتحفزين . وقد أولت القيادة الصهيونية تلك المستعمرات

عناية خاصة ، ونشطت فيها الاستعدادات العسكرية ، الأمر الذي عنى مزيداً من النشاط في حركة التنقل . ورداً عى ذلك ، صارت فصائل المجاهدين توقف السيارات وتفتشها بحثاً عن الأسلحة والذخائر . واحتاطت العصابات الصهيونية لذلك ، فصارت ترسل مسلحين يحرسون سياراتها . فأقام المجاهدون الكمائن . وصار من المتعذر على القيادة الصهيونية تنظيم الإمداد لرجالها في المستعمرات في سيارات متفرقة ، فنظمت أمرها بحيث تنقل إمداداتها في قوافل ، تحرسها مجموعات من مسلحيها . وظل الأمر مع ذلك صعباً بالنسبة لها . وكانت القوات الانجليزية جاهزة للمساعدة ، فصار العسكر الانجليز يحرسون القوافل بهيبة السلطة وقوة السلاح ، يركبون المصفحات المزودة بأجهزة اللاسلكي ، ويتقدمون القافلة ، ويشقون لها الطريق . إلا أن المجاهدين لم يتهيبوا وظلوا ينصبون الكمائن ويطلقون رصاص الرشاشات على المصفحات فيعيقون حركتها ، أو يبثون الألغام في طريقها حيث تتيسر لهم الألغام . فاستبدلت المصفحات بالدبابات ، والأسلحة الخفيفة بمدافع «المورتر» ، أسماء حفظها الفلاحون وعنت لهم الخراب والدمار . والانجليز الذين ابتدأوا بالسير في طابور الحراسة للقوافل معتمدين على خوف المجاهدين من هيبتهم ، لم يلبث أن فرضوا أسلوباً جديداً ، فصارت الدبابات تنتقم من الأهالي ، تقصف القرى بالمدافع ، وتطلق الرشاشات على الأبرياء كلما تعرضت قافلة لإزعاجات المجاهدين . وهكذا ، صار مرور القافلة خطراً يحسب الأهالي له ألف حساب . وصارت القافلة في حد ذاتها عدواً يخشاه الأهالي كما يخشى ساكن المناطق الحارة الحيّة ذات الأجراس . بلاءاً متحركاً كانت تلك الدبابات ، لا تؤذيها البنادق ولا الرشاشات التي بحوزة المجاهدين ، وتكاد ألغامهم ، البسيطة عزيزة المنال ، لا تهز خواصرها .

وقد التقطت أذن الشيخ حسن موجات متقطعة من الهدير القادم من بعيد ، وأدرك جلية الأمر ، وساوره وهم مقرون بأمل خفي بأن تكون القافلة ماضية في الاتجاه الذي تمضي فيه شاحنتهم ، بحيث يتسنى لهم أن يتجنبوا مجابهتها وجهاً لوجه ، وامتدت يده بحركة تطلب من شعبان أن يهدئ السرعة . غير أن هذا الوهم سرعان ما تبدد أمام الخطر الماثل بغير لبس .

ظلت القافلة تقترب ببطء لكن بثبات . وخفف شعبان سرعة شاحنته ، وتوقفت أهازيج الرجال في الصندوق . ولم تعد أذن الشيخ تلتقط سوى الهدير الذي يحمله المدى . وركز الشيخ تفكيره فيما يمكن أن يقع ، وهو يدرك أنه هو المسؤول على الرغم من أن أحدا لم يولّه المسؤولية . طلب من شعبان أن يوقف الشاحنة . وكان قد تساءل بينه وبين نفسه ، يداعبه أمل ضئيل بالنجاة : هل من الممكن أنهم لم يسمعوا بمعركة «بيت دراس»؟ واستبعد ذلك الاحتمال ، فقد نقلت الإذاعات انباءها . وكان وقت النكوص إلى الوراء قد فات ، فالقافلة قد شاهدت الشاحنة ، ولو عادوا للفتت حركتهم نظرها ، وفي وسع مدافعها ورشاشاتها أن تطالهم .

نزل الشيخ وكذلك فعل شعبان من حجرة السائق ، وتحلق الرجال حوله بجانب الشاحنة وقال أحدهم :

– يمكن يخلّونا نكمّل الطريق ، لو خبّينا البواريد .

ورد شعبان :

– مين بيضمنهم ، يمكن يفتشونا .

سأل الشيخ موجهاً سؤاله للجميع :

– ذخيرتكو بتكفي؟

ورد صوت :

- معانا شوية .
وعقب آخر
- معندناش قنابل .
وفكر هو : ما باليد حيلة . ثم تساءل :
- بنسلّم حالنا؟
قال شعبان ووافقه الآخرون :
- الانجليز بيشنقوا المجاهدين ، وإذا وقعنا في إيدين الهاجاناة بيذبحونا ذبح النعاج .
هتف الشيخ فجأة :
- شعبان! ع الشاحنة! ع الشاحنة يا رجال! توكّلوا على الله! وقفز بخفة مفاجئة إلى مقعده بجانب السائق .
- خش في السهل ع يمينك!
- في خندق ، انت شايف ، والعجال بتعلق .
قال شعبان ملاحظته ، لكنه لم ينتظر جوابا بل هبط مسرعاً من مكانه ، ورآه الشيخ يشير لمن في الصندوق ، فسووا على عجل ممرين للدواليب ، وعاد شعبان إلى مكانه ولوى عجلة القيادة واندفع نحو السهل بكامل قوته . اهتزت الشاحنة وهي تجتاز الخندق ، ثم طوت تحتها عيدان القمح المنتصبة وفتتت طين السهل الجاف ، ومضت ببطء وهي تتأرجح . وانطلق صوت رشاش وتبعته أصوات أخرى . وتوقفت الشاحنة قبل أن تبتعد كثيراً عن الطريق . كما توقفت مركبات القافلة تباعاً ، بينما كان هديرها يخفت مفسحاً المجال أمام صوت الرشاشات الذي لم يعد سواه مسموعاً في السهل .
ووجد الشيخ نفسه هو والفلاحين على الجانب الآخر من الشاحنة

محتمين بها من الرصاص ، ونظر من أسفل الشاحنة فرأى دبابة المقدمة تقف غير بعيدة من المكان الذي انعطفت منه شاحنتهم ، ووراءها تنتظم بقية المركبات . واشتد الإطلاق ، كانت الطلقات تصطدم بالشاحنة أو تنغرز في الأرض أمامها ووراءها . وانطلقت رصاصات بنادق من حوله ، وقد أدرك أن ذلك لا يجدي . وخطر له أن يطلب من رجاله الكف عن إطلاق النار ، لكنه لم يفعل ، وانتهى إلى الاقتناع بأن الأمر سيان ، أطلقوا أم لم يطلقوا ، فليفعلوا شيئاً خيراً من لا شيء ، وداهمه الإحساس بأنهم مقضيّ عليهم لا محالة ، وهتف بأشد قوته :

- توزّعوا ، خبّوا حالكو في الزرع واتوزّعوا ، الله المنجّي!

ونظر حوله فواجهته عينا الشاب جواد . كان في رأيه أن جواداً هذا فتىً نزق ، وكان يخاف عليه من نزقه وتهوره ، فثبت فيه عينيه لحظة . وهمّ جواد بأن يقول شيئاً لكنه عدل . ونظر الشاب إلى بارودته ، كأنما أثّرت فيه نظرة الشيخ ، فأعاد مغلاقها المفتوح ، وأطلق طلقة كأنها احتجاج ، ثم استدار وزحف وراء الزاحفين وسط الزرع . وتبعهم الشيخ . ولما رآهم يزحفون متجمعين بعضهم بجانب بعض فقد صرخ :

- توزّعوا ، بقول لكو : توزّعوا!

فأخذوا يتباعدون ، وأجسادهم الزاحفة تحتضن الزرع وتطويه تحتها وتخلف فيه دروباً متشعبة ، واستمر هو يزحف وراءهم . كان يفعل ذلك لأول مرة في حياته ، وقد أحس بأن الجبّة تعيقه ، وانتبه في تلك اللحظة إلى أن رأسه أصبح عارياً ، ولم يجد متسعاً من الوقت ليبحث عن العمامة ، وجاهد بينما الرصاص ينهمر لكي يزحف بقوة أكبر ، إلا أنه ظل في المؤخرة . واشتد الحاح الرصاص أكثر فأكثر . وأحس الشيخ بالحاجة لأن يبذل مجهوداً أكبر في الزحف فيما الجبّة تعيقه ، فمال على جنبيه

تباعاً وتخلص منها ، ثم فكر : إن الفرصة ضئيلة وهذا الزحف لن يجعلهم بمنجاة ، ولو أمكن أن يَجْروا جرياً بدل الزحف لابتعدوا أكثر . ويبدو أن الفكرة ذاتها قد خطرت لسواه . ورأى هو شاباً لم يميزه يرفع قامته ويحبو ثم ينطلق جارياً بجسده المحني وسط الزرع . وفجأة ، التوى جسد الشاب ، وتلكأ لحظات ثم انطلق من جديد . وأخذ الزرع ينفرج عن قامات جديدة ، تتحرك بين عيدانه واحدة بعد أخرى . وغدت الأجساد أبعد فأبعد عن الشيخ الملتصق ، بعد ، بالأرض ، وظل الرصاص ينهمر بينما هو يزحف بأقصى قوته ، مقدراً أنه الوحيد الذي بقي ملتصقاً بالأرض .

سمع صرخة أمامه على اليسار ، فرأى شعبان يمسك فخذه بيده ويترنح ، ثم رآه يجري من جديد ، ثم لم يشعر الشيخ كيف انفصل جسده عن الأرض ، أخذ هو الآخر يجري باتجاه شعبان ، حتى أدركه ، والتصق به ، وحاول أن يساعده على الجري . وقبل أن يستوعب نظرة الشاب الممتنة ، دوى انفجار ألصقهما معاً بالأرض من جديد . كانت تلك قنبلة تبعتها أخرى . ووجد الشيخ نفسه منبطحاً بجانب شعبان ، وجسداهما متلاصقان . وأجال بصره فشاهد خطوط الجري التي يكشفها ميلان عيدان الزرع وقد اضطربت ، وسمع نفسه يصرخ بقوة :

- إلزموا الأرض ، كلكوا! الانجليز شغّلوا المدافع .

وسواء سمع الرجال صوت الشيخ أم لا فقد فعلوا ذلك ، ولم يعد من الممكن تمييز مكامنهم وسط بحر الزرع الممتد .

توقفت الرشاشات ، وظل مدفعان يطلقان قنابلهما بالتناوب . واعتادت أذنا الشيخ على أصوات الانفجارات ، بل إنه ، وقد فارقه الاضطراب ، أخذ يتنبه لتواترها . وقلب جسده مبتعداً بعض الشيء عن جسد شعبان ، واستلقى على ظهره في وضع أدعى إلى الراحة وسط

شميم الزرع الذي غدا بمقدوره أن يتنفسه ، ورفع رأسه قليلاً محاولاً أن يرى ما يجري حوله ، وقدر أنه هو وشعبان أقرب الرجال إلى القافلة . وعاد فأراح رأسه على الأرض . وأسلم أمره إلى الله وهو يردد بصوت يسمعه شعبان : «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» .

مضى بعض الوقت منذ انفجرت آخر قبنلة ، كان الشيخ ما يزال مستلقياً على ظهره وسأل شعبان :

- إيش حاسس؟

- خفيفة ، رصاصة مرقت فوق الفخد ، شطفت اللحم شطف ، بس ما خشّتش فيه .

- الله يسلّم!

قالها الشيخ ، ثم عاد فانبطح على بطنه . واعتمد على ساعديه فرفع رأسه وميّز من حركة الزرع أجساداً تحاول أن تنهض ، واستفهم صوت : هل نبقى جامدين؟

وأدرك الشيخ أنه هو المعني بالسؤال لكنه لم يرد . وتكرر الاستفهام فرد : «لننتظر ، ما باليد حيلة» . ثم أرخى ذراعيه ، وعاد من جديد يستلقي على ظهره ، وقال يخاطب شعبان بلهجة من يحاور نفسه :

- شايفلك مش رايحين يطاردونا ، الله العليم ، خايفين يتورّطوا بين الزرع .

ورد شعبان :

- بالك .

وقدر الشيخ ، مدفوعاً بآماله ، أن الانجليز لا بد من أن ينصرفوا آخر الأمر ، وإذا سلم الله جماعته من القنابل فكل شيء يهون . كانت انفجارات القنابل قد أطلقت في السهل أدخنة امتزجت فيها رائحة البارود

برائحة الزرع المحروق . ومن حسن حظهم ، كما لاحظ الشيخ ، أن الريح كانت ساكنة ، فلم تنتشر الحرائق فتكشفهم . كان في مكمنة قد أسلم أمره نهائياً وهو يحس أنه بلا حول ولا طول . وعنّ على باله حسانُ فتذكر كم شقي حتى أكرمه الله به ، وتوجه لربه بالدعاء : «بحسنته سلّمنا» ، وكرر في سره ، وهو مستلق ، أدعية يحفظها . وهدأت نفسه بعض الشيء وسط ذلك الجو الملفوف بالصمت والترقب . ورفع رأسه وألقى نظرة سريعة على الطريق . كانت القافلة في مكانها كما سبق أن رآها . والتقت عيناه بعيني شعبان ، فتفرس في وجهه ولم يقل شيئاً .

وامتد الصمت دقائق أخرى . وكان الشيخ يتوقع أن يسمع في كل لحظة صوت انطلاق القافلة المؤذن بابتعاد الخطر ، ثم جاءه صوت شعبان :

- خلّينا نبعد أكثر يا أبو حسان ، إيش رايك؟

قال الشيخ بغير حماس :

- على بركة الله .

ونهضا ، وكان سواهما قد بدأ يتحرك ، أكثر من واحد ، وانطلقا يجريان من جديد ، وجرى الآخرون ، صار الجميع يجرون بكل قوتهم .

وفجأ ، انفجرت أمامه قنبلة ، غير بعيد منه ، كان صوت انفجارها مريعاً ، وأزت طلقات استطاع بالكاد أن يميز أصواتها بعد أن أصم انفجار القنبلة أذنيه . وأتاه صوت شعبان ، كأنما ينبعث من قرار سحيق :

- مشق قادر أجري ، رجلي بتوجعني .

والتفت إليه فرآه ينبطح ، وانبطح بجانبه ، ألقاه على الأرض التعبُ والقلقُ والخوفُ من الانفجارات والرغبة في أن يبقى بجانب شعبان . وازداد تواتر الانفجارات .

قال شعبان :

- مبيّن عليهم مش ناويين يمشوا .

فرد الشيخ بصوت مبحوح :

- الله المنجّي .

وسمع للحظة أقصر من الوهم أزيزاً مرعباً خُيِّل له معه أن القذيقة تعبر مجرى سمعه هو بالذات ، ودوى انفجار ملأ أذنيه بالصمم ، وأحس نفسه خفيفاً وكأنه محمول في الهواء بأيد غير منظورة ، تشيله وتطوح به لمسافات خيالية ذات اليمين وذات الشمال ، ثم أحس إحساساً غامضاً وكأن جسده يرتطم بالأرض . وهدأ كل شيء .

رفع شعبان رأسه فلفّه دوار شديد عصف به ، ثم تحامل على نفسه ، ورفع رأسه من جديد ، ونظر باتجاه القافلة ، فرأى ، وكأنه في حلم ، عساكر يرفعون مدفع مورتر إلى مركبة . كانوا على مرمى من بندقيته لو فكر في إطلاق النار ، لكن رأسه كان يدور فأرخاه مرغماً ، واستراح لحظة ، ثم التفت باتجاه الشيخ الراقد بجانبه . كان الشيخ ساكناً تماماً ، ووجهه ينم عن ارتياح واتاه بعد تعب طويل . وشدت انتباه شعبان بقعة دم تجلل قنباز الشيخ عند الصدر من ناحية الكتف الأيسر ، وبدا لشعبان في تلك اللحظة كأنه يعيش وهماً لا صلة له بالواقع . وفرك شعبان عينيه فتحسست كفُّه غباراً كثيفاً يجلل وجهه ، وكأنما تنبه دفعة واحدة ، وتذكر ما حصل . وحاول النهوض بقوة ، غير أن موجات من الدوار ظلت تلفه موجة بعد موجة ، وهو يغالبها ويغالب رغبة قوية في التقيؤ . وقد لاحظ أن حلقه صار متربا ، فحاول أن يبصق غير أن الحلق كان جافاً أيضاً . ومسح وجهه بعناية فعلقت كفّه بقشة كانت على جبينه عند منبت الشعر ، فنحاها بهدوء ثم استراح بغير حراك وعيناه مغلقتان ، غير أن أشعة الشمس ظلت تزعجه بضوئها الذي ينفذ من خلال الجفنين . وسمع صوت المحركات تجأر من

جديد فقدر أنها مركبات القافلة تستعد للانطلاق . وقد انطلقت المركبات بالفعل وهو يتابع حركتها بذهن نصف متنبه ، وحين قدر أنها لم تعد تباريهم رفع رأسه أكثر مما فعل في المرة السابقة ، فعصف به دوار أعنف ، إلا أنه لم يستسلم له بل راقب القافلة وهي تمضي .

عُنْفُ الدوار الذي عصف برأس شعبان أنساه الشيخ الممدد بجانبه . غاب الشاب عن وعي شعبان هنيهات وهو جالس يتكىء على ذراعيه من خلفه وساقاه ممددان ، ثم نبهه من جديد تصايحُ الرجال وهم ينادون بعضهم بعضاً ، وفتح عينيه ومال نحو الشيخ ، وتذكر دفعة واحدة أن الرجل في خطر ، فتحرك نحوه بعزيمة لا تهيؤها له حاله لو لم يبذل جهداً إرادياً خارقاً ، وأزاح طرف القمباز من جهة قلب الرجل المصاب ، وقرب رأسه وفي نيته أن يستمع إلى دقاته ، لكنه غاب عن الوعي قبل أن يسمع شيئاً ، وظل رأسه فوق صدر الشيخ .

حين صحا شعبان مرة أخرى ، كان الرجال قد مددوه في وضع مريح وغسلوا وجهه ورأسه بالماء ، وكان الشيخ ما يزال ممدداً بجانبه هو الآخر يحيط به عدد من الرجال .

قال جواد الذي تنبه قبل غيره إلى أن شعبان فتح عينيه :

- ما تخافش ، انت بخير ، شد حيلك ، ولاد الكلب .

ونظر جواد بحنق في الاتجاه الذي مضت فيه القافلة وأرسل بصقة عنيفة . وتساءل شعبان بعينيه عن حال الشيخ ، فرد جواد :

- جرحه غميق ، هبشوا كتفه ، الكلاب!

ثم دنا من شعبان وأعانه على الحركة حتى استقام جذعه بينما ظلت قدماه ممدتين . وأمسك شعبان رأسه بين راحتيه وضغط عليه وأداره بهما يميناً ويساراً ، فأحس بشيء من الراحة ، وأخذ يتجول بنظره على المتحلقين

حوله ، كأنه يتفقدهم ، وتساءل .

- تصاوب حدا؟

فخرج صوته محشرجاً ، منكرا ، وقد انتبه إلى ذلك .

ورد واحد من الواقفين وفي صوته رنة أسى :

- أبو سمير ، أعطاك عمره ، قنبلة بحالها أجت عليه .

وأكمل آخر ، وقد لاحظ اكفهرار وجه شعبان :

- انجرحوا ثلاثة جروحهم بسيطة .

تساءل شعبان :

- مين؟

- سعيد ابن الخرسا ، ناديته ماردش علي ، جرى بطوله وعرضه ، أجته على جلد راسه ، وشرمت ذانه .

وأكمل جواد :

- سِلمْ ابن الخرسا . وعزمي الدحدول ، هو الثاني ، معرفش يزحف ، جرى على أربعته زي الدابّة ، أجتو في قفاه ، الله لا يورّيك حالته ، أظن إنه الإصابة خفيفة ، بس هو مش مخلّي حدا يكشف عليه . وانجرح كمان محمود أبو حجر ، كان لابد بين الزرع ، أجاه حجر على سنامة ظهره ، وهيّو بينط وبيعيّط مثل الاولاد .

استمع شعبان إلى الأنباء وهو نصف ذاهل ، ولم تكن لديه القدرة على تمييز إحساساته ، والحق أن فرحاً خفيفاً كان قد امتزج بأحاسيسه حين تأكد أنه سلم ، أما الآن فقد زايله الفرح .

وقال جواد نصف ساخر ونصف مشجع :

- قم ، بلاش دلع! فيكش إشي ، لازم ننقل الشيخ ، نزّ دم كثير ، العرصات! أجت ضربتهم في الشيخ ، أخ!

قال شبعان بوهن مبعثه أساه :

– شويّة ميّه . . .

وأشار إلى حلقه .

وأتاه رجل بوعاء الماء الذي أحضروه من الشاحنة ، وكانت ما تزال فيه بقية من ماء ، وحمل شعبان الوعاء بيديه وعب جرعة تمضمض بها ثم بصقها وكرر ذلك ، ثم تحامل على نفسه حتى وقف ، وبعث وقوفه الحركة في الجميع وشرعوا يهيئون المصابين من أجل نقلهم إلى الشاحنة .

مشى عزمي الدحدول الذي أصيب في قفاه نحو الشاحنة متقدماً الجميع ، متجنباً النظر إلى أحد ، محاولاً أن تكون مشيته طبيعية . أما سعيد ابن الخرسا فكان ما يزال يبتسم ببله . وكف محمود أبو حجر عن الشكوى والتزم الصمت . وحمل رجلان شيئاً ملفوفاً في قمباز ، وقد حزر شعبان أنه جثمان رجل القنبلة . وتعاون عدة رجال فحملوا جسد الشيخ ، ومضى الجميع باتجاه الشاحنة . والتقط رجل جبّة الشيخ أثناء سيره وحملها معه لكن ما من أحد انتبه إلى العمامة . ومشى شعبان معهم وقد أمسك جوادُ بذراعه . ولما بلغوا الشاحنة ، اتجه الذين حملوا الشيخ إلى حجرة السائق فنبههم صوت : من الخير أن يمدد في الصندوق .

جلس شعبان وراء المقود ، وجلس جواد إلى جانبه ، وانحشر معهما في حجرة السائق عزمي الدحدول مركزاً ثقله على إليةٍ واحدة ، وهو يداري خجله ، قلقاً متوحداً . واستدار شعبان بشاحنته وهو يجهد ليحتفظ بيقظته ، فأخرجها من السهل . واستوت الشاحنة من جديد على الطريق الاسفلتي .

٦

الآن سأعرفكم على شعبان .

ولد شعبان في أسرة فقيرة ، كان أبوه كما يقولون رجلاً في حاله لا يشاكل أحداً . وكان الأب يملك قطعة أرض صغيرة يزرعها بنفسه ويدبر أمور أسرته من دخلها الضئيل ، وقد رزق بولدين هما شعبان وأخوه الأكبر ، الابن الأكبر للأسرة ، وثلاث بنات . ثم مات الأب فجأة . أخذته حمى لم تمهله ، وشعبان في العاشرة من عمره . وتوجب على الأم أن تعمل في الأرض بمساعدة الولدين ، لكن أي مساعدة كان بمقدور صبيين أن يقدماها للأم؟ وهكذا ، تردت أحوال الأسرة ، وزاد من ترديها أن أخاه كان يكره العمل في الأرض ويظل يتذمر ليل نهار ، وانتهى الأمر بهذا الأخ إلى الهرب من القرية . وتدخل خال لهم ، وأعاد الولد المتذمر ، الذي استطاع أن يعمل سنة أخرى ، ثم : «لو حطيتوا في راسي بارودة مش رايح أفلح ولا أزرع» . وكان قد قر في رأس هذا الولد أن يغادر القرية ويجرب حظه في مدينة «يافا» ، وأغوى شعبان ليذهب معه . وانتهى الأمر بصفقة مع الخال : يتصرف بالأرض مقابل إعالة الأم والبنات ، وما يدفعه من ماله

زيادة على دخل الأرض يُعدُّ ديناً لاحقاً على الولدين . وفي «يافا» ، عمل شعبان وأخوه أجيرين عند رجل يافاوي يملك ورشة لتصليح محركات السيارات والزوارق . وقد شغّلهما اليافاوي مقابل الطعام والمبيت في الورشة . استهوت المهنة شعبان وسرعان ما علقها ، أما أخوه فلم يعجبه الوضع الجديد فظل يتذمر . ولاحظ اليافاوي نشاط شعبان وتقدمه في المهنة ، وشكا من كسل الأخ . وساوم الرجل شعبان : عرض عليه أن يعطيه خمسة قروش كل يوم ثم رفع العرض إلى عشرة ، على أن يترك أخوه العمل ليبحث عن مهنة أخرى . ورفض شعبان العرض بعناد الصبي الذي كانه ، وأصر : إما أن نبقى معاً أو نذهب معاً . فبلعها اليافاوي على مضض بعض الوقت ، وظل يشكو من الأخ . وكان هذا لا يكف عن التذمر ، وقد كره الوضع الذي هو فيه . ثمّ دبر الأخ نفسه بالفعل ، هاجر إلى أميركا ، ساعده رجل يهودي كان يتردد على الورشة لتصليح سيارته ، وحمله البحر بعيداً . وتابع شعبان حياته وحده ، صار يحصل على أجر ، ثم صار أجره مجزياً . وانتسب إلى مدرسة ليلية فصار يقرأ ويكتب . ولم تنقطع علاقته بالأسرة طيلة السنين التي أمضاها في «يافا» . كان يقتصد ويرسل للأسرة بعض ما يقتصده . وكان يزور القرية من وقت لآخر ويحمل الهدايا لأمه وأخواته . وبعد رحيل الأخ ، حاوروه لكي يعود إليهم لكنه كان قد انهمك في جو جديد ، وكان يعتذر بلطف . وقد زاره الخال مرة محاولاً إقناعه بالعودة ، غير أن أحوال شعبان المزدهرة ، بالقياس لما يمكن أن يكون عليه حاله في القرية ، جعلت الخال يتوقف عن محاولته . وظل شعبان يعمل في «يافا» إلى أن اضطربت الأحوال فيها وكسد العمل . وعرض عليه اليافاوي أن يبيعه شاحنة صغيرة مستعملة كان يستطيع أن يدفع جزءاً من ثمنها من وفره . ونصحه اليافاوي بأن يدبر بقية الثمن ببيع قطعة الأرض

التي تملكها الأسرة . فكتب شعبان لأخيه يستشيره ، وبيّن له أن العرض مغرٍ لأن السعر رخيص ، وأن عمل الشاحنة سيضمن معيشة الأسرة . وجاءه رد الأخ ومعه شيك بمبلغ مناسب قال الأخ إنه استدانه . وهكذا صارت لشعبان شاحنة يملكها هي الشاحنة التي يركبها الآن ، صغيرة وعتيقة ، لكن محركها سليم ، فهو الذي يشرف بنفسه على صيانته . وعاد بشاحنته إلى القرية يشغّلها في نقل الركاب والأحمال ، وصار محط الأنظار ، فليس قليلاً أن يملك شاب في سنّه شاحنة وهو ابن قرية . وقد وضعه عمله مع الفلاحين في صلب مشاكلهم ، الخاصة والعامة ، وانتظمت حياته بما هو واحد من أبناء القرية المهمين ، يحبه الناس ويحترمونه لاجتهاده في خدمتهم وحسن معاملته لهم . وفكر في الزواج فوقع اختياره على زكية . أعجبته الصبية منذ رآها ، فتكتم إعجابه ، وأخذ يراقبها وهو يدرس المسألة ، ثم كلم الشيخ حسن ووعده الشيخ بأن يتدخل ، واستمهله حتى يجد الوقت المناسب . وقد حاول أمس ، بينما كان يجلس مع الشيخ في الطريق إلى «بيت دراس» ، أن يستدرجه للحديث في الموضوع .

لم يكن الشيخ قد أنبأ أحداً بحواره العاصف مع المختار . حتى إن شعبان توهم كما توهم سواه من رجال النجدة أن الشيخ ذهب معهم بعد أن أقنع المختار . وقد قال له الشيخ أمس باقتضاب : «لكل شيء أوانه» ، ثم غيرّ الموضوع .

هل من اللائق فتح الموضوع بعد أن حصل ما حصل؟ سأل شعبان نفسه هذا السؤال وهو يقود الشاحنة على طريق العودة . وتلاحقت في ذهنه الأسئلة ، كل سؤال يجرُّ سؤالاً جديداً .

- اصح لنا يا خوي .

قال جواد ذلك وهو يهز الطرف المتدلي على كتف شعبان من الحطّة التي يلف بها رأسه :

- . . . الدحدول ركبه الخرَس وصار لسانه في دبره ، عند الجرح ، وانت مش في هالدنيا ، رأيي إنّا نوقف في «القسطينة» بالك نعمل إشي للشيخ .

- وأنا برضه هذا رأيي .

ثم لكز جواد عزمي الدحدول :

- بتقدر انت الثاني تغسل دبرك!

فهمر الدحدول متذمراً ، ثم عاد إلى صمته .

توقف شعبان بالشاحنة أمام دار المختار في قرية القسطينة . وفي المضافة ، عالجوا الشيخ : غسلوا جرحه الذي كفّ عن النزف وغطّوه بالبنّ المطحون ، ونزعوا عن الجريح قمبازه المدمى ، وألبسوه واحداً نظيفاً . وعالجوا بالطريقة ذاتها جراح شعبان والآخرين . أما عزمي الدحدول فقد رفض أن يغادر الشاحنة . وحلف عليهم المختار كي يبقوا للغداء فاعتذروا ، واقترح عليهم أن يَدَعوا الشيخ عنده لأن جرحه خطير فرفضوا ، ماذا يفيده البقاء ، الأفضل ان يستقر في داره .

تابعت الشاحنة رحلتها ، وقد أصبح شعبان أكثر نشاطاً بعد أن استعاد يقظته بتمامها وألف آلام فخذه فلم تعد تضايقه . وكانت الشاحنة تسير مسرعة حين لمح شعبان خيّالاً مقبلاً على الطريق وأشار له الخيال فأوقف الشاحنة . كان الخيال مرسلاً من قبل أبي جهاد ، وقد حكى للمجاهدين العائدين قصة تطويق القرية ، وأبلغ إليهم أن العسكر رحلوا قبل الفجر ، وأن قائد الفصيل يخشى أن يكون رحيلهم تمويهاً للإيقاع برجال النجدة ، وهو لهذا يدعوهم للمجيء إلى قرية «الخيام»

أولا من باب الاحتياط .

وافق الجميع ، وعلق جواد الذي كان واضحاً أنه استطاب الأنباء الجديدة : «حليت يا ولاد»!

في «الخيام» ، وجدوا أبا جهاد في انتظارهم ، وقد هرع إليهم هو ورجاله منذ اقبلت الشاحنة نحو داره يحف بها رهط من أولاد القرية . وصافحهم قائد الفصيل واحداً واحداً وعانقهم ، وصعد إلى الصندوق وتفقد حالة الشيخ ، ثم نزل ، وهو يردد : «حيا الله الرجال!» ، وقادهم إلى مضافته حيث دارت القهوة ، وقصوا عليه أنباء اصطدامهم بالقافلة ، وأصغى هو بانتباه الخبير ، مبدياً بعض الملاحظات أو طارحاً بعض الأسئلة . وحين هموا بالمغادرة ، لم يستبقهم ، بل خرج لوداعهم ، وقال بلهجته التي توحي برغبته في عدم المناقشة :

- الشيخ بيظل عندنا ، بنوخذه لمحل أمين ، احنا ، بلا مؤاخذة ، ماعندناش حكيم ، بس فيه ممرض ، حالنا من هالناحية ، بلا مؤاخذة ، أحسن من حالكو .

قال شعبان معترضاً بغير حماس :

- وأهله؟ بنخاف يتوغوشوا .

فرد أبو جهاد باقتضاب :

- إحنا خلص نزّلناه ، وروحوا على بركة الله .

قال جواد :

- لو تداوولنا الدحدول ، ولاّ بنخسره!

كان الدحدول قد نزل هذه المرة من الشاحنة ولكنه ظل واقفاً خارج الدار ، وحين سمع اقتراح جواد ركض هارباً ، وقد بان أثر الاصابة في ركضه ، فضحك الأولاد بصخب ، وتبسم الكبار ، رغم جلال الموت ، ولم

يعد هو إلى الشاحنة .

تحرك أبو جهاد لمصافحتهم وقال بلهجة جادة :

- العسكر مش رايحين يرجعوا لقريتكو ، أكيد ، بحضروا حالهم للطلعة من البلاد كلها ، الشهادة أمانة ، مختاركو قلبو عليكو ، بعث بنتو الصبية تسأل عنكم امبارح ، في عزّ الليل .

كان حشد كبير قد تجمع حول الشاحنة ، واصطف أمامها نفر من مجاهدي «الخيام» ومعهم بنادقهم توحّد زيَّهم الحطاتُ السمراءُ المميزة للمجاهدين ، وقد أطلقوا زخّات من الرصاص عندما همت الشاحنة بالمغادرة ، تحية للشهيد . وهتف رجل في الحشد : لا إله إلا الله ، الشهيد حبيب الله . وكرر المحتشدون الهتاف ، وظلوا يرددونه حتى ابتعدت الشاحنة . وقد حرك سلوك أبي جهاد وهتاف أهل «الخيام» حماس المجاهدين في الصندوق فأخذ هؤلاء يرددون الهتاف ، ثم الأهازيج ، ووصلت أهازيجهم إلى شعبان فالتفت إلى جواد :

- ناس طيبين ، جيراننا .

فقال جواد ، بلهجة من يتحرج إزاء طيبة الناس :

- فيهم البركة!

ثم هتف ، وقد رأى عزمي الدحدول على الطريق أمامهم :

- . . . هيوّ الدحدول ، وقّف!

كان الدحدول يمضي وحيداً على الطريق المؤدي إلى قريتهم ، وقد وقفت الشاحنة ، وانتهره جواد :

- اطلع!

وانحشر المصاب بإليته من جديد بين جواد وشعبان ، وخاطبه جواد بلهجة مؤنبة :

- افرد وجهك ، مهو حتى من غير هالكشرة زي الصرماية العتيقة ، شو جرى! الدنيا ما صارتش سودة لأنّك خسرت جلدة قفاك!

وتكلم عزمي الدحدول لأول مرة منذ إصابته ، وكأنما خرج الكلام من أنفه :

- بس يا جواد ، أقلّك الدغري ، لو أجت في غير هالمطرح لهانت .

ضحك جواد ، وتدخل شعبان :

- مطرح ما أجت أجت ، لِفْها!

وفجأة انطلق الدحدول يهزج ، متابعاً الإيقاع القادم من الصندوق .

توقف الأولاد عن اللعب حين سمعوا الأهازيج . كانوا أوائل من انتبهوا إلى عودة الشاحنة ، وجروا لملاقاتها ، ثم أخذوا يجرون حولها ، وانضم إليهم الآخرون تباعاً ، زفة حقيقية كأنها زفة عرس .

اختار شعبان أن يتجه بالشاحنة نحو دار الشهيد التي هي دار أبيه الحاج عبدالعزيز . وكان تدافع المحتشدين حول الشاحنة بلغ أشده حين بلغ هو هذه الدار . واستطاع ركاب الشاحنة بمشقة بالغة أن يفتحوا باب الصندوق ، بينما كان الحشد يموج ويتدافع ويصخب . وكانت نسوة قد أطلقن الزغاريد ، وردد بعضهم عبارات التهنئة بالسلامة بأصوات مرتفعة ، وجالت العيون تبحث عن الأعزاء بين العائدين . لكن شيئاً في وجوه العائدين وحركاتهم سرى على مهل وسط الحشد ، فخفت الصخب شيئاً فشيئاً . وحين أنزل رجال متصلبو الوجوه الجثمان من الشاحنة ، كان الأمر قد اتضح تماماً وفعل فعله ، فصمت الكبار ، ووهنت حركة الصغار .

وسألت امرأة ليس لها أقرباء بين رجال النجدة : من الرجل؟ وتساءل كهل بلهجة متفصحنة : من الشهيد؟ وما أجاب أحد .

كان أبو سمير هو أول شهداء القرية ، وقد تحققت من الأمر ، إذ إنه

خلال ثورة ١٩٣٦ لم يستشهد أحد من رجال القرية الذين شاركوا فيها ، ولذا بدا الأمر غريباً . ولم يدر المحتشدون كيف يتصرفون ، وقد انفرج جمعهم مفسحاً الطريق للرجلين اللذين يشيلان الجثمان . واتجه الرجلان نحو دار أبي سمير ، الأمر الذي أكد للجميع على هوية الشهيد . ونشجت امـرأة بصـوت مـسـمـوع . وهتف رجل : لا إله إلا الله . وردد بعض المحتشدين : لا إله إلا الله .

كانت أم الشهيد التي خرجت منذ رأت الشاحنة تحط أمام دارها تقف ذاهلة أمام باب الدار ولا تختلط بالمتحلقين حول الشاحنة ، تلم طرفي حطتها تحت ذقنها وتعبث بهما بأصابعها ، وقد برز وسط الحطة البيضاء المحيطة بالرأس وجهها الأبيض المغضن الممتلىء بالوشم من الجبين حتى الذقن . وكانت أم حسان تتطاول من خلف المحتشدين وعيناها تبحثان عن شيخها بلهفة مكتومة ، بينما التصق بها حسان وأمسك خاصرتها بذراعيه كليهما . وحين أدركت زوجة الشيخ ما أدركه الجميع نسيت شيخها ، وجرت نحو الأم ، وهي حركة كانت وحدها كافية لتأكيد شكوك الأم فانطلق صواتها . وأتت أم سمير ، زوجة الشهيد ، من داخل الدار معولةً ، وما كادت تصطدم بمنظر الجثمان الملفوف في القمباز حتى أمسكت فتحة ثوبها عند العنق براحتيها وقدّت الثوب على طوله ، فأغضى الرجال أبصارهم ، وهرعت إليها النسوة ، وقدنها عنوة إلى داخل الدار وهي تعول وتصيح .

قال الرجل المتفصحن بصوت مسموع :

- نوّارة الشباب يا بو سمير .

ثم بصوت أعلى :

- . . . ما بجوزش العياط على الشهيد .

وكأنما أحس الداعي إلى عدم البكاء أن أحداً لا يصغي إليه ، فهتف

بنزق خالطه الحزن :

- . . . زغردن يانسوان؟ عيب العياط .

ثم غلبته الدموع هو نفسه فأدار ظهره للحشد وكتفاه تختلجان . وأقبل والد الشهيد الذي أتاه النبأ وهو خارج الدار ، متحاملاً على نفسه . كان واضحاً للجميع أن الحاج عبدالعزيز ، الرجل المؤمن كما يصفونه ، يبذل جهداً بالغاً كي يبدو جلداً ، وقد انفرج الحشد أمامه فمرق من وسطه ، وأتته كلماتٌ مواسيه احتفظ بصمته إزاءها : «شد حيلك يا حاج ، العقبى له في الجنة ، الشهيد شهيدنا كلنا» ، حتى ولج باب الدار ثم لم يعد قادراً على التماسك ، فبكى مطلقاً لمشاعره العنان .

وأقبل المختار بكامل هندامه : القمباز والصاكو والحطة والعقال . لا شيء كان يسمع من الحشد قبل مجيئه سوى أصوات النشيج المنبعثة خافتة هنا وهناك ، وصوات أم سمير الذي ينبعث من داخل الدار . وظل الأمر كذلك حين وصل ، بل إن صمت الصامتين قد أصبح أثقل . وأطلق المختار التحية فغمغم بعضهم برد . كان المختار في كامل اتزانه وسيطرته علي نفسه وهو يتأمل الحشد غير مأخوذ بالحدث الجديد . والتقطت عيناه شعبان الذي كان يقف مسنداً ظهره للشاحنة ، فاتجه إليه فارداً ذراعيه ، واستجاب شعبان بغير حماس ، فاحتضنه المختار بينما ظل هو منتصب القامة . ثم قال المختار بصوت مرتفع :

- الحمد لله على سلامتكو ، العوض فيكو يا اولاد!

- سلمت يا بو خالد .

واتجه المختار بعدها نحو الدار ، لكنه عاد فالتفت لشعبان وقال :

- خلّيني أشوفك بعد شوية ، تحكيلي إيش صار .

ولج المختار الباب . وخرجت منه أم حسان ، لقد أصبحت نظراتها

قلقة ، تلوب بين الحشد ، وما أن رأت شعبان حتى اتجهت إليه على الفور :
- أبو حسان يا شعبان ، وينه؟
فرد شعبان وهو يزن كلماته :
- الشيخ ظل في «الخيام» ، ما تخافيش .
وبدت الحيرة على وجهها :
- تخبيش عليّ ، صارلو إشي؟
- خلّيناه عند أبو جهاد ، هناك بيديروا بالهم عليه .
وفاجأه صوت حسان :
- أنا عارف ، أبوي متصاوب ، تركوه هناك لأنه متصاوب .
فسألته المرأة بلهفة جزعة :
- إيش بتقول يا ولد؟
- سمعتهم بيحكوا ، قالوا إنه متصاوب .
فخبطت بكفّيها على صدر شعبان وهزّته :
- احكيلي الدغري ، متخبيش علي ، جرحه صعب؟
- الشيخ عند جيرانا ، أبو جهاد بدّو يدبّر حكيم ، بقولّك ما تخافيش .
لكن أم حسان ألحفت ، كانت عيناها المبللتان من أثر الدموع قد استحالتا إلى علامتي استفهام منتصبتين إزاءه .
- مقلتليش ، جرحه صعب؟
فأرخى شعبان بصره . ويئست هي من الحصول على جواب ، فركعت بجانب ابنها واحتضنته ، وسألته وهي تنشج :
- إيش سمعت؟ قول لي .
- سمعت اللي حكيتلك ياه ، مسمعتش إشي غيره .

واختلط نشيجهما .

ثم لم يلبث أن ظهر المختار ، وهو يهتف في وجه شعبان بصوت اكتسب شيئاً من الحدّة :

- خذني هالحين للشيخ ، ليش تركتوه؟ الله يصلحكو !

فنهضت أم حسان ، ووقفت إزاء المختار .

- بروح معاكو ، بدّي أشوف جوزي .

ومضى حسان معهم .

رحب أبو جهاد بهم ، واقتاد أم حسان وابنها إلى داخل الدار ، وجلس مع المختار في المضافة ، بينما ظل شعبان أمام الدار يتبادل الحديث مع الرجال الذين تجمعوا على صوت الشاحنة .

قال أبو جهاد :

- قريتكو من حقها تفتخر .

فتساءل المختار :

- وين الشيخ؟

- في مطرح أمين ، طمّن بالك! بعثت مرسال للمجدل يدوّر على الحكيم ، بس بخبّيش عليك ، قلبي مش مطمن إنو رايح يلاقي حكيم يرضى ييجي . المرسال ، بلا مؤاخذة ، راخ خيّال ، بيصل «المجدل» والدنيا على وجه غياب ، ومين الحكيم اللي بيقبل ييجي في الليل ، وخاصّة هالايام! على كل الأحوال ، أنا بعثت رسالة لقائد الفصيل هناك عشان يساعده ، وإن شاء الله بتتدبّر .

- وإذا ما تدبرتش ، شو العمل؟

- الشيخ ، هانَه ، بين أهله ، وهو بلا مؤاخذة أخونا قبل ما يكون جارنا ، وفي ممرض بيدير باله عليه ، لحد الله ما يفرجها علينا بحكيم .

ثم أردف متعمداً أن يفهم المختار أنه يهتم به :

- . . . انت بس طمّن بالك! زلمتكو زلمتنا .

غير أن تَبُسّطَ أبي جهاد لم ينجح في ثني المختار عن انقباضه المتعمد أمامه .

- خلينا نشوف الشيخ .

قالها المختار بلهجة من يشك في مقدرتهم على العناية به عناية كافية ، ونهض على الفور . واستُدعيت أم حسان من الداخل . ومضوا إلى الشاحنة . جلست أم حسان وجلس المختار بجانب شعبان ، وقفز حسان إلى الصندوق . بينما وقف أبو جهاد على رفراف الشاحنة ممسكاً بالنافذة من ناحية شعبان . وقد سارت الشاحنة على طريق غير معبد بين حواكير الخضار المحيطة بالقرية ، ثم اجتازت صفاً من بيارات البرتقال ، وتوقفت أخيراً عند أول سفح تل ، فهبطوا وأتموا المشوار مصعدين في السفح ثلاثتهم ومعهم الولد . أما شعبان فقد آثر أن يبقى بجانب الشاحنة . و انتهو إلى مغارة ينفتح مدخلها وسط الجانب الصخري من أعلى التل وتغطيه بضعة صخور نافرة بحيث لا يكاد يبين ، ويصله بالمنحدر درب ضيق شقته الأقدام وسويت أحجاره النافرة بحيث أصبح المشي عليه سهلاً . كانت تلك هي المغارة التي اتخذها مجاهدو «الخيام» مخبأ لهم . وكان الشيخ قد مُدّد أمام باب المغارة على فراش مريح ، وضعوه في مكان لا تصله أشعة الشمس ، وقد انتشر عدد من المجاهدين خارج المغارة .

قعدت أم حسان بجانب الفراش ، وقعد حسان قبالتها على الجانب الآخر . ووقف المختار يتأمل الجسد الممدد أمامه . كانت الأنفاس تتردد بوضوح . وكان الوجه صافي البشرة تخالط سماره صفرة سبّبها النزف . ووقف رجل متوسط القامة عريض الوجه يلبس ملابس عادية لكنها بادية

النظافة ، وقف إزاءهم من ناحية رأس الشيخ يرميهم بنظرات متفهمة توحي باستعداده للإجابة على استفساراتهم . صمتت أم حسان ، وكذلك فعل المختار . وقال أبو جهاد قاطعاً الصمت :

- أخونا أبو لطفي . ممّرض الفصيل ، عمل جهده .

ثم وجه سؤاله للرجل الواقف إزاءهم مسنداً ظهره إلى صخرة ، وكان هو أبو لطفي .

- . . . كيف حالة الشيخ .

رد أبو لطفي ، بعد أن اعتدل مبعداً ظهره عن الصخرة ، بلهجة تقريرية اعتادها ممرض خبير .

- بقدرش أقول إن الجرح مش غميق ، بس هو مش خطير ، أجت الشظية على الصدر من ناحية الكتف ، وصابت اللحم ، والعظم تأسر (يقصد تأثر) بس ما انكسرش .

كان يتكلم بلهجة مدينية استرعت نظر المختار الذي سأله :

- منين الأخ؟

- من الرملة ، مخدومك من الرملة .

ثم عاد للحديث عن حالة الشيخ :

- . . . الحقيقة هو غاب عن الوعي مش من الجرح ، من صوت الانفجار . (كان يلفظ الجيم مضخمة بطريقة تصدم آذان الفلاحين الذين لم يألفوها) وبعدما أجا هان رجع لوعيه ، وهلأ هو نايم .

قال المختار محنقا من الجيم التي صكّت أذنيه :

- رجع ولا مرجعش ، كيف بدنا نداوي جرحه؟

وقبل أن يجيب الممرض ، تابعت أم حسان بسؤال آخر بعد أن بسطت كفّها على جبين الشيخ واطمأنت بعض الشي :

- وقتيش صحي؟

- بقول لك بعد ما أجا ، داويناه بالمنعشات . (وكان يلفظ الشين على طريقة مفخمة كما يفعل بالجيم) ، وصحي ، وبعدين أطعمناه لقمة ونام ، أكيد نومه غميق لأنو بخبيش عليكو تعبان .

وعاد المختار إلى السؤال ، محنقا من الشين هذا المرة :

- جرحه؟ بسألك عن جرحه ، كيف بدنا نداويه؟

وجه الممرض نظرة مستأذنة نحو أبي جهاد . فتدخل هذا وهو يقول بلهجة أراد منها أن يفهم المختار أن الحديث لا يجوز أمام زوجة المصاب وابنه :

- زي ما قلت لك يا بو خالد ، بعثنا ورا الحكيم ، وبعدين أبو لطفي فيه البركة .

ثم أشار للممرض وانتحى به جانباً وراء صخرة تخفيهما .

أما أم حسان فقد تضاءل هلعها بعد الحوار الذي سمعته . كان مصاب آل أبي سمير الذي شهدته هذه المرأة قبل قليل قد جعل مصابها هينا ، والحقيقة أنها كانت قد توقعت الأسوأ ، وقد هدأت بعد أن رأت الشيخ حياً . وكان المختار يتململ غير قادر على ان يفصح عما يجول في خاطره ، فقد حنق منذ علم أن الشيخ بقي في رعاية أبي جهاد ، وهو يبحث عن سبب كي ينقله إلى القرية ويحرر نفسه هو بالذات من آثار هذه الرعاية غير المستحبة بالنسبة له . وقد لاحظت أم حسان تململ المختار ولم تدرك بالطبع السبب ، لكنها تذكرت اهانته لها في اليوم السابق ، وقالت بلهجة حملتها كل غيظها من تلك الإهانة .

- رجع الشيخ يا مختار ، هيّك شايف!

ولا شك في أن الملاحظة قد وخزته بالإضافة لهواجسه الأخرى ، فرد

بقسوة محاذراً قدر الإمكان كي لا يرفع صوته حتى لا يسمعه أبو جهاد :

- لفّيها يامَرَة ، هذا مش وقته .

ثم متمالكاً نفسه :

- . . . كانت ساعة غضب ، الله يخزي الشيطان!

أستطيع أن أجزم ، ولا يداخلني في ذلك أي شك ، أن أسف المختار كان صادقاً في تلك اللحظة . وحتى لا يقع أي لبس ، فقد كان آسفاً لمصاب الشيخ بسبب حبّه له . ولست أدري إن كانت أم حسان قد أحست صدقه أم لا ، غير أنها على كل حال قد كفّت عن لومه ، بل إنها عمدت فوراً إلى تغيير الحديث .

- بدّي أظل عند الشيخ .

قالتها وكأنها تطلب منه أن يقنعهم لكي يستبقوها .

- والولد؟

فرد حسان الذي ظل صامتاً وساكناً طيلة الوقت على تساؤل المختار :

- بَظَل مع أمي .

ثم أخذ يدعك اللحاف الذي يغطي الشيخ بأصابعه .

قال أبو جهاد ، الذي فرغ لتوه من حديثه مع الممرض :

- خطر ، ما فيش خطر . وإذا تهونت وأجا الحكيم ، حالته بتتحسن من كل بد .

نظرت أم حسان إلى المختار ، فالتفت هذا إلى الممرض :

- أم حسان رايحة تظل مع شيخها ، والولد برضه .

فردّ أبو جهاد ، بدل الممرض :

- الشيخ بخير والرجال دايرين بالهم عليه ، هذا المطرح بلا مؤاخذة مش للنسوان ، الأحسن ترجعي هالحين ، وبكره بتيجي .

توسلت نظرات أم حسان . وقال المختار ، وهو يفكر بأن تدخله سيرضيها وإن كان غير مقتنع بضرورة بقائها ، هو الذي ساءه بقاء الشيخ ذاته :

- وجودها مفهوش ضرر ، ليش ما تظل؟

رد أبو جهاد بلهجة باتة :

- هذا مخبأ للمجاهدين ، إذا حبّت أم حسان تبقى ، بتبات في دارنا .

فقال المختار وقد عاوده حنقه ، بسبب اقتراح أبي جهاد :

- قومي يا أم حسان .

وأدركت هي أن رغبتها لن تتحقق ، وصمتت ، وأخذت الدموع تسحّ من عينيها ، إنها الدموع التي حبستها منذ غادرت القرية .

ساقول لكم الآن إن الممرض لم يكذب حين وصف جرح الشيخ بأنه غير خطير ، إلا أنه لم يقل الحقيقة كلّها ، قال الحقيقة فقط لأبي جهاد عندما انفرد به خلف الصخرة : إن الجرح الذي لم ينظف على الفور عندما أصيب الشيخ معرض للالتهاب ، وهذا ليس مجرد احتمال ولكنه مؤكد . والخطير في الأمر أن ممرض الفصيل لا يملك أدوية مضادة للالتهاب ، كما أنه ليس من السهل الحصول عليها ، فقد كانت ، حسب خبرته ، عزيزة المنال ، وقد وعده أبو جهاد بأن يبذل جهده ، وكان من رأي الممرض أن يرسلوا من يحضرها من «القدس» ، وأنه كلما أسرعوا في ذلك ضمنوا صحة الشيخ ، وأفهمه أبو جهاد أنه من المتعذر إرسال رسول في ذلك اليوم فقد أوشك الليل أن يحل ، ولكنه سيفعل ذلك غداً . وألحف الممرض : لا بد من البنسلين وإلا فإن حالة الشيخ ستسوء وسيفلت الأمر من يده .

وكتم أبو جهاد حقيقة أنه بعث برسول إلى «القدس» قبل الظهر ، وليس في مقدوره أن يبعث بآخر في اليوم ذاته ، وكرر عبارته : الصباح رباح .

٧

كان أبو جهاد قد هيأ نفسه على أن يذهب للمشاركة في تشييع الشهيد مع وفد من قريته قبل المغيب ، إلا أن المختار أفهمه أنهم اتفقوا على تأجيل الدفن حتى اليوم التالي . وأدرك أبو جهاد أنهم آثروا التأجيل لكي يبلغوا النبأ إلى أكبر عدد من القرى المجاورة ويتيحوا لوفودها أن تشترك في الجنازة ، وعَذَرهم فهذا هو على كل حال أول شهدائهم ، وأرجأ ذهابه إلى وقت آخر .

وقد ودع أبو جهاد ضيوفه عند المنعطف الذي يؤدي إلى قريتهم . وكان يفكر بأن الوقت حان لحسم موقف هذه القرية من مسألة المشاركة في الجهاد ، وأن ذهاب النجدة إلى «بيت دراس» قد فتح باباً لا يغلق ، وهناك مسألة الشهيد ، وعليه أن يبادر ، مستفيداً من الجو المواتي ، فيفتح الموضوع غدا ، مباشرة بعد الجنازة . وكان قد أرسل رأيه هذا ، مكتوباً ، إلى القيادة في «القدس» ، واقترح أن تبعث من جانبها مندوباً يشترك في التشييع ويتعاون معه على دفع الأمور إلى منتهاها .

امتلأت مضافة أبي جهاد بعد الغروب بزوارها . كانت أحاديثهم تدور

حول ما حصل لأهل القرية المجاورة ، واختلفت آراؤهم حول خطورة إصابة الشيخ . كان معظمهم قد زاره في المغارة ، وقال بعضهم إن جرحه بسيط ، ورأى آخرون غير ذلك . وظل أبو جهاد يصغي ، ويشترك في الحديث ، وذهنه مشغول بالرسول الذي ذهب إلى «المجدل» ، والآخر الذي ذهب إلى «القدس» ، يترقب عودتهما ، فلما تأكد له أن رسوليه لن يعودا فقد قطع ثرثرة الجالسين :

– رايح أبات الليلة عند جيرانا ، كملوا التعليلة ، الدار داركو ! وبكرا بتلحقوني هناك .

واتفق معهم على أن يضم وفد «الخيام» وجوه الحمايل كلهم ونفراً من المجاهدين ، وأن يكون وفداً موحداً فيأتون إلى الجنازة جماعة ، ويحملون معهم كيس رز وكيس سكر من مستودع الفصيل ، ويضيفون إليهما ما تجود به الحمايل ، معونة لأسرة الشهيد . ثم حمل بندقيته الكندية ذات المنظار ، وتجنّد بحزامي الذخيرة ، وشد حزام المسدس الذي لا يفارق وسطه ، واصطحب واحداً من رجاله ، واتجه إلى القرية المجاورة . وما إن بلغها حتى مضى إلى دار الحاج عبدالعزيز ، والد الشهيد ، فوجدها مكتظة بالنساء يساهرن الأسرة الملتاعة . وقيل له إن الحاج موجود في دار المختار فمضى إليها .

أريد أن أقول هنا إن أبا جهاد لم يكن قد زار دار المختار منذ عدة شهور . كانت بين الرجلين جفوة غير معلنة ، لا بد من أنكم حزرتم سببها ، وقد كفّا عن التزاور . أما في تلك الليلة فقد تغاضى أبو جهاد عن موقفه من المختار مستحضراً حقيقة أن المختار ذاته ، وهو الأكبر سناً ، قد زار داره قبل قليل .

كانت المضافة وساحة الدار تغصان برجال القرية وبالضيوف الذين

عجلوا ، مثل أبي جهاد ، بالقدوم إليها . وقد مدت لهم الفرش ، فرش دار المختار والفرش التي جيء بها من الدور الأخرى . وحين تخطى أبو جهاد عتبة باب الدار ، رددت أصوات : أبو جهاد! فنهض الجميع ، وألقى هو السلام واتجه مباشرة إلى صدر ساحة الدار حيث يجلس المختار والوجهاء من ضيوفه . وخفّ المختار إلى استقباله فارداً ذراعيه ، فاستجاب هو لحركته وتعانقا ، على الرغم من أنهما لم يفترقا إلا منذ وقت قصير . ثم سلّم باليد وبالعناق على المحيطين بالمختار من الوجهاء ، وتوقف عند الحاج عبدالعزيز ، وعانقه :

– مش رايح أعزّي يا حاج ، الشهيد بيتعزاش فيه .

– محمود إبنكو زي ما هو إبنا ، احتسبناه لوجه الله .

فردد صوت : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأفسحوا له مكاناً بجانب المختار فجلس ، ثم ألقى التحية من جديد على الموجودين كافة ، وتلقى ردهم .

وقد بالغ المختار في الترحيب بأبي جهاد ، على النقيض من سلوكه عندما زار هو دار قائد الفصيل . واعتبرها أبو جهاد بادرة مشجعة . وامتد الحديث ، وكان هو المتكلم أغلب الوقت ، بسط الموقف كما يراه ، وشدّد على أن الانجليز راحلون وأن جيوش الدول العربية ستدخل فلسطين .

– جيوش دول العرب ، مش مزحة ، يعني العرب كلهم معانا .

وعقب المختار ، مذكراً بوجوده قبل أي سبب آخر :

– خير انشاء الله . العرب إيد وحده .

قال أبو جهاد متابعاً حديثه :

– . . . خير أكيد ، المهم يا بو خالد ، والكلام للجميع ، انو احنا نكون قدّ الحمل . الانجليز راحلين ، نعم! لكن ، بلا مؤاخذة ، رحيلهم مش رايح

يرمي الحمل عن ظهورنا . بذرة الشر اللي بذروها في البلاد قبل ما يرحلوا زرّعت وفرّخت ، وسلاحهم صار في ايدين العصابات الصهيونية ، عند الهاجاناة سلاح بيكفي جيوش ، مش جيش واحد ، سلاح انجليزي ، وسلاح اميركاني ، ورجالهم اتدربوا ، اتدربوا كويس ، الحق حق ، تدريبهم مش مزحة . الجيوش العربية جاية ، أهلاً وسهلاً بيها ، أخ بيعين أخوه ليرد البلا عنو . لكن العصابات بتهاجم ، صار لها شهور بتهاجم ، والانجليز موجودين وبساعدوهم ، وهالحين رايحه تزيد هجماتها قبل ما الجيوش العربية تستحكم . بدهم يحتلوا البلاد ويهججونا ، بدهم الأرض ، الأرض من غير صحابها .

صمت المختار وهو يترقب الفرصة المناسبة ليقطع هذا السياق ، فقد حزر إلى أين يقودهم حديث أبي جهاد ، وأشار لرجل يقوم على الخدمة كي يقدم دورةً جديدة من فناجين القهوة .

قال الرجل المتفصحن ، الذي رأيناه قبل قليل قرب الشاحنة :

- حقاً (نطقها فصيحة) عندهم رجال وعندنا رجال أكثر ، بس أولاد الميتة ، زي ما تفضّلت ، سلاحهم أكثر ، لولا السلاح اللي عندهم . . . مصيبتنا في السلاح يا بو جهاد .

ورد أبو جهاد :

- السلاح مشكلة ، أي نعم ، بس بلا مؤاخذة يمكن تدبيره . في «الخيام» زلمة كلكو بتعرفوه ، أبو موسى النجار ، رهن غلّة موسمه واشترى بارودة . واحنا جمعنا القروش والليرات واشترينا رشاش «برن» أصلي . وعباس أبو شنب ، فقير لا وراه ولا قدامه ، سلّمناه بارودة اشتريناها من مصاري اللجنة القومية ، بارودة طليانيّة على قدّ الحال ، ما عّبتش مخّه ، قال : الطليانية بتهد الكتف وبدّو انجليزية ، مقدرناش ندبّر له انجليزية ،

إيش سوّا؟ كلكو عارفين منين جابها! صارت عنده الانجليزية وهيّو صاينها أكثر من مرته .

وقال رجل من الضيوف يلبس قمبازاً دمشقياً من الحرير الأبيض ، وتنتصب عمامته الأغباني على ركبته المثنية .

- مش كل واحد بيقدر يدبّرها زي ما دبّرها أبو شنب ، واليوم البواريد صارت عزيزة ، اللي كانت بستين قبل شهرين صارت اليوم بميّة .

ابتسم أبو جهاد . وعلق شعبان الذي كان يصغي إلى الحديث باهتمام :

- كلّه يشكي من غلا السعر إلا انت يا شيخ علي!

وعقب رجل متقدم في السن من الضيوف كان يجلس في الصف المواجه للشيخ علي موجهاً حديثه للرجل الذي يحمل هذا الإسم :

- الله منعم ومفضل عليك ؛ اصبر عليّ في الدينة اللي إلك عليّ ، وبتكون مرتي طالقه بالثلاثة إن ما اشتريت بارودة من الصبح ، ولو كانت بميّة وعشرة ، مش ميّة بس .

قال الحاج عبدالعزيز بإحساس المحتفى به :

- تزيدوهاش ع الشيخ علي .

فقال الرجل المتقدم في السن على الفور :

- ليش يا حاج . عند الشيخ علي ما فتح الفتاح ، وهيّوا بحسب حساب الميّة جنيه . إيش خلاّ للمسخمين اللي زينا .

نحّى الشيخ علي عمامته الأغبانية ، وفرد ركبته ، وعدل قعدته ، وأجاب وهو غير عابىء بوخزاتهم :

- تقولوش عندي مال قارون ، أيّ وحدوا الله ، ولاقولكو سيرة غير هالسيرة!

وقال أبو جهاد محاولاً لمّ الحديث من جديد :

- مختصر الكلام يا إخوان إنه السعي هو اللي بيجيب ثمرة ، والقعدة لا بتحمي أرض ولا عرض .

وهنا تنحنح المختار مقاطعاً :

- حكيك على الراس يا بو جهاد ، بس احنا في قريتنا خَصْ نَصْ عندنا فقرا كثيرين .

وقاطعه شعبان :

- محدّش أفقر من حد ، البلاد زي بعضها يا بو خالد .

- تقاطعنيش يا شبعان ، كنت بقول في قريتنا سبعة وعشرين بارودة لمينا حقهن من مرارنا ، وهالحين لو قلنا يا فلاحين جيبو كمان بيطلعش منهم أكثر من عشر بواريد حتى لو باعوا اللي فوقهم واللي تحتهم واطعموا عيالهم خبز ذرة حاف ، والفشك؟ الفشك لحاله مشكلة ، الواحدة بتساوي ثقلها ذهب ، ومنين نجيبها .

نقلت لكم ما وعته الذاكرة من الحديث الذي جرى في تلك الليلة حول مسألة السلاح . فعلت ذلك متعمداً ، لكي تدركوا ، كما أدركت أنا ، الصعوبة التي جابهها في إيجاد السلاح فلاحون أكلت الضرائب وأكل الربا معظم مداخيلهم ، وكانوا بالكاد يجدون الخبز . وإذا كانت كلمات المختار لا تقنع بسبب يُسر حاله هو شخصياً ، فإن ما قاله كان يعكس حقيقة عانى منها سواد الفلاحين . وقد خشي أبو جهاد أن يكون مبالغاً في تفاؤله بشأن موقف المختار ، فنحى بالحديث منحى آخر :

- انت يا بو خالد ، يا مختار ، كان إلك صحبة مع الانجليز ، ضابط انجليزي ، بيحكم وبيرسم ومكيّع المنطقة ، شو استفدت من ها الصحبة ، مع إنه إيدك ظلّت في حلقه من يوم ما أجا ع هالبلاد! أنا بعرف ناس

كثيرين دبروا حالهم من الانجليز ، واحنا اشترينا «البرن» بلا مؤاخذة من صاحبك الكابتن ، واشترينا منو بواريد ، واشترينا من غيره فشك بتراب المصاري ، تآخذنيش في هالسؤال ليش ما أجا على بالك تستفيد منه!؟

خيّم الصمت بعد هذه الكلمات ؛ صمت الحاضرون تأدباً أمام حرج صاحب الدار . وأحس أبو جهاد بأنه أمسك به ، وولج الموضوع الذي جاء من أجله :

- . . . خلاصته ، كنت بقول : القعدة بتطعمش خبز ، مطلوب منكو في هالقرية ترسوع بر ، لحالكو . . ولاّ مع الناس الأخريين؟ والباقي ، بلا مؤاخذة ، بيدّبر . وبقول قدّام الجميع : أنا شايف إنو اللي راحوا على «بيت دراس» قالوا كلمتهم ، خلص ، ظايل انت يا مختار تقول . وزي ما بيقول المثل : اللي عليك عليك . أنا بحكي ع المكشوف ، وبساطنا أحمدي!

وخيم الصمت مرة أخرى بعد تلك الكلمات . وجالت عينا المختار تتفرسان في الوجوه وتبحثان عن ردود الفعل بين الجالسين من أهل قريته . غير أن الأنوار التي تنبعث من مصابيح الكاز ما كانت كافية لإنارة الوجوه ، فكان يرى أمامه وجوهاً متماثلة ، أو هياكل رؤوس لا تبين معالمها . وقد صمت أبو جهاد هو الآخر متعمداً ، ولفت رأسه ناحية المختار وسلط عليه عينين متسائلتين بحزم ووضوح .

كانت ساحة الدار مكتظة عن آخرها ، بمن كان فيها عندما وصل أبو جهاد وبمن دخلها من أبناء القرية أثناء الحديث ، وبالآخرين الذين كانوا محتشدين داخل المضافة ثم خرجوا منها ليتابعوا المناقشة عن قرب . وقد لحظ المختار أن النسوة ، النسوة أيضاً ، قد خرجن من الحجرات الداخلية ووقفن ساكنات صامتات ، تُري الأضواء الباهتة قاماتهن بثيابهن السابغة التي لا يبين غير سوادها . وامتد الصمت دقائق ، ثم قطعه المختار . فما كان

أحد ليبدأ الحديث بعد ذلك التحدي الصريح الذي أطلقه أبو جهاد لو لم يتكلم هو :

- بكرة بندفن شهيدنا ، وبنحكي بعدين .

اضطرب الشيخ علي ، وهو يتوقع مزيداً من التحدي من قبل أبي جهاد ، وتحركت يده بسرعة فنقل العمامة من ركبته إلى رأسه ، وعدل قعدته وهو يتنحنح بعصبية ظاهرة . وقال الرجل المتفصحن :

- الله يجيب اللي فيه الخير .

قالها هذه المرة بلهجة عامية صميمة .

وشعر أبو جهاد بأن الذين أعجبهم حديثه يستحثونه ليتابع ، لكنه قدّر أن ما قاله حتى ذلك الوقت كان كافياً ، وأن المختار لن يستطيع الزوغان أكثر مما فعل . بل إنه أحس بشيء من الإشفاق ، فالرجل الشايب له احترامه مهما كانت الحال ، وهو قد عرّض به بما فيه الكفاية .

قال الشيخ علي بعد تردد عكسته نحنحته :

- سهينا عن الصلاة ، الله يشفي الشيخ حسن ، إذا حبّيتوا بنصلّيها جماعة .

وامتدت السهرة بعد تلك الصلاة المتأخرة ، بينما أخذ عدد الساهرين يتناقص إلى أن اقتصر على الضيوف ، وكلما أضجع النعاس واحداً منهم نام على الفراش الذي يجلس عليه ، وجاؤوه بلحاف وغطوه به . وظل أبو جهاد والمختار آخر الساهرين . وقال المختار :

- هذا فراشك ، إذا حبّيت نام ، أنا ما إليش نفس أنام .

- إذا كنت ، بلا مؤاخذة ، مش تعبان ، خلّينا نتمشى شويّة ، وبعدين بنّام .

كان الليل قد جلل القرية بهدوء سابغ لا تقطعه إلا أصوات ضفادع ما

تزال تنق عند حوافي البركة . وقد ألقى القمر على ذلك الهدوء لون ضيائه فزاده شفافية . وانتشرت في السماء النجوم بكامل عددها وصفاء ضوئها ، مشكلة ذلك العالم الذي يظل على الرغم من وضوحه غامضاً . وامتد بعد حدود القرية بحرُ العتمة الذي يبتدىء حيث لا يعود ضوء القمر والنجوم كافياً لجلاء معالم الأشياء أمام الناظرين ، تحدده أشياء ثابتة لا تتبدل ، تبدو تحت ضوء القمر مجرد هياكل اختفت تفصيلاتها : سياج الصبار ، وشجرات الجميز المبعثرة هنا وهناك ، وسروتان متباعدتان تمتدان باسقتين كأنهما منارتان أطفئت أضواؤهما وغادرهما أصحابهما ، وسدرة هائلة الحجم تقع في ذلك الطرف من القرية على الناحية الغربية للبركة ، واللمعان الضئيل لبياض الكلس المتكوم عند «بير الشوم» . وقد تميز وسط هذا كله خط الضوء الذي يشبه معينا متطاولاً ، شكله انعكاس ضوء القمر على سطح مياه البركة الراكدة ، وحطّ ساكنا فوقها فكأنه ينام ، بينما يستر بحر العتمة ما عدا ذلك .

وقد تمطى المختار بغير همة ، ثم تثاءب ، وأغلب الظن أنه حاول أن يمنع تثاؤبه ، لكنه لم يفلح ، وأطلق الكلمات قبل أن يتوقف التثاؤب :

- عارف يا أبو جهاد ، أنا مش طالب غير مصلحة القرية .

ولم يشأ أبو جهاد إذ أصبحا منفردين تماماً أن يداريه ، هو الذي لم يفعل ذلك أمام الآخرين :

- متفكرش انو قعدتكو بحالكو بتخلّيكو تسلموا ، مش كل من شَرَد بيسلم .

- الله يخلّيك ، متعيدليش الكلام اللي أنا صرت سامعه مية مرة ، وبعدين مش هذا هو المهم .

وحين لم يأنس المختار من محدّثه اهتماماً ، كرر :

- ... بقولّك مش هذا هو المهم .

- إيش هو المهم ، بلا مؤاخذة ، يا وليد يا بو حامد؟!

- أنا بفكّر ، كيف بدّي أقول لك ، كلنا بنحسِب : عندك هذا اللي صار ، وهالحين يعني ، بالك القيادة ، يعني ، يكون عندها رأي غلط عنّي ، وأنا زي ما قلتلك ، والله شاهد ، مش طالب غير مصلحة القرية ، اللي زي فضلك بيعرفوا فضل الناس ، وأهل بلدنا بيعرفوا ، خدمتهم ، فش دار في هالقرية إلاّ وإلي فضل عليهم ، من هالناحية قلبي مطمّن ، بس القيادة هناك ، في «القدس» ، بعرفش إيش بيقولوا .

كان أبو جهاد قد خمّن منذ بدأ المختار يتلجلج أن محادثه يدير في رأسه حسبة جديدة . ومن ناحيته ، كان قائد الفصيل يأمل في أن ينجح في إقناع القيادة بتولية الشيخ حسن قيادة الفصيل المجاور لفصيله هو ، وكان من رأيه أن الشيخ حسن هو الأصلح لقيادة القرية ، بينما يمكن أن يحتفظ المختار بالمخترة ، كما هو الحال في «الخيام» . وكان يعرف في الوقت نفسه أن القيادة ستكون أميل للتعاون مع المختار .

- ليش فتحت هالموضوع؟

- ظنّيت ، يعني ، لو شاركنا في الثورة لازم تكون إلنا لجنة قومية . القرية زي ما انت عارف بدها راس . لو القيادة ما قبلتش أكون أنا رئيس اللجنة بتفلت القرية .

إنكم ترون كيف كشف المختار ورقة الولد ، وهو يريد أن «يَقُشّ» . ذلك الرجل لا يقبل بأن يصبح مثل مختار «الخيام» بغير نفوذ . سيغيب حصان السلطة الانجليزية ، لكن سيظل لوليد أبي حامد سرجه ، وهو يريد أن يضع السرج على ظهر الحصان الجديد ، السلطة الوطنية . ومن المؤكد أنه لا يريد أن يردف أحداً خلفه . يطلب الآن رئاسة اللجنة ، وسيطلب بعدها قيادة

الفصيل ، ستكون له الرئاسة ، في القرية فلاحون ينتقدون موقف المختار لكنهم سرعان ما يمشون وراءه ، مصالحهم التي دبرها لهم بالحق أو بالباطل جعلت له تلك المكانة ، والذي لا يمشي وراءه بسبب المصلحة سيمشي لأنه وجد الأمر كذلك منذ ولد ، دبّره ناس قبله ورعاه ناس معه . ثم إنهم في القيادة ، كما يسميها المختار ، أي في الهيئة العربية العليا لفلسطين ، سيفضلون المختار العتيق ، ولماذا يشغلون أنفسهم بتربية قيادات محلّية جديدة وأمثاله جاهزون يوالون القيادة الكبار ، ويجمعون لهم الولاء من الآخرين ، ويبطشون بسيف القيادة العليا ، ويصنعون لها من البطش سيوفاً ، وما دامت القرية تفتقر لمن هم أقوى منه فإنهم في القيادة سيمنحونه تأييدهم .

لست أدري ما إذا كانت هذه الافكار كلها قد دارت في ذهن أبي جهاد تلك الليلة وهو يستمع لكلمات المختار المداورة ، لكني أعلم أنه صمت .

- ساكت؟

تساءل المختار مستثيراً إياه للإفصاح عن رأيه .

- هذه مسألة بسيطة ، تشغلش بالك من هالناحية .

- بسيطة ، أي نعم ، بس أنا بدي أطّمّن ، وانت زلمة فهيم وعارف ، بحبّش يلعبوا فيّ ، كل هالسنين وأنا بخدم القرية ، برضاش يرموني برّا .

فلتكن يا أبا جهاد عمليا ، ولتشع الثقة في نفس المختار ، بهذا فكر وهو يعرض عليه :

- وإذا ضمنتها إلك .

غير أن المختار ردّ بقحّة لا تتناسب مع ذلك الهدوء الليلي :

- انت ع العين والراس ، بس أنا بدّي أعرف راي القيادة منهم هم .

تلك الكلمات أفهمت أبا جهاد أن المختار لا يثق بتأييده له .

- اسـمع يا وليـد يا بو حـامـد ، أنا بعطيك كـلام شـرف ، بكرا جـاي مندوب القيادة ، وإلك أحكي له قدّامك .

- هذا هو الكلام اللي بيملّي الراس .

وعادا صامتين .

٨

حلّ الصباح أبكر من المعتاد . وصحت القرية وهي تستعد ليوم غير عادي . تناول ضيوف دار المختار إفطارهم الذي أعدته نساء مدربات على الحفاوة بالضيوف ، ثم توجهوا إلى دار الحاج عبدالعزيز .

ووفد الناس إلى دار الحاج جماعات جماعات . شغل الوجهاء حجرتي الدار وباحتها . واحتشد الباقون أمام الدار . وتتابع حضور الوفود الجديدة ، وحضرت معهم أكياس الرز والسكر والبنّ والطحين ، وأحضر بعضهم خرافاً وجديان . وأحاطت النسوة بأم الشهيد وزوجته وجلسن في زاوية باحة الدار التي يقوم فيها الطابون . وتجمع فريق آخر منهنّ في حلقة خارج الدار . وتبعثر الأطفال هنا وهناك ، تكشف حركاتهم ارتباكهم ، وقد كست وجوههم سمات جد اصطنعوه لأنهم اعتقدوا أن ذلك أنسب ، لكنه لم يقمع نزوعهم الأصيل إلى العبث .

وحضرت أم حسان متأخرة بعض الشيء . وكان أبو جهاد يقف لأمر ما خارج الدار ، فسألته المرأة عن الشيخ وعن الطبيب الموعود ، ورد هو متملصاً بأنه بات الليلة هنا ولا يعرف . وقد نبّه سؤالها أبا جهاد لموضوع

الشيخ ، فسأل واحداً من وفد قريته فأنبأه هذا أن الرسول الذي ذهب إلى «**المجدل**» قد عاد في الليل بعد أن فشل في إيجاد طبيب ، وأن قائد فصيل المجاهدين هناك أوضح له أن الظروف صعبة ، ووعد بأن يواصل السعي ونصح بأن يتوجهوا إلى جيش الإنقاذ ، ولهذا الجيش سرية تقيم على مسيرة ساعتين من «الخيام» فربما كان عندهم طبيب . وقال الرجل إنهم قبل أن يجيئوا إلى هنا بعثوا برسول إلى جيش الإنقاذ . واستفهم أبو جهاد عما إذا كان أحد قد زار الشيخ في الصباح ، فرد الرجل بأن الممرض نفسه جاء ، وقد فهموا منه أن الشيخ كان يهلوس طول الليل . وقد تجهم وجه أبي جهاد ولم يعقب بشيء ، ثم لم يلبث أن انشغل بحديث مع أحد القادمين الجدد ، ودخل معه داخل الدار .

وظلت الساحة أمام الدار تستقبل وافدين جددا من أهل القرية ومن ضيوفها حتى فاضت بهم ، فامتد جمعهم في الأزقة المتفرعة من الساحة ، وهم يقفون أو يجلسون القرفصاء ، جماعات جماعات ، صغيرة أو كبيرة ، يتبادلون الحديث ويترقبون التشييع . وقد امتد الأمر زمناً وهنت خلاله الحركة في الساحة ، وبدا كأن الناس قد استقروا في مواقفهم أو مجالسهم . ولو أخذنا الأمور بظواهرها فقط لاعتقدنا أنهم نسوا ما جاءوا من أجله .

ثم أقبلت سيارة صغيرة سوداء نحو الساحة وشقت طريقها بين الحشد بشيء من العنف وتوقفت أقرب ما يكون إلى الدار . وسرت همهمة : الأستاذ سليم ، الأستاذ سليم ، يقولها البعض عارفاً ويقولها البعض متسائلاً عن القادم . ونزل من السيارة كهل يضع على عينيه نظارة طبية ذات إطار ذهبي ، من النوع الذي شاع استعماله في تلك الأيام بين الميسورين . كان الكهل تام القيافة ، يلبس بذلة من الصوف الرمادي غامق

اللون ذات صدرية انفتحت عنها جاكيت البذلة مفكوكة الأزرار ، وتدلت من جيب الصدرية سلسلة ذهبية . وكان يضع على رأسه طربوشاً غامق الاحمرار ، نظيفاً إلى درجة تلفت النظر ، وينتعل حذاء أسود شديد اللمعان . وكان للرجل وجه تسيل منه العافية ، أبيض داهن مستريح القسمات ، وفيه أرنبة أنف محمرة ، وشارب أسود مقصوص في الطول والعرض بحيث شغل المساحة بين الشفة والخيشومين ، وحدها ، بينما كان جانبا الشفة حليقين . وكان للرجل جسد ممتلىء غير مترهل لكنه لين . وبدت قسمات الرجل على العموم كأنها مصنوعة صنعاً متقناً ، وكاد وجهه يكون بغير تعبير ، لولا أن الشارب المنمنم ، بالقياس للشوارب التي ألفها الفلاحون ، والتجعيدين الممتدين من جانبي فتحتي الأنف إلى جانب الفم ، قد اكسبت هذا الوجه تكشيرة من المؤكد أن الرجل لم يتقصدها .

هتف الاستاذ بتحية ، وهو يطلق نحو الحشد عينين متفرستين دون أن تتركز نظرتهما على أيّ شخص بعينه ، وخطا بين الحشد خطوات بطيئة كشفت أكثر من غيرها رخاوة جسده وقلة حماسه . وكان واضحاً أن الرجل تباطأ متعمدا ، غير متعجل دخول الدار ، وكأنه ينتظر من يخف لاستقباله خارجها . وقد تطوع كثيرون لابلاغ الأمر إلى الحاج عبدالعزيز ، وكان سائق سيارة الاستاذ فيها قد سبقهم .

جاء المختار يتقدم المستقبلين مكرراً عبارة : «أستاذ سليم» مع كل كلمة ترحيب ، ورحب الحاج عبدالعزيز بمندوب القيادة وتلقى تعزيته ، وتقدم أبو جهاد وصافحه .

وكرر المختار :

- شرّفت قريتنا يا أستاذ سليم!

- يزيدك شرف .

- محسوبك وليد أبو حامد ، مختار القرية ، مخدومكم يا أستاذ!

- والبركة ، والسبعة انعام ، قريتكو رفعت راسنا ، بارك الله فيكم ، وين والد الشهيد ، إيش اسمه؟

كان يتحدث وقد اختلطت عاميته المقدسية بفصيحة يصطنعها الأستاذ سليم كلما وُجد مع العوامّ والفلاحين ، ويتصور أنها تعطيه مهابة خاصة بينهم ، ولكن هذا الاختلاط كان يجعله طريفا ، يزيد من طرافته حركةُ شفته العليا بشاربها اللافت للنظر ، وتجعّدُ أرنبةِ أنفه واتساعُ فتحتي الخيشومين كلما تحدث . وكان هذا كله يجعل نظر محدثه مشدوداً إلى هذه الحركة .

- مخدومكم أبو محمود ، الحاج عبدالعزيز ، وابني اللي أعطاك عمره اسمه محمود ، أبو سمير .

- تشرّفنا يا حاج .

ودُعي الأستاذ سليم لدخول الدار ، فولج العتبة بخطوة واسعة ونشطة على النقيض من حركته البطيئة ، ووضع يده بحركة آلية على طربوشه ، وحيا الموجودين داخل الدار بصوت مرتفع ، فنهض هؤلاء جميعاً احتراماً .

كان وصول مندوب القيادة إيذاناً ببدء الاستعداد لانطلاق الجنازة . وقد أخذ الرجال يخرجون تباعاً من الدار ، واستعاد الواقفون خارجها سمة الاهتمام . وانصرف أبو جهاد إلى تجميع المجاهدين المسلحين من أبناء قريته والقرى الأخرى ، ونظّم هؤلاء في صفين متقابلين وسط الساحة . وخرج من الدار رجل يردد الأوراد ، ووراءه مباشرةً خرج النعشُ محمولاً على أذرع الرجال . واختلط صوت المردد بأصوات نسوة يعولن ورجال ينتهرونهن وآخرين يجهرون برأيهم حول ما إذا كان العويل مقبولاً أو غير مقبول في

مثل ذلك المقام .

ابتدأت الجنازة سيرها كما أرادها أبو جهاد : صفّا المسلحين ، ثم النعش ، ثم والد الشهيد يحيط به مندوب القيادة والمختار والوجهاء ، ثم بقية الناس . وقد سارت الجنازة في هذا النحو بضعة أمتار ، وحين اضطرت لولوج زقاق ضيق اضطربت الصفوف . وبذل أبو جهاد محاولة أخرى لإعادة النظام ، غير أن تدافع الرجال لتناوب حمل النعش ، وتراكض الأولاد ، وضيق الزقاق ، كانت أقوى من رغبته . ولم يلبث أن ضاع التنظيم حين انفتح الزقاق على الخلاء الواسع الذي تشكله بيادر القرية ، فقد انبثق الجمع من الزقاق كما ينبثق الماء المحبوس من أنبوب مضغوط الفوهة ، وانتشر جمع الناس حول النعش بغير نظام . وأسرع الأولاد فباروا صفي المسلحين يتفرجون على مشيتهم ، ثم تقدموهم وأخذوا يقلدونهم . بل إن مِنَ الكبار مَنْ لم يستطيعوا أن يكبتوا رغبتهم في الفرجة على صفيّ المجاهدين ، فلحقوهم على خجل .

وسط التدافع ، تماسك الأستاذ سليم ، الذي بدا غير مفاجأ بما حدث وغير متذمر منه ، شأن من اعتاد عليه . واحتضن الأستاذ بأحد ذراعيه الحاج عبد العزيز وبالآخر ذراع المختار . واحتفظ ثلاثتهم وحولهم بعض الوجهاء بموقعهم وراء النعش مباشرة .

كانت المقبرة تقع وراء البيادر التي تشكل ساحة فسيحة . وعندما اقترب الموكب من المقبرة ، تراكض الأولاد يتسابقون لاحتلال مواقع تشرف على القبر الذي كان قد هيء سلفاً . وتوقف حاملو النعش خارج سياج المقبرة المصنوع من عوارض حديدية وأسلاك شائكة ، ووضعوا النعش على الأرض . وتقدم الأستاذ سليم ليؤم المصلين على روح الفقيد . وانتظم وراء الأستاذ صفان من الرجال الذين تهيأوا مسبقاً لأداء ذلك

الواجب . ووقف الآخرون جماعات جماعات يتبادلون أحاديث خافتة . تمت الصلاة بسرعة ، واستأنف الموكب سيره . وكان المسلحون قد أفلحوا في تنظيم صفّين متقابلين أمام مدخل المقبرة ، مر بينهما الموكب ، وحيوه هم بإطلاق زخات من رصاص البنادق . ثم تفرق المشيعون بين القبور ، وأحاطت كثرتهم بالقبر الجديد .

خيم الصمت بينما كان المردد يتلو وِرْدَ الدفن ، حتى الأطفال استكانوا لمهابة الموقف . والنسوة اللواتي تسللن إلى المقبرة كففن عن العويل أثناء تلاوة الورد ثم استأنفنه بأصوات حادة حين انهال التراب ليردم حفرة القبر التي آوت جثمان الشهيد . وارتفع بشكل خاص صُواتُ الأم المفجوعة كأنه لحن وداع ، وداع لا لقاء بعده ، وتقدم إليها من هدأها . وكان الصمت قد أصبح شاملاً حين قطعه صوت الأستاذ سليم :

– يا شهيدنا الغالي!

قالها وهو يشدد على مخارج الحروف ويفخّمها بلهجة محترفة :

– . . . يا أبناء القرية البواسل! أيها الجمع الكريم! كلفني سماحة مفتينا الأكبر أن أنقل لكم تحياته ، تحيات عاطرة مباركة ، للرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا .

هتف رجل مقاطعاً : «الله أكبر!» .

وهتف سائق الأستاذ سليم ذو المنكبين العريضين : «سيف الدين الحاج أمين» ، ثم كررها وهو يفرد ذراعيه على طولهما ويلوح بهما مشيراً إلى الحشد كي يكررها معه .

ومضى الأستاذ يتلو فقرات خطابه المكتوب . وأخذت عينا أبي جهاد ، الذي اختار لنفسه مكاناً وسطا ، ترقبان الجميع بإمعان . وشخصت

نحو الأستاذ عيونٌ لا تحمل معنى محدداً ولا تنم نظراتها عن اهتمام خاص بما يقول . وظلت نبرات صوت الأستاذ تتردد بإيقاع يزداد توتراً ، حتى سرى الحماس شيئاً فشيئاً بين المستمعين . ويبدو أن الأستاذ أحس بأنه بدأ يملك حماسهم ، فقد ارتفعت نبرات صوته ، وتتابعت حركة شفته العليا وشاربها العجيب ، وازداد تشديده على مخارج الحروف وتفخيمه لها . وحل محل الأصوات المنفردة ، التي كانت تقاطعه ، صوت الجمع كله وهو يردد : الله أكبر ، وما عاد سائقه بحاجة لأن يلوح بيديه داعياً إلى الهتاف . وانطلق واحد من المجاهدين بهتاف منغم : «حاج أمين يا منصورا! بسيفك هدينا السورا!» ، وردده الجمع وراءه مقطعاً مقطعاً . وكرر الأستاذ تحيات المفتي ، فهتف الجميع بحماس : الله أكبر ، ورددوا الأهازيج . وأطلق مجاهد زخّة رصاص من بندقيته ، وتبعه آخرون . وزغردت امرأة . واهتاج الأولاد . وحين فرغ الأستاذ من خطابه ، كان الجمع قد أصبح يغلي والرصاص يزخّ بغير انتظام حتى تدخل أبو جهاد فحبس رصاص المجاهدين .

ثم وقف الأستاذ مع الحاج عبدالعزيز وبقية أقرباء الشهيد لتلقي التعازي ، ووقف المختار بلصقه ، في صف واحد قريباً من مدخل المقبرة . وابتدأ الناس يمرّون من أمامهم واحداً واحداً .

تنبه أبو جهاد إلى صوت سيارة مقبلة على الطريق الذي تمكن رؤية جانب منه من المقبرة . ثم لم يلبث أن ظهرت السيارة نفسها وهي تمرق بأقصى سرعتها ، وتوقفت فجأة وقد زمجر صوت مكابحها ، وانطلق منها رصاص رشاش باتجاه المقبرة . فانطلق صوت أبي جهاد صارخاً :

- إلزمو الأرض! كلكوع الأرض!

وتحركت مغاليق البنادق في أيدي بعض المجاهدين ، وانطلقت

رصاصات باتجاه السيارة ، وصرخ أبو جهاد :

- فش فايدة من الطخ ، السيارة بعيدة ، إلزموا الأرض!

وتحمس رجل بيده بندقية ، فركض ، غير أن أبا جهاد صرخ به :

- إلزم الأرض بقول لك ، رصاصهم بيطولك!

والحقيقة أن رصاص الرشاش أزّ للحظات فوق رؤوس الجمع المفاجأ ، ثم دارت السيارة وعادت كما جاءت بأقصى سرعتها . وبدأ الذين استلقوا على الأرض ينهضون تباعاً . وأعولت امرأة فأمرها صوت بالسكوت : «ليس وقته» . وتساءل أبو جهاد بصوت رنّ رنيناً خاصاً وسط السكون : «هل أصيب أحد؟» وكرر تساؤله . وكان قائد الفصيل قد استوى واقفاً ، فأصدر أوامر سريعة للمجاهدين كي ينظموا الحراسة ويترصدوا من فوق أسطح البيوت القريبة ، فلربما عادت السيارة . وطلب من النساء أن يعدن إلى الدور وينتبهن للأولاد ، ودعا الرجال إلى المسجد ليجتمعوا فيه ، طلب منهم أن يسيروا إليه متفرقين ومسرعين ، وأوصاهم أن يلزموا الأرض في الحال إذا عادت السيارة .

كان الأستاذ سليم متماسكاً لا يبدو عليه الاضطراب ، وقد اكتسى وجهه صرامة لا تنسجم مع ليونته ، وأصبح ذلك حديث الفلاحين الذين استخفوا به في البداية . أما المختار فقد بدا زائغ النظرات ، وقد حاصرته المفاجأة وأربكته تماماً ، وقال متلعثماً حين وقع نظره على أبي جهاد :

- الله يجيب العواقب سليمة ، ابتدت المشاكل ، هيّك شايف!

فرد الأستاذ سليم وهو ما يزال يحتفظ بالصرامة التي عكسها وجهه :

- ما احنا في المشاكل من يوم ما ولدنا . مصممين ميخلّوناش نرتاح .

قال أبو جهاد ، وفي نيّته أن يغتنم الفرصة التي سنحت حتى نهايتها :

- قبل ما تشرّف حكيت أنا والمختار، واتفقنا نسوّي لجنة قومية للقرية، وفصيل للمجاهدين، وهذا، بلا مؤاخذة، أنسب وقت، الرجال كلهم في الجامع، وحضرتك موجود بتمثّل القيادة :

قال الأستاذ سليم. الذي بدا وكأنه لم يفاجأ :

- على بركة الله .

وقال أبو جهاد، وقد أصبحوا ثلاثتهم يسيرون باتجاه المسجد، والأستاذ في الوسط يتابع تنظيف طربوشه من الغبار الذي علق به :

- أنا بلا مؤاخذة بعرف أحوال القرية، ويمكن المختار يستحي يحكي . في رأيي، والرأي للجميع، إنه يكون المختار رئيس اللجنة .

قال الأستاذ، وقد التفت برأسه نحو المختار :

- المختار بركتنا، ونعم الرأي، وانت يا بو جهاد ما بيجي منك إلا كل شي كويّس .

- ومن رايي، والراي برضه للجميع، إنه أهل القرية يختاروا واحد للفصيل، واليوم في هالاجتماع . وإذا بدّك رأيي أنا برشح الشيخ حسن، وبنحطلوا واحد نائب .

وقاطعة الأستاذ سليم مستفهماً، وقد عادت حركة شفته وشاربه إلى سابق عهدها :

- مين هو الشيخ حسن، بلا صغرة؟

وقد سبق المختار الذي تحفز لاستلام زمام الحديث أبا جهاد بالرد :

- شيخ حطّيناه إمام للجامع، تصاوب امبارح وإصابته خطرة!

كان في لهجة المختار شيء جعل الأستاذ سليم يفطن إلى أنه غير مرتاح للاقتراح، ونظر إلى الرجلين بالتتابع، وقد ارتفعت شفته وشاربه قبل أن يتكلم، ثم سأل :

- إيش رايك يا مختار في اقتراح أخونا أبو جهاد؟

- كـلام أبو جـهـاد دايما على العين والراس . بس أنا أدرى بأحـوال قريتنا . صار إلي أربعين سنة مختار ، وأنا بقول ، والرأي إلكو وللجميع ، إنو البلد بيصرش يكون فيها راسين ، والا بتصير مشاكل بين الاثنين ، أبو جهاد بيعرف هالأشي ، وانت عارف ، في قريتهم هو رئيس اللجنة وهو قايد الفصيل ، الأحسن يكون للقرية راس واحد .

قال الأستاذ مجاملاً أكثر منه مقتنعاً :

- رأي سليم .

وأكمل المختار الذي اعتبر كلام الأستاذ موافقة :

- أنا بضمنلكو القرية ، ومحدّش بيضمنها غيري .

سكت أبو جهاد على مضض ، وصمم على أن يبذل محاولة أخرى ، وأبطأ الخطو مؤملا في أن ينفرد بمندوب القيادة . إلا أن المختار ظل يلازمهم . وكانوا آخر من دخل المسجد . وقد توجه الأستاذ من غير أن يدعوه أحد إلى الدرجات الثلاث التي تشكل المنبر واعتلاها ، ودعا الرجال الذين كانوا حتى ذلك الوقت واقفين إلى الجلوس . غير أن المسجد الصغير الذي اتسع لهم واقفين لم يستوعبهم جالسين . وتدافع الناس ، فاضطر الواقفون في الخلف إلى الخروج وتجمعوا عند الباب والنوافذ .

همس أبو جهاد في أذن شخص بجانبه :

- نادي المجاهدين اللي في الحراسة من أهل قريتكو .

ووقف الأستاذ سليم ليتحدث من فوق المنبر :

- قضت حكمته ، تعالى ، أن تتلقوا التحذير ونحن نودع أول شهداء هذا القرية . وقد حان الوقت لكي ننظم أمورنا ، ونمضي إلى الجهاد بصفوف متراصّة وراء قيادة منّا وإلينا . . .

تكلم الأستاذ بالفصحى كما فعل في المقبرة ، لكن لهجته كانت طبيعية هذه المرة بغير تشديد أو تفخيم . وقد أخذ اللغط يخفت شيئاً فشيئاً منذ ابتدأ الكلام . وعكست نظرات الجمع الاهتمام بما يقول .

– . . . وقد تبادلت الرأي مع مختاركم ومع الأخ أبو جهاد الذي نحبه كما تحبونه ، واستقر الرأي على أن نشكل لجنة قومية لهذه القرية تدير شؤونها وتنظم أمورها وتحشد أهلها لمقارعة عدو الله والوطن . واستقر الرأي على أن يكون المختار رئيساً للجنة ، ولذا فإني أعلن . . .

فقاطعه أبو جهاد :

– إيش رايكو يا إخوان؟

فرددت أصوات :

– موافقين ، كويّس ، أصلح الكل . . .

وأكمل الأستاذ الذي بدا أنه ملّ انتقاء كلماته بالفصحى .

– . . . ورئيس اللجنة ، اللي أيدتموه كلكم بيختار ثلاثة من الوجوه أعضاء في اللجنة .

فقال أبو جهاد :

– من غير مقاطعة ، الأحسن نتفق عليهم هالحين .

ورددت أصواتٌ اسماءَ من أهل القرية . وقال أبو جهاد :

– . . . من بعد إذن المختار ، بنوخذ رايكو في الأسامي إسم إسم ، الشيخ حسن ، إيش رايكو؟

جاءت الموافقة بالإجماع .

– . . . مين يوافق ع الحاج عبد العزيز ، أبو محمود؟

وتمت الموافقة عليه .

– . . . مين يوافق ع شعبان ، شعبان الحصان؟

صمت كثيرون ، أغلبهم من كبار السن ، وأبدى الشبّان موافقتهم .

من المؤكد أن المختار ما كان ليعترض على أحد بمن في ذلك شعبان ، كان أهم شيء بالنسبة له قد تمّ وهو اختياره لرئاسة اللجنة ، وهو بالطبع لم يكن ليعترض على الشيخ حسن أو الحاج عبدالعزيز إزاء إجماع القرية حولهما . وكان من الممكن أن يصمت بالنسبة لشعبان كما صمت بعض كبار السن ، غير أن المسألة كلها كانت تغيظه منذ رفض اقتراح الأستاذ حول تكليفه باختيار الأعضاء . وكان يتابع الكلام وهو حانق ، وقد أغاظه بصفة خاصة تدخل أبي جهاد والدور الذي لعبه وكأن له وصاية على قرية ليست قريته . ولذا اغتنم المختار فرصة صمت الكثيرين عندما عرض اسم شعبان ، ووقف وهو يجهد ليكبت غيظه :

– شعبان ، ولد طيّب ، وكلنا بنحبّه ، بس انتو شايفين ، بعده زغير ، وكلنا عارفين إنو عاش أغلب أيامه بعيد عن القرية .

ورددت أصوات ، محتجة : شعبان جدع ، شعبان مجاهد ، إبن حلال ، خدوم .

واختلطت الأصوات وهتف شيخ أشيب اللحية :

– بس يا أولاد . زوّدتوها . صاروا المفاعيص يشوروا على كبارهم ، قلّة حيا وآخر زمن!

وتصدى جواد للرد . كان واقفاً مع الواقفين عند الباب ، فتخطى الجالسين حتى وقف في وسطهم داخل المسجد وصرخ :

– الجدع جدع ، كبير ولاّ صغير .

قال أشيب اللحية :

– مش بقول لكو آخر زمن ، صاروا الاولاد يعلّو صوتهم علينا .

ورد جواد مستفزاً :

- انت يا اختيار على راسي ، بس انت عارف . . في كبار بدهم لَط بالصرماية .

وحدث هرج ومرج ، واشتد الصخب . ووقف أشيب اللحية وقال كلاماً وانسحب مغادراً المسجد ، وظل جواد يصرخ ولا أحد يسمعه ، وتوافد رجال جدد من المجاهدين الذين كانوا في الحراسة ، وكلما وصل واحد منهم كان يسأل عما يحدث ويغرق في الحوار . وازداد الهرج .

ووقف الأستاذ ، وأخذ ينادي ، من غير أن يبدو عليه أنه أُخذ بما حدث :

- أيها الإخوة الفلاحون ، أيها الإخوة الفلاحون ، لنقرر أمرنا بهدوء!

قال جواد وهو يصرخ حتى يُسمع صوته :

- شعبان في اللجنة ، واللي مش عاجبه يبلّط البحر .

وأيّده كثيرون بأصواتهم ، وبحركات أيديهم ، وبهزات رؤوسهم . وقال الأستاذ سليم : «كما تريدون ، كما تريدون» .

ثم أضاف وقد اتخذ صوته سمة رسمية . وعادت حركة شفته العليا وشاربه تلفت النظر بشدة :

- أعلن باسم الهيئة العربية العليا لفلسطين تشكيل اللجنة القومية في القرية من السادة المختار وليد أبو حامد رئيساً ، والحاج عبدالعزيز ، عبدالعزيز إيش؟

فرددت أصوات :

- عبد العزيز الحاج علي .

- . . . والحاج عبدالعزيز الحاج علي ، والشيخ حسن ، والسيد شعبان أعضاء . وإنني أدعو للجنة بالتوفيق والسداد في خدمة الله والوطن .

قال ذلك وهمّ بالتنحي عن المنبر ، فبادر أبو جهاد إلى القول :

- بقيت يا أستاذ مسألة قائد الفصيل .

ارتفعت شفة الأستاذ وشنبه قبل أن يتكلم ، ووجه لأبي جهاد نظرة كأنما تقول : ألم يكفنا مشاكل ، ثم تساءل :

- مش اتفقنا!؟

- أحسن نحلها هالحين ، برضه .

فاتجه الأستاذ إلى المجتمعين ، ولم يفارقه الإحساس بحرج المسألة ، وعاد ينتقي كلماته :

- اتفقنا على أن يكون المختار قائداً لفصيل المجاهدين في القرية ، وأظن أنكم ، وقد عبرتم عن تأييدكم للمختار ، لا تمانعون في هذا الاختيار الذي . . .

كان الصمت قد خيم منذ بدأ يتحدث ، ووقف رجلٌ يحمل بندقية وقاطعه بحدّة :

- هذي لأ ، كله إلا هذي ، رئيس لجنة معليش ، أما قائد فصيل؟ كبيرة!

وقد رّنت كلمات رجل البندقية في جو الصمت المخيم . واستمر الصمت بعدها لحظات قطعها جواد :

- قائد المجاهدين ، أول إشي لازم يكون مجاهد .

ووقف المختار كالمطعون :

- أنا عارفك يا جواد يا ابن آمنة .

ورد جواد بلهجة متحدية :

- واحنا عارفينك يا مختار ، يا صاحب الكابتن!

وتجدد الهرج فجأة أشد مما كان . واختلطت الأصوات فلم يَعُدْ أيٌّ منها مفهوماً . وراح المختار ينتفض من الغضب ويردّد كلاماً محموماً . وتكلم

الأستاذ سليم من فوق المنبر ، فما سمعه أحد . ووقف معظم الجالسين . وأخيراً ، علا صوت أبي جهاد :

- يا إخوان! يا إخوان! إحلموا على بعضكو ، هذه مسألة لازم نخلص منها ، مين اللي بدكو ياه قائد فصيل .

صرخ جواد :

- الشيخ حسن ، واللي مش عاجبو ينفلق!

وتكلم الأستاذ محاولا السيطرة على الموقف :

- المختار ، وأنا بتكلم عنه ، مش معارض الشيخ ، بس قالوا لي إنو الشيخ مريض شفاه الله .

قال عزمي الدحدول ، الذي ظل صامتاً طيلة الوقت وهو يقف مستنداً إلى الحائط قرب الباب :

- تصاوب معنا امبارح .

وقال جواد بلهجة مصممة :

- بيستلمها شعبان ، لحد ما يطيب الشيخ ، وطز في اللي مش عاجبه!

وقال الحاج عبدالعزيز بغير حنق :

- لمّ لسانك يا جواد ، احنا في الجامع!

قال جواد :

- كلّه إلاّ المختار! جاب سمعتنا في الأرض وقادر يفتح فمه؟ بيكفيش اللي عملوا فينا .

ورددت أصوات :

- فضّوها ، حطّو شعبان!

وقال صوت :

- حطّو عزمي ، أبو ليّه ، بينفع في الجري!

ونهض المختار مستثاراً :

- قرية ضيّعت عقلها ، بتنسوا أفضالي عليكو ، رايحين تندموا ، وبكرا بتعرفوا مين هو وليد أبو حامد .

وشق طريقه وسط الحشد ، وقد دفعتهم حركته إلى الصمت ، وغادر المسجد غاضباً . وظل الأستاذ سليم متماسكاً .

- يا إخوان! استهدوا بالله ، هذي مش مشكلة كبيرة ، فوضوها إلنا ، وأنا بوعدكم إنو ندرس الموضوع ، وبنحط في اعتبارنا مصلحة القرية ، ومصلحة الوطن العليا ، صَفّوا قلوبكو ، وعمّا قريب سنرسل لكم رجلا للتدريب!

استفهم عزمي الدجدول ببراءة :

- ما عرفناش مين قائد الفصيل ، المختار ولا الشيخ .

قال الأستاذ وهو يهبط المنبر قاطعاً الطريق على إمكانية تجدد الجدل : «بتعرفوا قريب بإذن الله ، رايحين نبعثلكو رأي القيادة» .

وخطا من بين الحشد مغادراً المسجد . واتجه شعبان إلى جواد :

- الله يسامحك ، ليش نسيت حالك ، انت أحسن منّي .

فقال جواد وهو ما يزال منتشياً لأنه استفزّ المختار :

- ولك! خايف تزعّل المختار ، عينك ع زكية ، خايف ما يعطكش اياها! ليش خايف من زعله؟ إذا ما أخذتهاش برضاه بتوخذها غصبن عنه ، مين هو حتى يخوفك ، الانجليز روّحوا . . .

قاطعه شعبان غير راغب في الجدل :

- بس! بس!

وأخذ الرجال ينصرفون إلى شؤونهم .

٩

ذلك الاجتماع ، بالخلاف الذي شجر فيه ، فتح في القرية جروحا كانت ملتئمة بعد أن عفا عليها الزمن ، ورشّ الملح ، كما يقولون ، على جروح كانت ما تزال نديّة . خلّفت تلك الجروح ، بنوعيها القديم والجديد ، آثار المنازعات بين الحمائل والأفراد في تاريخ القرية . وقد صرتُ على يقين ، وأنا استقصي تفاصيل الأحداث التي أرويها لكم ، أن الناس حين تفرقوا من المسجد كانوا أقل تلاحماً واستعداداً للتعاون فيما بينهم مما كانوا عليه قبل ذلك . غير أن النتيجة لم تكن هي هذه وحدها ، فإن النزاع على شيء جديد كل الجدة في حياة القرية ، تأثر فيه العام بالخاص وتأثر الخاص بالعام ، قد فتح الطريق أمام شكل جديد من التكتل ، كانت بوادره قد بدأت قبل ذلك ولكنه تجلى ، بعده ، بأوضح صورة . وما من أحد يستطيع أن ينفي أن النزاع الجديد قد حمل تأثير نزاعات سابقة ، لكنه ظل مع ذلك جديداً . ويمكن لي أن اقول ، وأنا واثق بصحة استنتاجي ، إن القرية في ذلك اليوم خطت خطوة أخرى نحو الانشغال بالأمور العامة .

وعندي هذا المثل أرويه لكم : كان الحاج عبدالعزيز لا يحبذ سلوك

جواد في بعض شؤونه التي سيأتي الحديث عنها . وكان جواد ، المفرط في حساسيته ، قد انقطع بسبب ذلك عن زيارة دار الحاج عبدالعزيز . ولئن اشترك جواد صباح ذلك اليوم في جنازة أبي سمير ابن الحاج ، كما فعل أهل القرية كلهم ، فقد كان استشهاد أبي سمير حدثا استثنائياً طغت أهميته على ما كان بين الناس من خلافات . ومع ذلك فجواد لم يدخل دار الحاج قبل الجنازة ، بل وقف مع من وقفوا خارج الدار ، وسار مع من ساروا في الجنازة من غير أن يكون له دور مميز فيها ، كما تفرض طبيعته . أما بعد الاجتماع ، فقد بحث جواد عن الحاج مدفوعاً برغبة طاغية في أن يشرح له موقفه من المختار وأن يكون مفهوماً لديه ، فوجد أن الحاج قد انصرف إلى داره ، وأنبأه شعبان بأنه ذاهب إلى دار الحاج ، فطلب منه جواد أن يشرح للرجل ما أراد هو أن يشرحه بنفسه . وقد وصل شعبان إلى الدار فوجد آخرين قد سبقوه إليها . وكانوا يتابعون حديثاً ابتدأوه قبل وصوله حول ما حدث في المسجد .

قال الحاج بعد أن وصل شعبان :

– غِلِط جواد لما بهدل المختار ، أبو خالد زلمة كبير وإله واجب ، واللي بدو ياه جواد كان بيصير لولا إنه نرفز ، أنا بقول هالحكي قدامك يا شعبان ، انت صاحبه ، وقادر تنصحه ، قل له يتهاود شويّة ، بطولة البال كل شي بيصير ، المختار جاي . بلاش نصدّه .

فرد شعبان موازناً كلماته :

– جواد مش لحاله اللي بدّوش المختار .

قال رجل من الحاضرين :

– جواد قلبه مليان ع المختار ، مش قابل ينسى ، أبوه نسي وهو ما نسيش .

وعقب الرجل أشيب اللحية ، الذي كان الحاج قد بحث عنه وأتى به لداره مسترضياً :

– ولدا! بقول لكو : ولد فش في راسه عقل ، إيش بتترجّوا منه . ما له المختار؟ سيد القرية من يوم يومه وحلاّل مشاكلها ، بس جواد مش راضي ينسى .

كانوا يشيرون إلى واقعة تعرفها القرية مضى عليها أكثر من عشرين سنة ، حتى طواها النسيان . وقتها ، اختلف المختار مع أبي جواد ، وتنازع الإثنان على أرض كان أبو جواد يزرعها منذ أيام الأتراك حين كانت الأرض مشاعاً . وعندما مثل المختار القرية في اللجنة التي أنهت شيوع الأرض ، استخدم دهاءه حتى آلت أرض أبي جواد اليه هو ، فتنازعا وامتدت المنازعة سنوات . وقد استطاع المختار أن يتغلب على أبي جواد في المحاكم وسجلت الأرض باسمه . وحصلت قطيعة خلال تلك السنوات بين الأسرتين . كان معظم أهل القرية يتعاطفون مع المغلوب ، ويلومون المختار . وقد أبدى هذا ليونة بعد أن استملك الأرض ، وقَبِلَ أن يتصالح مع خصمه ، ووضع بتصرف أبي جواد قطعة أرض من أملاكه هو وسمح له بأن يستثمرها ولم يطالبه بالأجر . وقد رضخ أبو جواد . وبمضي السنين ، آثر الفلاح المغلوب على أمره أن يحتفظ بما وهب له بدل أن يفقد كل شيء ، وقد أدرك أنه لا يستطيع أن يتغلب على المختار . وشبّ جواد عندما كانت القرية ما تزال تتحدث عن تلك المنازعة ، وأمضّه الوضع المهين الذي أرغم عليه أبوه ، وحاول أن يدفع أباه كي يتمرد من جديد . غير أن الأب اكتفى بما قسم له وضغط على أبنائه ليسكتوا . كان يردد : «هدّتني المشاكل ، لست قد الحمل» . ومنذ سنوات حين كانت المنازعات على أشدها بين المختار وبين آل العلني ، حثّ هؤلاء أبا جواد على أن يجدد شكواه ، ووعدوه بالمساندة ، وتعهدوا تحمل مصاريف الدعوى . وتجند

المختار للدفاع عن الأرض التي صارت ملكه ، واستطاع في تلك المرة أن يجنّد معظم أهل القرية معه ضد الخطر الذي يمثله آل العلني الغرباء ، وأيدته أسر تنافس آل العلني في المدينة ، وأيده الكابتن ادوارد . وصرف المختار أموالاً كثيرة على الرشوات ، وصدر قرار القضاء لصالحة مرة أخرى . وفقد أبو جواد أرض المختار التي كان يستثمرها . فساءت حال الأسرة أكثر مما كانت سيئة ، وتشتت الأولاد يجرون وراء العمل ، هنا وهناك ، وقد استكانوا لوضعهم الجديد ، إلا جواد . وقد حاول المختار تهدئه جواد واستمالته إلا أن هذا رفض ، كان يحقد على المختار ، ويكره الظرف الذي وجد نفسه فيه . ولاحت لجواد فرصة فتقدم للعمل في البوليس ، وتوسط له متنفذ من آل العلني فقبل طلبه ، ويقولون في القرية إن المختار من جانبه توسط له كي يتخلص منه ، ودبر الأمر مع الكابتن بحيث يكون عمل جواد بعيداً عن القرية . ودخل جواد بوليس السلطة الانجليزية بصفة شرطي مؤقت ، وأرسل إلى قرية بعيدة ، غير أن مقامه فيها لم يطل ، إذ لم يلبث أن وضعت الحرب العالمية أوزارها ، واستأنف الثوار الفلسطينيون نشاطهم ، فاغتنم جواد أول فرصة ، وفرّ من الخدمة مصطحباً بندقيته ، وعاد إلى قريته ، وظهر فيها متحدياً . جاء الانجليز يسألون عنه ، سألوا المختار فعز عليه أن يسلم ابن قريته ، وأرسل له من ينصحه بالتواري . ولم يكن جواد عديم الحذر كلية ، فقد كان يتوارى كلما جاء الانجليز ، وكان يقضي بعض الليالي مع مجاهدي قرية «الخيام» ويشترك في عملياتهم . شيء واحد ظل يشغل باله : الرغبة في الانتقام من المختار . وكان يحلو له أن يتجول في القرية حاملاً بندقيته وغامزا من موقف المختار ومحاولا إثارة الآخرين ضده . وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن قوة المختار هي من قوة الانجليز ، وحين علم أنهم راحلون خيل له أن الرجل مقضيّ عليه . وقد قال لشعبان ذلك اليوم وهما في المسجد : ستمشي القرية مع الثورة ،

وسينتهي المختار .

وتذكر شعبان كلمات صديقه وهو يصغي لما يقوله الجالسون في دار الحاج عبدالعزيز عن سلوك جواد . وكان يقدر فجيعة صديقه وهو يرى المختار يفوز برئاسة اللجنة القومية ويسابق الجميع للاستئثار بقيادة الفصيل ، ورد على ملاحظة أشيب اللحية :

- المختار بدّو كل شي ، هذا مش عدل .

قال الحاج عبد العزيز وهو يتنهد :

- وليد أبو حامد هذا هو طول عمره ورايح يظل هيك ، إيش عدا مما بدا .

قال أشيب اللحية ، بلهجة متعاطفة مع المختار :

- أبو خالد حطّ الاستاذ سليم في جيبته ، وحلف طلاق بالثلاثة إنه القيادة رايحة تحطّه قائد فصيل ولو أجت القرية كلها عليه .

استمر حديثهم على هذا النحو حتى قطعه دخول أبي جهاد ، وكانت معه مفاجأة ، فقد دخل جواد بصحبته ، وقد استقبله الحاج عبدالعزيز بتسامح الرجل المفجوع ، المقدر للمناسبة ، وداعبه أشيب اللحية ، وهو يخزره بنظرة تشي باستخفافه به :

- جبت أجل المختار؟

فرد جواد :

- المختار واللي بشدّوع إيده ، إلهم يوم .

وتدخل أبو جهاد :

- اسكت يا جواد! بيكفي زعلت الأستاذ سليم ، روّح وفي رأسه رأي غلط عن الشباب .

وردّ جواد :

- هو اللي مُخّه غلط ، صرمايته أنفع من اللي في راسه .

وانتفض أشيب اللحية :

- سألتكو بالله . أهذا حكي!؟

فتدخل الحاج عبدالعزيز مغيراً مجرى الحديث :

- أنا مزرتش الشيخ حسن ، بالك شعبان يوخذنا لعنده .

فنهض شعبان ونهض الآخرون . وكانوا يستعدون للانطلاق عندما قدمت أم حسان ومعها حسان . وكان في فم المرأة كلام تريد أن تقوله للحاج عبدالعزيز ، فتدبر هذا إجلاس أبي جهاد بجانب شعبان . وصعد مع الباقين إلى صندوق الشاحنة متجهين إلى «الخيام» . وقالت أم حسان وفي نظرتها انكسار :

- المختار طلبني ، كنت عنده . . .

فسألها أشيب اللحية :

- خير إن شاء الله؟

فرمقت هي السائل بنظرة قصيرة ، ثم وجهت حديثها للحاج :

- حكا لي يا عمّ الحاج عن الميّة ، قال البلد بدها ميّة ، ولازم حدا يشتغل في البير ، قلت له أنا حاضرة ، أنا وهالولد (ووضعت يدها فوق رأس حسان) ع بين ما ربنا يشفي الشيخ .

فتدخل جواد منتخيا :

- أنا بشتغل في البير ، مختار الكلب بدّوش يخلّيك في حالك! انت في إيش وهو في إيش .

فردت أم حسان وما زالت نظرتها منكسرة .

- لآ ، مش هيك يا جواد ، والدغري هو بعد ما حكا اللي حكاه وسمع اللي قلته راجع نفسه وقال لي : روحي هالحين وأنا بدّبر الشغلة .

وتدخل جواد مرة اخرى :

- بدو يحملك جميلة ويحطها ع راسنا كلنا ، أنا بشتغل في البير وبسد حلقه!

فقالت هي بلهجة من تذكّر شيئا :

- هو ، كمان شكا منك . . . قال إنك بدّك تهيّج الناس على بعضهم ، ومن رايه زي ما فهمت إنه مش رايح يخلّيك تظل في القرية .

قال أشيب اللحية الذي كان مغتاظا من تدخلات جواد :

- أنا من رايو برضه ، زوّدتها يا ولد ، كل شيء المختار ، المختار ، شوف شغله غير هالشغلة .

قال جواد متهيبا أن يرد مباشرة على الرجل كبير السنّ :

- كنت ناوي أظل مع فصيل «الخيام» واشتغل مع أبو جهاد . بعد هالحكي : لأ ، فشر المختار! رايح أظل في القرية ، وخلّي مرارته تفقع ، إيش بيطلع في إيده ، الكابتن مشى .

فانتهره الحاج بغير حدة :

- دشّر حكاية الكابتن ، وخلّينا في اللي احنا فيه ، بدنا نحارب اليهود وكل واحد فينا بيسب الثاني ، إذا بدك كلامي روح مع أبو جهاد ، وإذا مش حابب خلّيك ، وانت بتقدر تدرّب المجاهدين .

وأكمل جواد :

- وبشتغل في البير .

قال أشيب اللحية وهو ما يزال محنقا :

- بيطلعش منك غير الحكي ، عمرك ما حطّيت إيدك لا في فلح ولا في زرع ، فش في راسك إلا المختار ، ليش ما تحط راسك بين هالروس وتسمع كلام اللي أكبر منك ، والوجه اللي بتعرفو أحسن من اللي بتعرفوش ، حط راسك بين هالروس وقل : يا باسط!

- سألتكو بالله ، اللي قالوها إيش نابهم؟ ركب عليهم وليد أبو حامد ودندل رجليه .

قال أشيب اللحية :

- معنى هالحكي إنو أبوك كان أول المركوبين .

- أبوي ، بتقول أبوي ، لو سمع أبوي كلامي لأدّبت هذا الـ . . . من زمان!

فنظر أشيب اللحية إلى الحاج وقال مستعيناً به :

- مش ناوي يجيبها البرّ ، هذا الولد .

فتدخل الحاج ، بينما كانت أم حسان تتابع حوارهم ، ناقلة بصرها من واحد لآخر :

- اسمع يا جواد ، كلنا عارفين انك جدع ، اللي صار صار يا بنيي من زمان ، واحنا اولاد اليوم ، انس الحكاية ، وبعدما بنخلص من هاللي انكتب علينا بتقدر تفتح الدفاتر العتيقة ، هالحين محدش متحمّل!

وسكت جواد وهو غير مقتنع . وصمتت أم حسان وهي تفكر في عرض جواد بأن يعمل في البئر ، خجلة من أن يُفتح الموضوع مرة ثانية . وأخذ أشيب اللحية يداعب شعرات لحيته بأصابعه متفكراً في طريقة يغير بها موضوع الحديث .

كانت الشاحنة تسير مخلفة وراءها موجة من الغبار كأنها السيل . وكان الغبار يشكل مخروطاً أوله ملتصق بصندوق الشاحنة . وجواد كان ينظر سارحاً ببصره عبر السهول الممتدة على الجانبين بزرعها الذي ينتظر الحصاد . كان يدرك أن آراءه تثير الآخرين ولكنه مؤمن بأنه على حق . وقد ألف أن يواجه العيون الغاضبة ، أو المتأففة ، أو الناصحة ، من غير أن يتزعزع إيمانه . كان هنا ضد المختار والذي يشدون على يده . وفي البوليس

كان ضد الضباط بمن فيهم أولئك الذين لم يسيئوا إليه ، وكلما اصطدم بواحد من الضباط كانت النصائح تنهال عليه من زملائه الأنفار ، نصائح بالتروي وطول البال ، وكان الإشفاق عليه يسيل من عيونهم . وقد رأى النظرات ذاتها بعد المشاحنة في المسجد تسيل من عيون أصحابه . كان جواد يحس في داخله بأنه «يزودها» في اندفاعاته ، وبعد كل اندفاعة يلفه إحساس مَنْ يقفز في الهواء بغير هدف ، أو من أجل هدف غير مرئي . ولكنه ظل يؤمن بأنه على حق ، وكان يبرر سلوكه بهذا السبب ويَعِدُ نفسه بأن يكبح اندفاعاته في المرات القادمة ، ثم لا يفلح .

والحقيقة ، كما أتصورها ، أن جواد حاول أن يمسك نفسه ذلك اليوم في المسجد ، ولذا فقد ظل صامتاً بينما جرت المناورة لتعيين المختار رئيساً للجنة القومية ، ولم يعترض على الرغم من تحفزه للاعتراض . وقد فكر ، وكان على صواب ، بأن الأمر سيمر سواء اعترض أو لم يعترض . غير أن دمه فار بأعنف مما يستطيع كبحه عندما عُرض اسم المختار لقيادة الفصيل ، فاندفع تلك الاندفاعة . وعندما رأى جوادُ شعبان يتردد حنق عليه ، لكنه تماسك فلم يصل الأمر بينه وبين صديقه إلى حد الشجار . وحين افترق عن شعبان في المسجد ، لم يكن هو يعرف بالضبط إلى أين سيمضي ، فقطع . رقاقاً ثم آخر وقادته قدماه نحو دار المختار ، فحام حولها وهو يستعيد في ذهنه كل ما فعله ذلك الرجل . وأخذ دمه يفور من جديد ، حتى لم يعد قادراً على ضبط نفسه . فاندفع داخلاً الدار ، حيث كان المختار والأستاذ سليم وأبو جهاد في خلوة . وقال جواد ما قاله أمام الأستاذ بحق المختار ، لم يترك ستراً مغطى ، إلى أن سحبه أبو جهاد وخرج به وهو لا يخفي استياءه على الرغم من حبه له . وقتها ، عنفه أبو جهاد ثم نصحه بأن ينضم إلى فصيلهم ويترك قريته . فهل يستجيب لرغبة أبي جهاد ويتجنب المشاكل؟ إنه لم يشك في

أنه سيأخذ راحته عندهم ، فليس بينهم من يكرهه ، وسيشترك في العمليات ويبز الجميع ويصبح بطلاً تتحدث المنطقة عن بطولاته ، وبذلك يمكن أن يفقأ عينيّ المختار . وقد كاد جواد يصل إلى قرار ، غير أن شيئاً في داخله عصف به ، وتذكر وعده لأم حسان بأن يعمل في البئر واقتراح الحاج بأن يشترك في تدريب المجاهدين . واتخذ تفكيره منحى آخر ، فأخذ يتصور نفسه في القرية ينهض مع الفجر ليشغل البئر ، ويبدأ مع الضحى في التدريب ، ويتصور نفسه في معارك يخوضها مع فلاحي قريته ، أشجع من الجميع ، وأكثرهم إقداما ، ومجازفة . وارتاح لتصوراته برهة ثم وخزه خاطر مزعج : سيكون المختار هو القائد ، تتعب أنت وتضحي ويتحدث الناس عن القائد وينسبون له الأمجاد ، وأي قائد! هذا الثعبان الذي لم يحمل في حياته بارودة ولم يطلق رصاصة ، لو كان الشيخ حسن هو القائد أو لو كان شعبان ، لهانت ، لكن المختار . . . وتشوشت أفكاره من جديد وتشعبت .

- وين غبت عنا؟

أفاق جواد على سؤال أشيب اللحية بلهجته المتخابثة . فرد جواد بلهجة بدت لسامعيه قاطعة :

- بدّي أظل في القرية .

وعقّب أشيب اللحية :

- أنا كنت عارف ، بتقدرش تفارق!

فنظر جواد نحوه بعينين تائهتين ، ثم اندفع فجأة إلى مقدمة الصندوق وأخذ يخبط بيديه فوق رأس شعبان حتى توقفت الشاحنة ، فهبط منها قافزاً ، وكانت حركته هذه قد هدأته بعض الشيء ، وقال موضحاً : «سألحق بكم فيما بعد» . ووقف برهة بعد أن مضت الشاحنة وقد لفّه الغبار وهو يرقبها . ثم استدار عائداً إلى القرية ، وقد حزم أمره على أن يزور دار بارعة .

١٠

ماذا أقول لكم عن بارعة هذه . أظن أن بضع كلمات ستكون كافية بالنسبة للذين يعرفون أجواء القرى . فقد التجأت هذه المرأة التي تربطها بأم جواد قرابة بعيدة إلى القرية منذ سنوات ، عندما كانت ما تزال فتاة ، وحملت معها إلى ركود القرية قصةً غامضة شغلت أهل القرية أسابيع وشهوراً ، تحدثوا بها حتى ملّوها ، ثم نسوها ، وما عادوا يذكرونها إلا في المناسبات . وعلى كثرة ما تحدثوا فإنهم لم يعرفوا حقيقة ما حصل . ولا استطاعوا أن يستقصوه على الرغم من أن الفضول لم يعوزهم . وانتهى كل فريق إلى تصور صنعه لنفسه حولها . وقد قَبِلَ أبو جواد الفتاة حين التجأت إلى داره على مضض ، والحقيقة أن قلبه رقّ لدموع بارعة التي كانت تقسم بأنها مظلومة ، ولرجاء زوجته ، وإن ظل متخوفاً من كلام الناس . وهكذا عاشت بارعة مع الأسرة ، وقد تكشفت شخصيتها ، بمضي الأيام ، عن قوة تناقض الاستكانة التي بدت عليها حين قدمت . وكلما ازداد حديث الناس عن بارعة ، وكلما أحس أبو جواد بعجزه عن الإجابة على أسئلتهم الملحاحة ، ازداد ضيقه بها وبرمه بوجودها في داره . ثم انتهى به الأمر إلى

طردها . فاحتوتها دار أخرى ، خادمة بغير أجر ، تعمل في الدار وتعمل في الحقول .

ثم انتقلت بارعة من دار إلى دار . خادمة بغير أجر في كل الأحوال ، لكنها ضرورية لمن يستخدمونها بسبب نشاطها وهمتها في العمل . وهي مع ذلك لم تظل فقيرة . بل استطاعت أن تخلق لنفسها ذلك الوضع الذي تكون فيه مرغوبة ومذمومة . وأصبحت تحيط بأسرار القرية ، وتنقل همسات العشاق إلى آذان معشوقيهم ، وتعد المواعيد ، وتحذر الزوجات من نزوات أزواجهن ، وما إلى ذلك من مهام تقوم بها وتتلقى المكافآت ، حتى صارت ذلك الشخص الذي لا يستغنى عنه ، بالرغم من السمعة السيئة التي لصقت بها . وظلت بارعة خلال ذلك تنتقل من دار إلى دار حتى لفظتها الدور كلها ، فبنت لنفسها داراً خاصة قريباً من القرية بجانب الطريق العام ، وصارت تستقبل طلاب خدماتها بدل أن تسعى إليهم ، وانتهى المعترضون على وجودها إلى التسليم به كأمر واقع .

وقد تميز موقف جواد منها منذ كانت في دارهم وكان هو آنذاك صبياً . وانعقدت بينهما صداقة من نوع خاص ، تعلق الصبي بها وظلت هي تهتم به بعد أن غادرت دارهم ، وكانت تزوره في غياب أبيه وتحدب عليه وتحمل إليه ما يصل إلى يدها من هدايا تسرّ الصبيان . ونمت تلك العلاقة مع جواد وهو ينمو ويصبح فتى ، وكان أهل القرية يعتقدون أنه عشيقها ، أما هي فلم تحاول ان تتحرش به بل عاملته معاملة الأخ والصديق . وكان هو مرتاحاً إلى هذه المعاملة ، يتناهى إليه ما يقوله الناس فيحنق ، لكنه لا يجد الراحة إلا عندها ، يأتي إليها كلما أحس بضيق ، ويسر لها بما يضايقه . ويأتي إليها كلما واتته فكرة جديدة فيبسطها أمامها ويناقشها فيها كأنه يناقش نفسه . كانت بارعة بالنسبة لجواد محطة راحة يفرغ عندها همومه ، وكان

يتحدى منتقديها ويردد باستمرار : بارعة أشرف منكم .

في ذلك اليوم ، جاءها كعادته ومعه همومه التي امتلأ بها رأسه وصارت تنهشه ، وتوتره . واستقبلته ، على عادتها ، حفيّة به ، وأعدت له مجلساً مريحاً في باحة الدار ، في الظل ، ودعته لأن يتمدد ويستريح بينما تتم هي إعداد طعام الغداء . وكانت تعود إليه بين الفينة والفينة ، تسرّي عنه ، وتمنّيه بأنه سيتناول طعاماً شهياً . ثم لم يلبث أن أحضرت أطباق الخبيزة المطبوخة مع فتيت العجين ، وسلطة البندورة الممزوجة بالبصل المفروم ذي الرائحة الحرّيفة ، واللبن الرائب الذي يشع بياضه ، والبيض المسلوق المقطع فوق الزبدة الطازجة ، وأرغفة خبز الطابون الشهية ، ومدّت هذا كلّه أمامه وجلست قبالته :

- افرد وجهك ، بهيك وجه وهيك عينين بتخوّف! ولا مَرَة بتحبك .

- يلعن أبو كل النسوان!

- أيوه! أيوه! مش عليّ ، صار عمري أربعين سنة ، وأنا عارفتك ، تكونش عشقان ومخبّي علي!

وانقلبت سحنته فجأة ، وقد اكتست بمزيد من الجدية :

- اسمعي! بفكّر بمشروع خطير .

وظلت هي تحتفظ بابتسامتها التي تُنوّر وجهاً لا يفتقر إلى الجمال :

- بنت المختار؟ هواها عند غيرك زي ما انت عارف ، مهو صاحبك!

- بس! بلاش مسخرة!

وأدركت بارعة أن ذهنه مشغول بأكثر مما قدرت . أما هو فقد شرد لحظات وهي ترقبه ، فأخذ الاهتمام يكسو وجهها ويحلّ شيئاً فشيئا محل ابتسامتها المستخفّة . ثم قال هو فجأة :

- عارفة؟ نفسي أنسف الباص .

قالت مستفهمة ، وقد بدأ الشعور بالخطر يداخلها :

- باص المستعمرة؟

وبدا هو وكأنه لم يسمع سؤالها ، وتابع وكأنه يخاطب نفسه :

- عِنْدِك علبة المتفجرات ، كنت عارف إنها بدها تلزم . . . أولاد الميتة طخو علينا اليوم واحنا بندفن أبو سمير ، ما سألوش فينا ، وانا قادر أورّيهم ، إحنا مش نسوان حتى يستوطوا حيطنا .

فقاطعته مستفهمة :

- شاورت حدا؟

- أظن إنو شعبان بيوافق . . .

- يعني ما شاورتوش لهالحين .

- عملية ولا كل العمليات ، فَكْري! بس فَكْري! باص بحاله!

كان جواد قد صار يتكلم بهدوء غريب ، وكأن صوته ليس صوته ، وعيناه شاردتان لا تنظران إليها . ونبهته هي :

- ما أكلتش ، كل لقمة!

وشرع يأكل بصورة آلية . وظلت هي تفكر ، وقد صار شعورها بالخطر داهماً ، لكنها كانت ما تزال تأمل :

- بتعرف كيف تنسفه؟

- اللي أعطاني العلبة علّمني ، شغلة سهلة .

- علّمك؟ كيف علّمك؟

- علّمني والسلام ، أنا مش حمار ، بعمل المتفجرات لغم . . .

وأخذ يفيض في شرح خطته ، والتوتر يزايله كلما مضى في الشرح ، وحين انتهى كان وجهه قد استراح ، ونظر إليها :

- ايش رأيك؟

- هذه مسائل بفهمش فيها ، قلبي بيقول لي : شغلة بتخوّف ، لو تشاور حدا أحسن .

- أشاور ليش ، ما انا عارف ، بدهم يعترضوا ، كل واحد منهم بيطلع لي بفنّة ، وبعدين أنا مش عايز حدا ، بقدر أعملها لحالي ، واللي بدهم اياه يساووه .

كان هذا في الواقع هو هدفه ، أن يفعل شيئاً يبهرهم . ويبدو أنه استراح لخطّته بعد أن صارت الخطة واضحة في ذهنه من خلال حديثه مع بارعة ، فقد أكل بعدها بشهيّة . وكانت هي ترقبه ، ثم رفعت الأطباق ورجته أن يستريح :

- إغفالك شويّة! انت تعبان .

فتمدد ، وبدا عليه أنه أغفى ، فقامت من جانبه تريد الانصراف لبعض شؤونها ، فأيقظته حركتها ، ونهض ، وأعلمها فجأة أنه ذاهب ليزور الشيخ حسن .

غادر جواد دار بارعة واستلم الطريق إلى «الخيام» . كان وحيداً على الطريق ، وقد أطربته الفكرة التي سيطرت عليه ، ومشى بغير انتظام راسماً بخطواته خطاً منكسراً . كان يدير في مخيلته تفاصيل العملية التي يتهيأ لها ، وتفاصيل ردود الفعل ، ستجري القرية كلها نحوه بعد أن يدمر الباص تدميراً وتتطاير شظاياه ، وسيعانقه الرجال ويقف مزهواً بينهم . وهيأ له طربه بالفكرة أن المختار ذاته سيفرح وسيأتي ليباركه ، وسيسعى ليعانقه أمام أهل القرية . لكنه ، هو جواد ، سيعامل المختار باستعلاء ، وسيكتفي بمصافحته ، وسيقول له : «قمتُ بالعملية نيابة عن القرية كلها يا مختار» . ثم فكر ، إن هذه العبارة ليست كافية ، سيحتقر المختار فيقول له : «يا وليد» . غير أن هذا ليس كافياً أيضاً ، فالهرج والمرج اللذان سيسودان الجو

لن يجعلا عبارته مسموعة ، والمختار اللعين سيتصرف وكأنه لم ينتبه . الأفضل إذن أن يرفض مصافحته ، هكذا بكل بساطة ، يمدّ المختار يده فيرفضها ثم يشير إلى الجميع كي يسكتوا ، ثم يتوجه بالخطاب إلى المختار ، على مسمع من الجميع ، ويقول له : «أنا نسفت الباص فماذا فعلت أنت!؟» . ولكن هذه العبارة قد تؤذي الآخرين ممن لم يفعلوا شيئاً ، مثلهم مثل المختار .

كانت مشيته على الطريق قد تسارعت ولم يشعر بذلك . وفكر : ماذا لو تأذّوا ، إلى جهنم الجميع ، حتى الذين تحركوا فعلوا ذلك متأخرين ، خضعوا للمختار ، أو خافوا منه ، جبناء ، كلهم جبناء ، إلا أن الشيخ حسن ليس جباناً ، كيف يقول ذلك ، وشعبان والآخرون الذين ذهبوا إلى النجدة ، سيقول للمختار . «أنا نسفت الباص بينما تعاونت أنت مع الانجليز فاذهب واشكني إليهم» . وسيضحك ، لكن الانجليز رحلوا ، والمختار ما شكا أحداً من أهل القرية في حياته ، هكذا يقولون ، ولماذا يصدق هو هذه الأقوال . إن المختار خبيث ، ربما كان يشي بأهل القرية سراً ، لا شك في أنه كان يفعل ذلك وإلا كيف سكت عنه الانجليز ، من المؤكد أن المختار جاسوس ، لو علق بدليل واحد ضده لانتهى أمره في القرية ، لماذا لا يلفت نظر أبي جهاد إلى هذه النقطة؟ أبو جهاد نفسه يداري المختار ، ما الذي يخشاه قائد الفصيل ، لماذا لم يقف اليوم في المسجد ويقل : «لا تثقوا بمختاركم الذي تعاون مع الانجليز» . والقيادة ، تلك القيادة القابعة في «القدس» ، كيف تقبل أن يكون واحد مثل هذا المختار قائداً للقرية؟ القيادة لا تفهم شيئاً .

ونبهه صوتٌ قادم باتجاهه ، وقد فاجأه تماماً ، كان ذلك صوت الباص ، وقد رآه جواد مقبلاً على الطريق ، غير هياب ، يسير برتابة ، لكن بثبات .

وتجسد له الباص ذاته عدواً يستفزّ مشاعره ، وفكر : هل يظل ماضياً على الطريق نفسه أم يتجنبه فيتنحى؟ وتردد قليلاً ثم تنحى ودخل الزرع . وعندما قدّر أن ركاب الباص قد يرونه ، كَمَنَ وسط الزرع . ومرّ الباص من أمامه ، وقد انتثر على مقاعده عدد من الركاب لم يستطع أن يميز وجوههم ، لكنه ميز بوضوح الوجه الجاد للسائق ، المنصرف كلية إلى تفحص الطريق . كان وجهاً يطفح بالعافية ، يعلوه شعر أسود سبط ، وفيه عينان مفتوحتان كأنهما كشافان يكشفان له الطريق ، ستكون هذه آخر رحلاتك ، هكذا فكر ، وسوف ترى ما الذي يستطيع أن يفعله جواد .

وتابع السير أهدأ قليلاً مما كان ، وقد حزم أمره على أن يقوم بالعملية وحده ، لن يخبر أحداً ، ولو أخبرهم فسوف يتهيبون ، رباهم المختار على يديه ، فصاروا يهابون اليهود ، هو الذي سيلقن أولئك المعتدين الدرس اللازم ، درساً لن ينسوه . ومرّ به رجل قدم من وسط الزرع ، فابتدره جواد بالتحية ، وابتسم له ، وتابع سيره مرحاً وقد استراحت نفسه تماماً . ثم لاحت له شاحنة شعبان وهي راجعة ، وعندها فقط فطن إلى أنه قد تأخر . وخالطه إحساس بالندم لأنه أضاع زيارة الشيخ ، وفكر بأنهم سيتهمونه بالتقصير من هذه الناحية .

وقفت الشاحنة عندما بارته ، وتساءل شعبان وهو يطل برأسه :

– وين كنت؟

وأضاف الحاج عبدالعزيز الذي كان يجلس بجانب شعبان :

– ما وفيتش بوعدك .

وأشار إليه الرجال الراكبون في الصندوق كي يصعد ، وخيل له وهو يلاحظ تجهم وجوههم أنهم يلومونه على تأخره ، فازداد إحساسه بالندم . وصعد متباطئاً . وفوجئ بالشيخ حسن ممداً على أرض الصندوق وقد

جلست أم حسان بجانبه وقرفص بجانبها حسان ويده مسنودة على ركبة الأم . وابتدرته أم حسان :

- الشيخ تعبان .

ولم يجد جواد ما يقوله . وأكملت المرأة :

- عنده سخونة .

وترقرقت في عينيها دموع صامتة . وأطرق حسان . ودنا جواد من الشيخ وقلبه مفعم بعاطفة طاغية نحوه . ونازعته نفسه إلى البكاء لكنه تجلد ، وغالبها ، وقد خشي أن يبدو ضعيفاً . ووضع يده على جبين الشيخ . ولحظتها ، قال أشيب اللحية بنبرة حزينة :

- ما لقوش حكيم .

ووجد جواد ما يقوله بعد صمته :

- الحكما هربوا .

فقال أشيب اللحية ، غير موجه حديثه لأحد .

- لا إله إلا الله ، أبو حسان بيستاهل كل خير .

وهزت أم حسان رأسها ، وكأنها تؤكد كلام الرجل . وتركزت الأنظار على الشيخ الممدد . وندت عن الشيخ أنّةٌ ، وحرك رأسه حركة خفيفة ، ورفّت جفونه ، فهتفت المرأة :

- أبو حسان ، أبو حسان!

وظلت جفون الشيخ ترفّ ، وفتح عينيه للحظات ثم أطبقهما ، وكرر العملية ، بينما خرجت من فمه كلمات غير مفهومة . فقال حسان بصوت خافت جداً : «نفعت الإبرة» . وابتهلت الأم : «الله ينجيه» . وغمغم جواد بكلمات غير مفهومة ، وكان بينه وبين نفسه يفكر : سأنتقم له .

وعندما وصلوا إلى دار الشيخ ، مددوا الرجل المصاب وتحلقوا حوله ،

وقد أخذت إمارات الحياة تدب في جسده ، وظل جواد واقفاً . وأخذ فلاحون آخرون يفدون ، وكلما ضاقت بهم الحجرة غادرها بعضهم ليفسح المجال لسواه . واستطاع الشيخ آخر الأمر أن يقول كلمات مفهومة :

- وين حسان ، وين حسان؟

وهتف حسان :

- هيني يابا!

ودنا الولد من أبيه ، فنظر الشيخ إلى ابنه وكأنه يحتضنه بعينيه ، وجهد كي يرفع ذراعه السليمة لكن قواه خانته . ودفعت الأم ابنها ليقترب أكثر من أبيه . وطفرت من عيني الولد الدموع . وقال الشيخ بصوت واهن : «لا يابنيي ، الله سلم» . وأجال نظره فيمن حوله ثم سدده نحو جواد الذي كان ما يزال واقفاً وهو ساهم . واستفهم الشيخ بنظرةٍ من عينيه . ونبهت الأصوات جواداً إلى أن الشيخ يطلبه وانتزعته من سهومه . فاتجه المنتزع من سهومه إلى فراش الشيخ وجلس بقربه ، وحاول أن يجد كلمات يقولها للشيخ ، فلم يسعفه ذهنه . وأحس بخجل ، فأطرق . وظل جواد مطرقاً والشيخ يتأمله بحنان . ثم قال الشيخ :

- الحمد لله على سلامتك يا جواد ، خمنتك ، لا سمح الله . . .

- أنا بخير ، زي ما انت شايف ، المهم صحتك انت .

وتساءل الشيخ وهو ينظر إلى جواد وحده :

- قل لي انت الدغري ، في «الخيام» خبّوا علي ، حدا مات من جماعتنا؟

كان جواد غير مهيأ لمثل هذا السؤال ، فاحتار ، كيف يرد ، وبدت حيرته واضحة . وتبادل الجالسون النظر بسرعة ثم سلطوا نظراتهم على الحاج عبدالعزيز الذي كان يجلس إلى يمين الشيخ . وكرر الشيخ ، وقد بدا

صوته وسط الصمت الذي خيم على الحجرة أقوى مما هو في الواقع :

- قل لي ، انت بتكذبش ، أكيد مات حدا .

قال الحاج عبدالعزيز :

- محمود أعطاك عمره .

وبدا للحاج أن الشيخ لم يفهم ، فكرر بصوت أعلى :

محمود ، ابني محمود ، استشهد .

فغامت عينا الشيخ بأسى ظاهر ، وأدار نظره ناحية الحاج ، وحاول أن يقول له شيئاً لكنه سكت ، وعاد ينظر ناحية جواد ، وغمغم :

- اختاره الله إلى جواره .

وخيم الصمت بعدها على الجميع ، صمت ثقيل الوقع بدا كأنه استولى عليهم إلى الأبد .

ثم فاجأهم المختار وهو يدخل بجلبة ملقياً السلام . فنهضوا جميعاً كأنما حركتهم قوة خفية . ونهض جواد منساقاً مع حركة الجمع . وتقدم المختارُ بخطوات ناشطة نحو الشيخ وانحنى عليه وقبله . فأغاظت هذه الحركة جواداً ، وقال في نفسه : منافق! بينما أخذ المختار يتحدث بغير توقف ، فحدّث الشيخ عما أصابه من حزن ، وكيف بادر إلى زيارته في المغارة ، وعن جنازة محمود وما حدث خلالها ، ثم حدثه عن تعيين اللجنة القومية ، مفيضاً في إيراد التفاصيل ومضفياً على كل منها أهمية . وكان جواد يصغي وهو يتميز غيظاً ، يحصي على المختار كلماته ، ويلاحظ طريقة روايته للوقائع وكيف أنه يتحدث كأن شيئاً لم يكن بينه وبين الشيخ ، أو كأن خلافاً لم يقع في المسجد . وهمّ بأن يقاطع المختار أكثر من مرة ثم أمسك نفسه . لكنه ، وكان كيله قد طفح ، لم يستطع أن يمسك نفسه حين تحدث المختار عن تعيين الشيخ عضوا في اللجنة القومية وعن فرحه لذلك .

- قل له يا مختار ليش مارضيتش يصير قائد فصيل .

فتجاهل المختار كلام جواد ، ومضى يقول :

- إن شاء الله بتشفى قريب ، وبتعاود للجهاد .

وتهيأ جواد لأن يقول شيئاً ، إلا أن عيون الجالسين المترجية أسكتته ، وأحس بأن جسده يتوتر ، فنهض ، ووقف قليلاً وسط الحجرة ثم غادرها غاضباً من نفسه ومن الآخرين .

١١

عصر ذلك اليوم ، استقبل أبو جهاد جابراً في داره ، واختلى به ثم تركه يتوجه إلى قريته . ودعا أبو جهاد واحداً من مجاهديه وحمله رسالة طلب منه أن ينقلها إلى القيادة في «القدس» ، وأوصاه بأن ينتظر الجواب ، وأن يعود في الليلة ذاتها بأي وسيلة . ثم دعا مجاهدي القرية لاجتماع عام . وشرح في ذلك الاجتماع الموقف كما يراه ، ونبّه المجاهدين إلى أنهم مقبلون على حدث هام ، وطلب منهم أن يبقوا غدا في القرية بدل أن يتوجهوا إلى الحقول . ثم وزع الحراسات . وتفقد الكمائن . وركب فرسه واتجه إلى القرية المجاورة . ومر بدار الشيخ حسن ، واطمأن على صحته ، وأخبره أن الممرض سيأتي غدا ليعطيه الحقنة الثانية ، واتجه بعد ذلك إلى دار المختار واختلى به .

كان كل شيء في تصرفات أبي جهاد منذ اختلى بجابر يشي بخطورة ما يشغل باله . وقد أفصح عن بعضه في خلوته مع المختار . أفهم أبو جهاد المختار أن الانجليز سيخلون معسكر «وادي الصرار» بعد يومين ، وأن القيادة قد تأمرهم بشيء بهذه المناسبة ، وأنه يرجو أن يكون مجاهدو القرية

جاهزين لأي احتمال . وقد أصغى إليه المختار من غير أن يؤخذ بالجدية التي كست وجه أبي جهاد وكلماته ، وكان يزنه بعينيه ، ثمّ حك رأسه بعد أن فرغ أبو جهاد من كلامه ، وصمت لحظات ثم تساءل بلهجة فاترة :

- ناوي تحتل الكنب؟

فرد أبو جهاد :

- بنفذ أوامر القيادة ، وأنا بلا مؤاخذة بستناها .

فعدل المختار قعدته ، وقرب وجهه من وجه أبي جهاد :

- اليهود رايحين يسبقونا ، وما اظنّش الانجليز بيفلّتوا الكنب قبل ما يسلموه إلهم .

- اسمع يا أبو خالد ، المسألة مش بسيطة ، هيّك حزرت ، الانجليز وعدوهم يسلموهم الكنب ، اليوم عرفت ، وإذا الهاجاناه استولوا عليه بتصير حالتنا صعبة . انت سيد العارفين ، المعسكر مليان سلاح وذخيرة ، وإذا صار في إيديهم بدك تقول احنا بلا مؤاخذة انتهينا . وهذا إشي لازم ما يصيرش .

قال المختار :

- كيف بدّك تمنع المقدور؟

وأكمل بلهجة خلت من السخرية :

- . . . بشويّة البواريد اللي ما حيلتناش غيرهم!

قال أبو جهاد :

- إحنا ، بلا مؤاخذة ، مش قلال ، قريتنا وقريتكو ، وست سبع قرى حوالينا ، والقيادة ، برضه ، بتساعد . . .

فقاطعه المختار :

- اسمع يا بو جهاد ، الدغري ، سايرتكو لليوم وقبلت كل شيء ، بس

إنه نهاجم الكنب والانجليز فيه ، هذا شغل مجانين ، ورجالنا بتموت وما بنحتلوش ، بيذبحوهم زي النعاج ، وإذا بدك رايي أنا مش موافق .

قال أبو جهاد وقد أمسك بشيء يحاجج به المختار :

- احنا ، بلا مؤاخذة ، بدناش نهاجمو وهم فيه .

- بدّك تقوللي إنهم بيطلعوا منه قبل ما يحطّوه في إيدين اليهود ، حكي ، بيعملوهاش ، أما إذا همّ استلموه منهم وتحصّنوا فيه ، هيْ ، هيْ ، اليهود برضه مدربين والمعسكر ، زي ما قلت ، مليان سلاح .

قال أبو جهاد وهو ما يزال راغباً في المحاججة :

- هذا هو الإشي اللي فكّرت فيه ، وشغلتنا إنو نمنعه ، يعني باختصار ، الانجليز بيرحلوا ، الله معهم ، بس الهاجاناه ما بيدخلوش .

هرش المختار راسه وصمت لحظات ، فلاحقه أبو جهاد :

إيش رايك؟

فرد المختار مغيرا مجرى الحديث :

- انت عارف رايي ، وبعدين إيش ظايللي في هالقرية ، ما بقاليش كلمة فيها ، مفاعيص راكبين راسهم ، قال إيش قال : بدهمش المختار ، وانت وراهم .

- خلي هالحكي ع جنب ، انت رئيس اللجنة وبدّي كلمتك!

فسأل المختار متفرسا في وجه جليسه :

- شفت حدا غيري؟

- لأ .

وظل أبو جهاد يحاصر المختار بعينيه منتظراً الجواب . وقال المختار متملصاً .

- أعطيني مهلة! بفكّر وبقول لك .

- بدهاش تفكير ، بلا مؤاخذة ، معندناش وقت ، يا بنحاوط بكرة الكنب يا بتضيع علينا وبيحتلوه الهاجاناه . ومعنى هالحكي إنّو القرى لازم تحضّر حالها من هالحين .

فحكّ المختار رأسه حكة خفيفة :

- بقول رأيي لما تجيني أوامر القيادة ، أنا الثاني بدّي أكون على نور!

- طيّب ، أقلّته ، نبّه الفلاحين عشان ما يغيبوش بكرة .

- بعملش إشي قبل ما تيجي الأوامر .

قالها المختار بلهجة باتة . وحاول أبو جهاد أن يحصل منه علي شيء ، فكان ذلك عبثاً ، ولم يتزحزح المختار ، وكانت ذريعته أوامر القيادة ، فهو لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه أمراً خطيراً كهذا . ورمى أبو جهاد بآخر سهامه :

- إذا المجاهدين وافقوا ، إيش بتقول؟

ولم يفاجأ المختار كأنما كان يتوقع ذلك ، فقد قلّص فتحتيّ عينيه وقال بلهجة خلت من الاستفزاز :

- خلّ في بالك ، أنا ما قلتش لأ ، بس يكون في علمك ، وعلمهم ، إذا راحوا من غير أمري محدّش بيلومني ولو فطسوا كلهم .

وأدرك أبو جهاد أنه ما من شيء يفيد في زحزحة هذا الرجل عن رأيه ، وهمّ بأن يغير مجرى الحديث ، غير أن المختار تابع وقد فشل في كظم حنقة :

- . . . انت في داري ، بقدرش أزعلك ، بس بخبّيش عليك ، زادت عن حدها .

وكان المختار في غضون ذلك قد اعتدل وأسند ظهره إلى الوسادة الموضوعة خلفه ، ومد يده وأشار بسبابته إلى وجه أبي جهاد محذراً :

- ما تنساش ، انت رئيس وأنا رئيس ، وإذا بدّك متخربهاش بينا من الأول ، تتدخّلش في اللي ما بيخصّكش .

فنهض أبو جهاد ، ولم يبد المختار حماساً لاستبقائه ، وغادر دار المختار مهموماً . كان يدرك أن في تخوف المختار وجهَ حق ، فالعملية ليست سهلة ، حتى ولو ساعدتهم القيادة بالرشاشات كما طلب ، وبالرجال . وقد فهم من الأخبار التي نقلها إليه جابر أن الهاجاناه أعدت خطة للاستيلاء على المعسكر ، بكل ما فيه من أسلحة ، وهو لا يعرف من تفاصيل تلك الخطة شيئاً ، لكنه عرف أنها حشدت لهذه العملية وستحصل على إمدادات من مناطق أخرى ، وإنهم في قيادة الهاجاناه يتوقعون أن يقوم المجاهدون بمجازفة ، ويحتاطون لذلك . لكن التسليم بترك المعسكر الكبير للهاجاناه كان صعباً بالنسبة لأبي جهاد ، الذي يعرف خطورة ذلك ، وإذن فلا بد بالنسبة له من المجازفة .

عاد أبو جهاد وهو يقود فرسه إلى دار الشيخ حسن ، وقد صمم على أن يدعو شعبان ويناقشه في الأمر ، وعندما دخل حجرة الشيخ وجد شعبان هناك ، والحجرة مكتظة بالزوار .

وبادرته أم حسان ، وهي تشير إلى الشيخ :

- رجعت له السخونة .

كان الشيخ ممدداً يلتمع جبينه بحبيبات العرق ، وكان القلق بادياً على الوجوه المحيطة به . قال شعبان : «لا بد من طبيب» . ورد أبو جهاد بأنه أرسل رسولاً إلى «القدس» وأوصاه بالبحث عن طبيب ، ثم أشار لشعبان داعياً إياه إلى خلوة ، ووقفا في ساحة الدار يتحادثان . وقد تم لأبي جهاد ما أراده ، سيبلغ شعبان الأمر إلى مجاهدي القرية واحداً واحداً وسيكونون جاهزين منذ الصباح .

ركب أبو جهاد فرسه ، وقد اختار درب المشاة ليتجنب السير على الطريق العام ، وأخذ يفكر في الرسول الذي بعث به إلى «القدس» ، مقدراً أنه قد لا يعود إلا في الصباح ، ومن الخير أن يزور هو قرى أخرى قبل أن يعود إلى قريته . ولكز فرسه فتسارعت خطواتها ، وإن ظلت تسير حذرة على الدرب ، وسط السهل الذي ما زال ينيره ضوء نهار مولٍ . وتناهى إليه صوت باص فلم يفاجأ ، وظل ماضياً في طريقه إلى أن فاجأته أصوات طلقات تئز غير بعيدة . ثم تزايدت الطلقات فقدر أن اشتباكاً يجري على الطريق العام . وقد وقفت الفرس تماماً . وأخذ هو يصغي بانتباه شديد . استمر الإطلاق لحظات سكن بعدها كل شيء . فمضى أبو جهاد بفرسه حذراً مترصداً . ثم توقف حين ميزت أذنه وقع خطوات تقترب مقبلة باتجاهه ، فنزل عن ظهر الفرس ، وهيأ مسدسه ، وكمن :

- مين؟

وردّ صوت

- أنا جواد .

وتبعه صوت مضطرب لامرأة :

- إحنا من القرية .

تعرف أبو جهاد على صوت جواد ، وخرج من مكمنه . وأقبلت المرأة نحوه بخطوات ناشطة ووراءها جواد يمشي متلكئا . وعرف هو بارعة التي حيته ، فتساءل متجاهلاً تحيتها :

- وين كنت يا جواد؟

انفجر جواد ، وأخذ يخبط جانبيّ رأسه بكفيه وهو يردد :

- ما قدرتش أنسفه ، ما قدرتش أنسفه!

وبانت الدهشة في عيني أبي جهاد ، واقترب من جواد يهدئه .

قالت المرأة :

- نصحته يا عمّ ، ما رضيش يرد عليّ . . .

سأل أبو جهاد وهو يخاطب جواداً بعد أن هدأت حركة يديه :

- ايش اللي حصل؟

- هي اللي خرّبت العمليّة ،لولاها لنسفته .

- أي عمليّة؟ احكي لي شوّية شويّة .

قالت بارعة بلهجة المشفقة على جواد :

- كان بدّو ينسف باص المستعمرة . . .

وسأله أبو جهاد ، مستمراً في تجاهل بارعة :

- ليش ما شاروتني؟

فردت بارعة ، بينما ظل جواد صامتاً ورأسه مطرق :

- حبّ يساويها لحاله ، خاف انكو تمنعوه .

وتكلم جواد :

- هي اللي خرّبت العمليّة .

واضطر أبو جهاد إلى أن يسأل بارعة ، فتحدثت المرأة باندفاع ، جاهدة ألا تسيء لجواد :

- كان مخبّي عندي علبة ، فيها دلاميت زي ما قال . وحبّ يوخذها ، أنا حايلته وهديت عليه ، راح ع دار الشيخ حسن يزوره رجع من هناك حبلان زعل . قال إيش ، قال الشيخ بيموت واحنا ما معملناش إشي . كانت كل عين عليه هالقدّ . حمل العلبة وحلف لينسف الباص ع اللي فيه ، خوّفته ، قلتله أنا رايحة أخبرّكو ، ما ردّش . قال لي لو عملتيها بموتك . ولما شفت إنو ناويها جدّ لحقته ، ترجّيته كمان مرة ، ما ردّش . كان زي الثور الهايج ، لا بيهدا ولا بيسمع . كان بِيخَوّفْ ، إجيت ارجع واتركه في حاله

مخلاّنيش ، كان خايف أقول لكو ، سحب علي البارودة وقال لي : ما بتروحيش ، ما كانش معو فاس ، حفر جورة في الأرض بتبع البارودة اللي بتنحط في راسها ، ومش عارفه إيش عمل في العلبة ، وحطها في الجورة . وقعدنا بعيدين وسط الزرع جنب الطريق ، واستنينا ، اتأخر الباص ، واحنا بنستنا ، يكفيك شرّي يا عمّ أبو جهاد ، كانت حالتي بالويل ، لو حكيت كلمة لموتني . وبعدين أجا الباص ، كانت قدّامه سياره أصغر منّه من اللي بيركبوها العسكر ، مرقت السيارة فوق الجورة ما صارش إشي ، مرق الباص ما صارش إشي ، مظلّش فيه عقل ، نط ع الطريق وصار يطخ ، وين ما تيجي تيجي ، ردّوا عليه من الباص من غير ما يوقفوا ، وظل هو يطخ لآخر فشكة ، وغاب الباص .

قال جواد وقد قرأ اللوم في وجه أبي جهاد :

- قعدت تنق على راسي ، ما اعرفتش أحطّ اللغم كويّس!

قال أبو جهاد بلهجته المقتضبة التي تشي بغضبه :

- وصّل المرة ، وارجع لي!

فقالت بارعة التي أغاظها ما تصورته من عدم اهتمام أبي جهاد بقصتها :

- ليش الغَلَبة ، بروح لحالي .

ومضت بخطواتها الناشطة التي يهتز معها رأسها وجسدها كله ، فلم يستوقفاها . وذهب أبو جهاد إلى الطريق ، وتبعه جواد ، وانتشل أبو جهاد اللغم من الحفرة وقلبه بين يديه ثم عاد إلى الفرس ، ووضع اللغم في الخرج ، وأردف جواد وراءه ولكز الفرس .

وصل أبو جهاد إلى المغارة ، وهناك ترك جواداً مع المجاهدين وأوصاه بأن يظل معهم بصورة دائمة . وتابع هو جولته على القرى ، ثم عاد إلى داره مع

الفجر . وكان الرسول قد عاد من «القدس» لتوه وحمل لأبي جهاد رسالة كتبها ضابط من ضباط القيادة .

لا أستطيع أن أزعم أنني قرأت الرسالة ، وقد بحثت في الواقع عنها ، وما زلت أبحث ، وليس ذلك لأنني أجهل مضمونها ، فالواقع أنني عرفته منذ حين ، ولكن لأقدمها لكم كنموذج لمراسلات تلك الأيام التي كان يتقرر فيها مصير بلد بكامله وشعب بكامله . بل إنني لم أحصل على أي نموذج من تلك الرسائل التي تبادلها قادة الفصائل وقيادة «الجهاد المقدس» . والواضح أن القيادة لم تكن تحتفظ بصور من رسائلها ، وإن قادة الفصائل ، بمن فيهم الذين ما زالو أحياء حتى اليوم ، لم يدركوا الأهمية التاريخية لها ، وأكاد أجزم بأنهم لم يدركوا الأهمية التاريخية لتلك الأيام التي كانوا يعيشونها ويشتركون بصنع أحداثها . فلأحدثكم عن مضمون الرسالة كما عرفته ، يساعدني الخيال على تصور ضابط مرهق من كثرة العمل ومن الفوضى ، جالس في مكتبه في عمارة من عمارات مدينة «القدس» ، يأتيه فلاح ، مرسل من قائد فصيل في قرية ربما رآها الضابط مرة أو مرتين ، يعرف اسمها ليس لأنه زارها ، ولكن لكثرة ما تردد في التقارير التي مرت بين يديه ، والفلاح الذي دخل عليه متهيب من الحديث في حضرة قائد مثله ، يمد يده برسالة من قائد الفصيل ، مكتوبة بخط رديء ، خال من العبارات الرسمية ، يتناول الضابط الرسالة فيقرأها ، وقد نسي أن يدعو الفلاح للجلوس ، ويدرك ، سواء كانت خبرته كثيرة أو قليلة ، خطورة الأمر الذي يتحدث عنه قائد الفصيل ، ولكنه يشعر بالعجز عن تلبية طلباته ، لأسباب يطول شرحها لو أردنا أن نشرحها ، ويشرد ذهنه ، فيذكّره الفلاح الذي لم يشعر بأنه منسي بأن قائد الفصيل يطلب الجواب ، ويعرف الضابط أن من واجبه أن يجيب بأي شيء ، فيتناول ريشة من تلك الريش

الكبيرة التي كانت شائعة في ذلك الوقت ، ويغطّ رأسها في المحبرة بأناة ، ويشرع في الكتابة منتقيا كلماته ، ثم يمسك النشافة وينشف الكلمات التي خطّها على الورقة حتى يطمئن إلى أنها لن تطمس ، ويطوي الورقة ، ويضعها في مغلف ، ويناولها للفلاح ، وينتبه إلى أنه قد عامله بجفاف ، فيسأله عن اسمه ، ويسمع إجابته ، ثم ينساها بعد لحظة ، ويقول له : سلّم على قائد الفصيل ، وينهض وفي نيته أن يزور زميلاً في حجرة أخرى ويشكو له ضيقه بالعمل المتراكم طيلة اليوم ، فيلاحظ أن الفلاح يتردد في مغادرة المكان ، فيشجعه على الإفصاح عما يشغله ، ويفهم من الفلاح أنه جاء إلى «القدس» في الباص العمومي ، وإن قائد الفصيل طلب منه أن يعود في الليلة ذاتها ، وليس هناك باص في الليل ، ويتدبر الضابط الأمر فيرسله مع سيارة للمجاهدين ستمر من مكان غير بعيد من قريتهم ، حيث يمكن أن يصلها بعد ذلك ماشيا ، ويبدو الامتنان جلياً على وجه الفلاح ، الذي أعفاه هذا التدبير من المبيت في «القدس» ، هو الذي كان سيدفع من جيبه أجرة المبيت ، ويحمل الرسالة ويعدو بها فرحاً حامداً ربّه على التسهيلات التي هيأها له في مهمته .

أبلغت الرسالة إلى أبي جهاد أن قائد قوات «الجهاد المقدس» غائب عن المدينة وإن كاتبها ، وهو أحد معاونيه ، يوافقه على ضرورة الإسراع بالعملية . وهو يقترح عليه أن يأخذ الأمر على عاتقه ويضع خطته حسب الظروف ، ويضمن موافقة القيادة .

وقالت الرسالة إن السلاح الذي طلبه أبو جهاد غير متوفر ، وأما الرجال فلا مجال للحديث عنهم ، وهو ، أي المعاون ، ينصحه بأن يتصل بوحدة من وحدات جيش الإنقاذ ترابط في مكان حدّده ، ويتشاور معها للاشتراك في العملية ، ويتعهد هو ، أي المعاون ، بالاتصال بهم الليلة

وبإسداء النصح لهم كي يوافقوا ، ولكنه لا يضمن هذه الموافقة ، ما دام بين جيش الإنقاذ والجهاد المقدس ما يعرف أبو جهاد من علاقات سيئة ، وتؤكد الرسالة أن وحدة جيش الإنقاذ مكونة من خمسين رجلاً معهم ضابط وهم مسلحون بالبنادق ولديهم ثلاثة رشاشات «برن» ومدفع «هاون» .

كان أبو جهاد قد بدأ يُعِدُّ حساباته منذ فكر في العملية ، وأصبح كل شيء الآن واضحاً : ستبعث القرى قرابة ثلاثمائة مجاهد ، وفي قريته مائة ، وإذا وفقوا فسينضم إليه خمسون من جيش الإنقاذ وضباطهم وأسلحتهم . ووضع قائد الفصيل خطته على هذا الأساس ، واختار رسله ، وأرسلهم إلى القرى التي زارها ، محملين بتعليماته حول أماكن التجمع ومواعيده ، أما القرية المجاورة فقد اعتزم أن يزورها بنفسه .

رسم أبو جهاد في ذهنه خطة الحصار والاستيلاء على المعسكر ، لكن هواجسه لم تتوقف ، فالمعلومات المتوفرة لديه عن قوة العدو ليست كاملة ، والقيادة لم تسعفه بجديد . وقد تمدد حيث كان يجلس في المضافة ، إلى أن اكتمل نور الفجر ، فنهض ، وغادر الدار ، وأطلق لفرسه العنان . وتوجه مباشرة إلى دار شعبان ، فأخبرته أمه أن شعبان مع المجاهدين ، عند البئر ، فمضى إليهم .

وقف المجاهدون تحية لأبي جهاد ، وكفّوا عن الحديث الذي كانوا قد شرعوا فيه ، وأجلسوه في صدر حلقتهم ، وجلس شعبان بجانبه . كانت أشعة الشمس قد انبثقت من وراء الأفق قوية ساطعة . وكان أحدهم قد جهز البغل ، وحركه ، فأخذ الماء يسيل في الجابية محدثاً صوته الرتيب ، كأنه الموسيقى التصويرية التي تواكب دوران البغل . وكانت عيون المجاهدين الملتفين حول أبي جهاد تنقل إليه إحساسهم بخطورة الموضوع الذي حدثهم

عنه شعبان قبل وصوله . وخيم ، للحظات ، صمتٌ يرسم في الدائرة التي تشكلها أجسادهم أكثر من علامة استفهام . ثمّ تنحنح رجل . وحكّ عزمي الدحدول مكان الإصابة في إليته ، وابتسم في وجه رجل يجاوره ، وقال شيئاً لم يسمعه أبو جهاد فتجهّم الرجل ولكز الدحدول بكوعه كأنما يأمره بالصمت . وكان الحاج عبدالعزيز بين الموجودين ، ومعه بندقيته ، وقد علقها بكتفه بالرغم من أنه كان جالساً ، وهو الذي قطع الصمت حين استفهم من أبي جهاد عن تفاصيل العملية المقبلة .

حدثهم أبو جهاد عن العملية وأفاض في شرح ضرورتها . ولا أظن أنكم بحاجة لأن أعيد عليكم ما قاله في ذلك الصباح ، فكل شيء قد أصبح واضحاً بالنسبة لكم . كان هو مستغرقاً في الشرح وكانوا هم مستغرقين في الإصغاء حين قدم المختار وهو بكامل ملابسه ، القمباز والحزام الحريري العريض الذي يلف وسطه والصاكو فوق القمباز والحطة والعقال . ولأمر غير مفهوم ، اندفع المختار أولا نحو البغل فأوقفه عن الدوران . وكأنما كان البغل المرهق ينتظر هذه الحركة فقد توقف كلية ، على الرغم من أنه ظل مشدوداً إلى خشبة الساقية . ثم اتجه المختار نحو الحلقة وألقى تحية الصباح بصوت جهوري ، فنهضوا واقفين بقوة العادة . ودعا أبو جهاد المختار إلى الجلوس بجانبه ، لكن الرجل الحانق تجاهل المجاملة ، وابتدر أبا جهاد بالكلام محتداً :

- امبارح كنت بحكي جد لما قلت لك ما تتدخّلش في اللي ما بيخصّكش ، مبيّن مسمعتش كلامي ، وصلت حَدْها ، ومظلّش للصبر مطرح .

وتدخل الحاج عبدالعزيز ، مقدراً حراجة الموقف :

- استهد بالله يا بو خالد ، أبو جهاد ضيفنا ، اتفضّل اقعد !

- مش عارف مين اللي ضيف ، أنا ولاّ هو!

اكفهر الجو بعد ملاحظة المختار هذه ، وأبدت وجوه المتحلقين جهامة واضحة ، إلا وجه عزمي الدحدول الذي ظل يحمل تلك الابتسامة . وقد همّ هذا بأن يقول شيئاً لجاره غير أن الجار لكزه بحدة فانكتم وسحب ابتسامته بصورة مفاجئة ونظر أمامه إلى غير ما هدف . ورد أبو جهاد بحزم فاجأ المختار ذاته :

- الحالة مش متحملة عنعنات ، العملية لازم تصير ، يعني لازم تصير ، بك ومن غيرك بدها تصير ، وانت ، بلا مؤاخذة ، شورك في راسك ، يا بتكون معانا ، يا بتكون لحالك .

فشهق المختار بصوت مرتفع مبدياً منتهى استنكاره ، وقال بلهجة امتزجت فيها السخرية بالدهشة :

- ركّبناك ورانا ، مدّيت إيدك ع الخرج!

قال الحاج عبدالعزيز بلهجة من يدعو إلى المصالحة :

- استهد بالله يا بو خالد ، بقول لك ، أبو جهاد مش غريب ، زلمة منا وفينا ، محدّش حطّه ورا ولا قدّام ، أنا وشعبان في اللجنة والشيخ معانا ، واحنا اللي شاورناه .

وردّد شعبان من غير أن ينظر إلى المختار :

- أي نعم .

فنظر المختار ناحيته :

- انت ، كمان ، يا شعبان ، بتشتغل من ورا ظهري .

فردّ شعبان وهو ينظر إليه هذه المرة بجانب عينه :

- الشغلة مش هيك يا مختار . . .

وتدخل الحاج مقاطعاً :

- خلّونا في المفيد ، أنا بقول : أبو جهاد منا وفينا ، أخو إلنا ، أجا يتشاور معانا ، هاي أولها وهاي آخرها .

وخيم الصمت من جديد بينما أخذ المختار يجيل بصره في الحاضرين . وقد وقف عزمي الدحدول تحت تأثير نظرة المختار وحك إليته ثم جلس بحركة آلية .

وقال المختار بلهجة وشت باستعداده للتفاهم :

- يا حاج عبدالعزيز ، اتفضّل انت وشعبان عندي في الدار ، وهناك بنحكي .

فقال الحاج وهو ينهض :

- بنروح كلنا لدار الشيخ حسن ، بنطّمن عليه وبنشاوره ، بالك يكون تحسّن .

وبدا الحاج محتاراً ، فهل من المناسب أن يدعو أبا جهاد أو لا ، إلا أن أبا جهاد أراحه وبادر إلى القول :

- اتفضّلوا انتو ، وانا بظل هان مع الإخوان .

سار المختار أولاً ، وسار وراءه الحاج عبدالعزيز وتبعهما شعبان بخطوات متثاقلة . وحين صار شعبان قريباً من البغل توقف لحظة ثم لكزه بيده لكزة قوية أخذ البغل بعدها يدور . وعاد الماء يسيل في الجابية .

طالعهم وجه أم حسان وقد هده السهر وكساه حزن عميق ، وبدت آثار السهر والحزن في قتامة البشرة السمراء وبروز الأخاديد فيها ، وفي الصفرة التي شابت تلك البشرة ، وفي الدائرتين الزرقاوين المائلتين إلى السواد اللتين حلتا أسفل العينين ، وفي انكسار نظرتها وهي تستقبل زوارها غير قادرة على إبداء دهشتها من تلك الزيارة غير المتوقعة . وقد استقبلتهم بهدوء أرغمها عليه التعب ، وسارت أمامهم إلى الحجرة التي يرقد فيها

الشيخ ، وقالت قبل أن يستفهموا :

- طول الليل ظل يهلوس ، وقبل شويّة غفي .

فتساءل شعبان موجهاً الحديث لأم حسان :

- ما اجاش الممرض؟

- حقا آه ، أجا قبل شويّة ، كشف على الجرح وأعطاه الإبرة وروّح ، قال إنو عليه شغل كثير ولولا معزّة الشيخ كان ما اجاش .

وتساءل الحاج كأنما ليطمئنها :

- مش برضه طَمّنك على حالة الشيخ؟

وعقب المختار :

- الله يعافيه .

فتفحصتهم المرأة بنظرة غير ودودة ، وظلت صامتة .

فقال الحاج :

- وكلي أمرك لألله ، كل شيء في إيده .

ودب في حركاتها نشاط مفاجئ ، وانطلقت كلماتها تعكس ذلك النشاط :

- إيش عمل الشيخ حتى الله يعمل فيه هيك ، السخونة قاعدة توكله ، وانتو بتتفرجوا ، ليش ، البلاد خِلْيَتْ من حكيم؟!

فأطرق المختار ، ونحى الحاج نظره عنها ، وقال شعبان ، محاولا بدوره تطمينها :

- أبو جهاد وعد ، والزلمة مش مقصّر .

فقالت وفي عينيها بريق جرأة لم يألفوه :

- أبو جهاد على العين والراس ، زلمة شهم ، وفضله علينا ، عمل اللي قدر عليه ، بس قريتنا فيها زلام ، كل واحد شايل شارب بيخوّف ، إيش

عملوا لليوم ، مستنيين أبو جهاد! ليش؟ محدّش قادر يدفع قرشين ويجيب حكيم من تحت الأرض؟

قال المختار وقد أحس بأنها تخزه بهذا الكلام :

- كل شيء بهون عشان الشيخ ، بس انت شايفة ، هجمت علينا البلاوي مرّة وحدة ، ونسينا .

وكأنما فثأت كلمات المختار هماً كانت المرأة تكبته ، فاندفعت تقول :

- بس انت ما استنيتش ع البير ، يا مختار ، يا حبيب أبو حسان!

قال الحاج محاولاً تهدئتها :

- مسألة البير دبّرناها ، المتطوعين كثار ، من هالناحية متحمليش هم .

وقال المختار بلهجة من يقرر أمراً خطيراً :

- أنا من جهتي حاضر إذا قبل شعبان يروح على أي بلد ليجيب حكيم ، وأنا بدفع اللازم من كيسي . لو كانت أجرة الحكيم حق عجل بدفعها .

أحاطت نظراتهم شعبان ، فصمت برهة ، كان خلالها يفكر ، لن يكون لديه على الأغلب وقت من أجل البحث عن طبيب ، إذ إن عليه أن ينقل المجاهدين إلى المعسكر ، لكنه لم يشأ أن يسيء لمشاعر المرأة ، وتوجه بحديثه للمختار ، متجنباً النظر إليها :

- خلّينا نخلّص الشغلة اللي اجينا عشانها ، وبعدين بنشوف ، إذا ظل وقت بندوّرع حكيم .

اكتست سحنة المختار مزيداً من الجدية ، وعدل جلسته ، وحك رأسه من فوق الحطة :

- كل ما شفتكوا بتغلطوا قلبي بيوجعني ، أظن إنكو مفكّرين إنو وليد أبو حامد بدّوش يشترك في العمليّة اللي حكي عنها أبو جهاد ، وأظن إنو خبّا

عليكو ومقلكوش إنو مبارح في الليل أجا عندي وحكينا سوا راس لراس . أنا مقلتش إشي غلط ، قلت اللي لازم ينقال ، قلت : لازم نخبّر القيادة ونستنّا أوامرها ، ويشهد الله إنه سكت ، لأني قلت الدغري ، عشان هيك صبّح من الصبح جايلكو من غير ما يقول لي ، فكره إنه يلعب في عقولكو .

كان الرجلان ينظران إليه صامتين ، واعتقد هو أن كلامه يقنعهما ، فخطا خطوة أخرى :

- . . . أبو جهاد بيتدّخل في شغلنا أكثر من اللزوم ، مية مرة نبهت عليه ، مردّش ، ليش ، لأنو ملاقي ناس زيكو بيسمعوا كلامه ، بدو يركب ع الكل ، وانتو مطاوعينه . . .

فقاطعه الحاج :

- حلمك علينا ، هذا كلّه حكي ملوش لزوم ، أنا بقول أبو جهاد واحد منا وفينا ، وبقول في قفاك زي ما بقول في وجهك ، ما حدش بدو زعلك ، بس انت اللي بتزعّل حالك لحالك ، إحنا بدنا ياك معنا ، يعلم الله .

قال المختار :

- أنا معكو ، ع الخير والشر ، انت يا حاج عارف أكثر من غيرك ، طول عمري هيك ، وبظل هيك .

وتساءل شعبان وهو يواجه المختار بنظرة هادئة :

- بدنا الحكي المفيد ، عمليّة لازم تصير ، بتروح ولا لأ؟

- مش أحسن نستنّا أوامر القيادة؟

- القيادة بدها العملية .

- محدش قال لي!

وتدخل الحاج :

- إحنا درينا اليوم ، من أبو جهاد ، والزلة مخبّاش علينا ، قال لنا زيّ

ما قال لك شعبان : القيادة بدها العمليّة ، ووكّلت الشغلة لأبو جهاد ، زي ما تقول بدّو يكون هو القايد .

فهتف المختار محتداً :

- هَيْ هَيْ! هو القايد . أنا حزرت ، هذا هو اللي بيدوّر عليه أبو جهاد ، هو القايد ، وإحنا إيش؟ غنم!

قال شعبان متذرعاً بالصبر :

- بدنا الحكي المفيد ، الناس مستنية لتعرف على إيش اتفقنا ، إيش بدّك تقول لهم؟

- علّمني إيش أقول ، هذا اللي ناقص!

وظل شعبان يتذرع بالصبر :

- لا سمح الله ، ما حدّش في باله يعمل معلم إلك ، بس الشغلة مستعجلة ، واللي عليك عليك .

وأكمل الحاج :

- بخبّيش عليك ، إحنا رايحين ع الكمب .

تحركت يد المختار ليحكّ رأسه ، ويبدو أن وجود الحطة قد ضايقه فانتزعها عن راسه ، وانتزع معها العقال ، وقد شغلته هذه الحركة فلم يرفع يده إلى رأسه ثانية . وكانت أم حسان التي غادرت الحجرة بينما كانوا يتجادلون قد عادت في تلك اللحظة وقالت بغير حماس :

- الشاي على النار .

فالتفت المختار ناحيتها ، ثم عاد يتفرس في جليسيه .

- بَروح ، بس بشرط .

وظل الجميع صامتين ، فأكمل :

- . . . كل قرية وإلها قايد ، ما حدش بيتدخّل في شغل حدا .

وهمّ شعبان بأن يقول شيئاً فاستوقفه الحاج بحركة من يده . ونظر الحاج إلى المختار مواجهة :

- المهم إنّا نروح . . .

- على هالشرط ، بروح!

فنهض الحاج ، وأوقفت حركته شعبان عن قول ما همّ ثانية بقوله . ونهض المختار ، فهتفت أم حسان : الشاي . فقال المختار :

- شايكو مشروب ، ورانا شغل ، ومستعجلين .

ثم كمن تنبه لشيء كان قد نسيه :

- . . . روح يا شعبان ع «**المجدل**» ، وما ترجعش إلاّ ومعك حكيم ، ادفع له اللي بدّو ياه .

وقد ظهر ارتياح واضح على قسمات وجه المرأة . وحين تهيأوا لمغادرة الحجرة ، استوقفت هي شعبان وأسرت له :

- امبارح زارتني زكية ، أجت في الليل هي وامها .

فارتبك شعبان ، وظهر ارتباكه جلياً على وجهه ، إلا أن المرأة ، منساقةً برغبتها في إبهاجه ، لم تلحظ ذلك ، وأكملت كأنها ترشوه :

- هواها عندك ، وامها قابلة . . .

فقاطعها شعبان :

- صحة الشيخ أهم من كل شيء ، الله يعافيه .

وغادر الحجرة مسرعاً ، ولحق بالرجلين . وعادوا جميعاً إلى البئر . كان المختار قد استعاد خطواته النشيطة ، وقد تركه شعبان والحاج يسبقهما إلى الحلقة ، وتلكأ شعبان قليلاً قرب البغل ، يراقب حركاته ، وهناك وافاه أبو جهاد فتبادل الرجلان حديثاً قصيراً ، ثم ركب أبو جهاد فرسه ، بينما ظل المختار يتوسط حلقة المجاهدين ويتحدث إليهم .

١٢

ترك حسان جمع الأولاد الذين التقوا للعب في ساحة القرية ، وعاد إلى دارهم . كانت الشمس قد زايلت منتصف السماء ومالت إلى الغرب ، وصار الحر لاهباً فأحس به حسان يكوي قدميه الحافيتين ويشوي رأسه . وكان هو حزيناً لا يعرف كيف يعبر عن حزنه ، وقد داخله إحساس غامض بأنه المسؤول عما وقع لأبيه ، فقد سرق وغشّ في يوم واحد ، وراح الشعور بالذنب يدهمه بين وقت وآخر ، فينقبض قلبه وتسودّ الدنيا في عينيه . وقد تهيأ له أن الله عاقبه بإصابة أبيه . وقرر بينه وبين نفسه أن يعترف أمام أبيه بما جنت يداه ، ويستسمحه ، ثم عدل عن قراره متهيباً في واقع الأمر ، ومتذرعاً بحالة أبيه .

وقد حدثني هو نفسه عن مشاعره في ذلك اليوم ، وكان قد صار شاباً ، وقال إنه حين ترك جمع الأولاد ذاك ، قاطعاً لعبه معهم ، كان قد اعتزم أن يعترف لأبيه ، وإنه حين بلغ الدار وجد أمه جالسة أمامه فبادرته بالقول إن شعبان لم يعد ، وكانت قلقة وحزينة كما لم يرها من قبل ، وقد سألها هو :

- أبوي نايم؟

- النوم بريحه .

فجلس بجانبها ، وصمت .

قالت الأم مشتكية :

- محدش زارنا ، كلهم مشغولين .

فحرك قول الأم رغبة حسان الكامنة في التهرب من الهم الذي يشغله ، وانطلق لسانه يحدثها :

- بحضروا في حالهم ، بدهم يروحوا ع الكمب ، لو شفت المختار ، لبس بدلة خضرا ، لونها زي الحشيش ، أول مرة بشوفه فيها ، ومعه برودة جديدة طخ . بتلمع لمع ، وفي وسطه فرد ، واتجند بحزامين فشك ، من هالجنب ومن هالجنب ، وعلق في رقبته ناظور ، قد ناظور أبو جهاد وأكبر ، ابنه قال لنا إنه لف على دور المجاهدين ، واحد واحد ، ولما جيت كان جامعهم وبيحكي معهم ، بيقولهم . . .

قالت أمه مقاطعة :

- هالحين صار أبو خالد زلمة ، يا حسرة ع الشيخ ، ارتمى في عزها .

- أبوي أجدع من المختار . كل الأولاد بيقولوا هيك ، وامبارح عمي جواد ، نسيت أقولك ، حكى لي إنه المختار مبسوط لأنه أبوي تصاوب .

قالت وفي عينيها بريق حماس لمع وسط الحزن الذي يلفّ وجهها :

- أبوك زينة الزلام ، قول : الله ينجّيه!

وتناهى إليها صوت واهن فهتفت وهي تنهض :

- أبوك صحي .

وقفز هو فرحاً ، وركض يسبقها إلى الحجرة . وقد استقبل الشيخ ابنه بنظرة يفيض منها الحنان فيضا ، ودعاه بإشارة واضحة من يده ليجلس

قربه . كانت صحوة الشيخ تامة على الرغم من ضعفه ، بل إن ظلال ابتسامة قد أضاءت وجهه وبعثت الارتياح في نفس حسان . وتساءل الشيخ :

- رجعت من المدرسة . . .

- المدرسة عطّلت .

وأكملت أم حسان محاولة أن تدخل نفسها في دائرة اهتمام الشيخ :

- من يومين . . .

قال الشيخ :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

وزفر زفرة مديدة ، ثم مسد رأس حسان بيده ، بحركات حادبة بعثت في نفس حسان أحاسيس متشابكة . وأطرق الولد فجأة وقال بصوت جعله التردد مبحوحاً :

- بدي أقول لك حاجة يا با .

وقد حاول الشيخ أن يدنيه إليه ويشدّه بيده ، لكن الألم وخز الرجل الجريح فأنّ ، بينما ظل حسان يتململ .

- . . . أنا سرقت ، خشّيت البيارة ، وسرقت .

ابتسم الشيخ بكل قسمات وجهه . وقالت أم حسان وقد شجعتها ابتسامته :

- لعب اولاد .

وسأله الشيخ من غير أن تفارقه الابتسامة الحنونة :

- اندمت؟

وقد تشجع حسان حين رأى أن أباه لم يغضب ، وواصل اعترافه :

- واعملت إشي ثاني . . .

وانطلق يقصّ عليه ما فعله مع رفيقيه، عند محطة الباص. وبينما كان الشيخ يصغي إلى حديث ابنه نجح في جذبه إليه، وقبله في جبينه. إلا أن حسان ظل مشغول الفكر، ونظر إلى أبيه نظرة حائرة وسأله بجدية لا تتناسب مع سنه:

- انت مش زعلان علي يا با؟

وقد أثرت جدية الولد في الشيخ فأجاب هذا، متصنعاً الجد من جانبه تصنعاً:

- إذا وعدتني ما تعيدهاش، بدعي لألله يسامحك.

فأكبّ حسان بحركة مفاجئة على يد أبيه يقبلها، ثم رفع جسده وعانق الشيخ، وانسكبت من عينيه دموع بلّلت لحية الشيخ الذي تماسك ليحبس نفسه عن الأنين. واحتمل الموجوع الآلام التي بعثتها حركة الصغير. وتقدمت أم حسان فرفعت الولد برفق عن صدر أبيه. واستجاب هو لحركتها، ثم وقف إزاء الجسد الممدد ينظر إليه بارتياح وقد توقفت دموعه، وهتف بحماس:

- لازم الله يشفيك، وتصير قائد المجاهدين!

- وانت لما تكبر لازم تصير مجاهد.

ثم قال حسان وقد نسي كل ما كان يشغله قبل ذلك:

- اسمع يا با، بدي أطلب منك، يعني لو كان معاكو، قول لأمي تعطيني خمس قروش.

قالت الأم مندهشة، وهي تنظر ناحية الشيخ نظرة تشي بعدم موافقتها:

- خمس قروش، مرّة واحدة!

فسأل الشيخ متأنياً، متيحاً لحسان الفرصة ليقنع أمه:

- ليش بدّك ياها؟

- الولاد عملوا فصيل ، يعني هيك للعب ، وبدي اشتري فرد وفلّين ، حقهم بعد ما غلي السعر خمس قروش .

نظر الشيخ إلى زوجته نظرة تحثها على الموافقة ، ولكنها أجابت معاندة :

- معيش مصاري .

فقال الشيخ بلهجة غير آمرة :

- أعطيه إشي يبيعه ، أعطيه البيضات .

- البيضات لأ .

ثم أكملت ، وكان فرحها قد أصبح كاملاً بصحوة الشيخ ، وكأنما نسيت مصابه ، بلهجة مستبشرة بعودة صحته إليه :

- لازمك أكل ، أنت أبدى فيهم .

فحاصرها حسان بنظراته المتوسلة ، مستفيداً من موافقة أبيه ، وأخذ ينط بين يديها ويكرر : «الله يخليك يامّه» . فنهضت أخيراً وهي تقول للشيخ :

- بعطيه شويّة ذرة ، أمري لألله ، خمس قروش عشان اللعب!

قالت ذلك وخرجت ، فانحنى حسان مستعجلاً على يد أبيه وقبلها ، ثم خرج وراء أمّه .

أطلق حسان ساقيه تتسابقان نحو دكان أبي زكريا . وكان وهو يجري يتحسس صرة الذرة ، متشككاً فيما إذا كانت كافية لشراء ما يريد . وبلغ الدكان وهو يلهث . وكان أبو زكريا متغيباً وما من أحد في الدكان . فنادى حسان بأعلى صوته متلهفاً ، وأطلّت زوجة الرجل وأنبأته أن زوجها موجود في ساحة القرية يتفرج على المجاهدين . ورجاها هو أن تبيعه فاعتذرت ،

وقالت له : «اترك الصرة وتعال عندما يرجع»! ، فتردد ثم احتفظ بصرّته ، وتابع الجري نحو الساحة .

كان مجاهدو القرية قد احتشدوا هناك ، وقد حملوا البنادق وأحزمة الذخيرة ، وتخيّر كل واحد منهم من الملابس ما يجعله أقرب إلى الهيئة العسكرية ، فتشكل من ذلك خليط عجيب من الأزياء ، خصوصاً أن منهم من أعوزهم الحصول على بناطيل فاحتفظوا بقنابيزهم بعد أن رفعوا أذيالها وشدّوها على خصورهم ، فبانت تحتها سراويلهم القروية البيضاء . وقد احتشد مع هؤلاء وحولهم الرجال الذين لم يجدوا بنادق ، والشيوخ الذين لم يعتزموا أصلاً الذهاب إلى المعركة ، والنساء المشغولات بهموم الرجال ، والأولاد الذين أهاجهم أول مشهد من نوعه يرونه . وتميزت وسط هذا الحشد حلقةُ المختار ، وقف هو وواحد من أولاده وسطها بزيّه الحشيشي ، ووقف الحاج عبدالعزيز بجانبه . وكان اللغط على أشده في ذلك الحشد ، وكانت تحركات الأولاد الناشطة قد حولت الموقف كلّه إلى وضع يشبه الأعراس في ذروة الاحتفال .

إنكم تدركون ، بغير شك ، أن حسان لم ينشغل بما رأى . فقد لاب وسط الحشد ليبحث عن أبي زكريا الدكنجي بعينيه ويسأل عنه الأولاد وقد بلغت لهفته ذروتها . ووقع بصره على الرجل واقفاً في الحلقة التي يتوسطها المختار ، وقد تهيب في البداية الاقتراب منها ، ووقف جامد الحركة وعيناه مسلطتان على الدكنجي ، حتى لحظه المختار نفسه ، فناداه باسمه ، وسأله بصوت مرتفع عن حال أبيه ، وأجاب حسان وهو شارد الذهن ، وتنبه رجل كان يقف في الحلقة بغير سلاح وهتف :

- فرجت! بوخذ البارودة اللي عند الشيخ .

قال المختار :

- جبتـها! الشيخ مش رايح يبخل فيها في يوم زي هاليوم ، روح له ، وقل له المختار بترجّاك .

فاستدار الرجل وغادر الحلقة ، ثم هتف المختار :

- استنّى ، الأحسن آجي معك ، بطّمن ع صحة الشيخ ، وبودعه ، يا عالِم!

قال المختار ذلك وتبع الملهوف على البندقية بخطوات واسعة . وأخذت الحلقة تتفرق . فأمسك حسان بحزام الدكنجي من ظهره :

- بدّي فرد ، معي ذرة .

قال أبو زكريا ، وهو يلتفت نصف التفاتة ويتفلّت من حسان :

- مش شايفني مشغول! تعال لي بعدما يروحوا .

وتشبث حسان به وقال بلهجة متوسلة :

- الله يخلّيك ، الاولاد كلهم معهم فرود .

- بقول لك مشغول ، تعال لي بعدين!

قال الدكنجي ذلك وتحرك . فكرر حسان توسله وظل متشبثاً بحزام الرجل ، يتجرجر وراءه . وكان الأولاد قد تحلقوا حولهما خلال تلك المحاورة ، وأخذوا يحثون أبا زكريا على الاستجابة لرغبة حسان .

حصل حسان على المسدس المصنوع من التنك المدهون ، وعلى علبة كاملة من الفلين المحشو بالمادة المتفجرة . وساعد الأولاد رفيقهم فشد المسدس التنكي على جانب وسطه بخيط من المطاط قدموه له ، وشدّ علبة الفلين على الجانب الآخر . وكانت محاورة حسان مع الدكنجي وغياب المختار قد قلصا اهتمام الأولاد بشؤون الكبار وذكّراهم بشؤونهم هم ، فانصرف هؤلاء إلى اللعب الذي كانوا قد حضروا أنفسهم له . ونشطت حركتهم . وتقدم عبدالواحد رفيق حسان ، الذي كان قد فرض نفسه قائداً

لفصيل الأولاد ، نحو الطرف الخالي من الساحة ، وتبعه الأولاد كلهم ، فانتقى منهم الذين يحملون مسدسات ، وأبعد الآخرين ، ووزعهم على صفّين متوازيين ، وهو يعلمهم كيف يصطفون كما يفعلون في المدرسة . وانتظم الصفّان ، وامتدا حتى زحما المحتشدين في الساحة من الكبار ، فأفسح هؤلاء لهم مكاناً كافياً ، وقد بدأوا يتنبهون لما يفعله الأولاد ويلاحقون حركاتهم بالتعليقات المرحة .

صرخ عبدالواحد بمهابة : استرح! وخبطت الأقدام المنفرجة الأرض بقوة طفولية ، وسُمع لخبطتها صوتٌ تبعته موجةُ رقيقة من الغبار ، وتلاها : استعد! وتكررت العملية . وقد حلا لعزمي الدحدول أن ينضم إليهم ، وكان مما أعوزهم الحصول على بنطال ، وقد برزت إليتاه السمينتان تحت قمبازه المربوط ، ووقف إزاءهم وبندقيته مشدودة على كتفه . وعلق رجل :

- زيّك زيهم!

فردّ عزمي الدحدول وهو يعني ما يقول :

- بالله العظيم هم أحسن منا ، وأنظم .

ثم قام بحركة استعداد مبالغ بها ، لوحده ، فانفجرت ضحكة جماعية من الحشد . وجرى هو ضاحكاً ، مبتعداً عن فصيل الأولاد . وقطب عبدالواحد جبينه تحت شعره المغبر المنفوش وصرخ : استعد! وعلق رجل : بدري على الهم . فنظر إليه عبدالواحد نظرة معتدّة وهتف : إلى اليمين در . متعمداً أن يدير الأولاد ظهورهم إلى الحشد . وتكررت إيعازات عبدالواحد . بينما كان يدور حول فصيله ، حتى اطمأن إلى حسن النظام ، فأدارهم ليقابلوا الحشد ، ثم دعاهم ليرددوا نشيد : يا علمي يا علم .

وانبعث صوت الأولاد ، بينما أخذ اللغط يخفت شيئاً فشيئاً ، والجدية تحل محل السخرية :

- «يا علم العرب اشرق واخفق!

في الأفق الأزرق . . .»

وصمت الحشد صمتاً تاماً ، بينما امتد النشيد بلحنه الذي يختلط فيه حزن عميق بحماس آسر :

- «يا نشيج الأمهات ،

في الليالي الحالكات!

كلنا نفديك . . .»

وتحمس رجل فرفع بندقيته وأطلق طلقة . وصرخ آخر بغير تشدد : وفروا الذخيرة!

- «كل خيط فيك ،

من دماء الشهداء ،

من دموع الأبرياء» .

وأطلق الحماس زغرودة امرأة . واتجهت أخرى نحو ابنها الواقف في الصف واحتضنته ، وظهر الحرج على الصغير ، لكنها لم تلحظ ذلك ، وظل هو ينشد متفلتا من ذراعيها بغير فائدة ، حتى انتهى النشيد وصرخ عبدالواحد ، وقد صار سيد الموقف : استرح! ثم تقدم وأبعد المرأة ، ورجع إلى مكانه ، وصرخ بصرامة : استعد! وأطلقت المرأة التي احتضنت ولدها زغرودة مرنانة طويلة ، وتبعتها رغاريد نساء أخريات .

سرت همهمة وسط الحشد : رجع شعبان . وانطلق الأولاد يجرون نحو الشاحنة ، وحين اتضح أنها تتجه نحو دار الشيخ تقدم حسان الجميع ودخل الدار وراء شعبان . لم يقبل أي طبيب أن يجيء مع شعبان ، قالوا إن العودة في الليل غير مأمونة . كان الجميع يصغون لشعبان : ذهب لقائد المجاهدين ، وشرح له حالة الشيخ ، وطلب مساعدته ، فأخذه الرجل إلى

المستشفى الذي كان غاصاً بمن فيه . فأفهمه مدير المستشفى أنهم يفتقرون للأطباء وأنه لا يستغني عن أي واحد من الموجودين ، حتى خجل شعبان من الإلحاح عليه ، وقد سأله المدير : لماذا لا تحضرون جريحكم إلينا؟ فأفهمه شعبان أنه في حالة خطرة ، وكان ردّ المدير : مجيئه أفضل من بقائه عندكم بغير علاج .

وتساءل حسان متوجساً :

- بدكو توخذو أبوي ع المستشفى؟

فتدخلت الأم :

- مش ممكن نرميه هناك .

قال المختار زاجرا ، وقد جعله وضعه ، وهو الذي صار مجاهداً ، أكثر جسارة :

- اسكتي يا مَرَة!

ثم التفت إلى الشيخ :

- هالحين معيش وقت ، بنفكّر لما نرجع .

وتقدم حسان ، مدفوعاً بحبّه لأبيه ، وجلس على الوسادة عند رأسه وكأنه يحميه . وقال الشيخ : «الخيرة فيما اختاره الله» .

غادر الرجال الدار . وبقي حسان مع أبيه وكل همه أن يريه المسدس الجديد ، وقد رآه الشيخ ، وفرح به وفرح لفرحه ، ووضع يده على رأسه ، وقرأ آية الكرسي بصوت خفيض ، وحسان صامت . ثم قال الشيخ بصوت مرتفع : «حماك الله ، صرت مجاهداً»؟ فنهض حسان مزهواً ووقف إزاء أبيه وشد قامته والشيخ يبتسم هانئا ، ثم غادر الدار مفعماً برغبة أقوى في العودة إلى الفصيل . وحين أقبل على الساحة ، كان الأولاد في ذروة حَماسهم للعبث ، فانهمك معهم بكليته ، يدور معهم حين يدورون ،

وينشد بأعلى صوته حين ينشدون . وكان أهل القرية كلهم قد صاروا في الساحة . ونادى المختار بصوت مرتفع : حان الوقت . وردّد ذلك وراءه آخرون . وفهم الجميع أنها ساعة الرحيل . فتوقف الأولاد عن اللعب . وأخذ الراحلون يودعون أقرباءهم . وأقبل الرجل الذي استعار البندقية التي كانت عند الشيخ نحو حسان وقبله صامتاً ، قبلة حمّلها كل امتنانه للشيخ . وشغل شعبان محرك الشاحنة ، فهدر صوته . وبدأ المجاهدون يصعدون إلى الصندوق . واتجه المختار ليأخذ مكانه في حجرة السائق ، واشتد اللغط حول الشاحنة ، حتى صار ضجيجاً لا تبين وسطه الأقوال .

وفجأة ، ظهر جواد بجانب الشاحنة ، ظهر في اللحظة التي كان المختار يهمّ فيها بالصعود إلى مقعده ، وقد تجهم وجه المختار إلا أنه صعد وجلس صامتاً . أما جواد فقد اتجه ناحية شعبان ، ودار حسان حول الشاحنة ليراه ويريه مسدسه ، فلم ينتبه إليه جواد بل راح يحدث شعبان بصوت مرتفع :

– حب أبو جهاد يبعثني مع مجاهدي «الخيام» قلت لحالي : ليش؟ بروح مع أهل قريتنا أحسن! .

– مرحباً بك .

فألقى جواد نظرة متعمدة ناحية المختار ، وقال بلهجة حملها المغزى الذي يقصده :

– في المعركة بنشوف ، مين الجدع ومين اللي بيخاف .

ونادى صوت من الصندوق :

– اطلع يا جواد ، بلاش كثر حكي! تأخرنا .

فتلكأ جواد ، وهمّ بأن يضيف شيئاً ، غير أن نظرة حازمة من شعبان أسكتته ، فاستدار لكي يذهب إلى الصندوق ، وهنا وقع نظره على حسان الواقف قريباً منه ، فاحتضنه ورفعه بيديه ، وقبله :

- سلّم على أبوك ، سيد الزلام كلهم .

وكانت بارعة ترقبه منذ وصل ، مترددة ، تدفعها عاطفتها نحوه ، ويمسكها الحياء والمغاضبة ، ثم اقتربت منه وهو يرفع حسان ، وقالت وهي تنظر إليه :

- تروحوا وترجعوا بالسلامة!

فأزورّ جواد عنها ولم يرد . وقال الرجل الذي استحثه قبل قليل :

- متخافيش ، بيرجع ، عُمْر الشقي باقي .

ثم انتهره بمرح :

- اطلع ، بلاش دلع!

وقال آخر ، مقلداً لهجة بارعة :

- ترجعوا بالسلامة!

فضحك رجال الصندوق ، وصعد جواد إليهم فجأة وزاحمهم حتى أمسك بخشب جدار الصندوق . وقال يخاطب بارعة بلهجة مبالغ في قسوتها :

- أنا زعلان منك ، بوظتي العملية .

وهنا تكلم أبو جواد الذي ظل صامتاً حتى تلك اللحظة :

- مع السلامة يابني ، دير بالك ع حالك ، بلاش طيش!

وردّ جواد :

- ارفع راسك يابا ، بكرا بيشوفو مين أنا .

وكانت بارعة قد اقتربت ، ووقفت وراء حسان ووضعت يدها على كتفيه من غير أن تتعمد ذلك . وكان حسان مشغولا بما جرى حوله ، فلم يتهرب منها . وقد تحركت الشاحنة ، وهي تئز بصوت مجلجل . فسحبت بارعة حسان بحركة آلية مبتعدة به عن الشاحنة ، فتملص حسان من بين

يديها ، وابتعد عنها وأخذ يلوح بيده مع الملوحين ، مودعاً الشاحنة . وقد استولى على حسان إحساس غامض بالكآبة ، كان الولد يتمنى ان يكون أبوه مع المجاهدين ، وقد أزعجه أنه لن يجد ما يباهي به الأولاد . وفقد حسان حماسه للعب بعد أن ذهبت الشاحنة . وحين نشط عبدالواحد محاولا تجميع فصيله من جديد ، قال حسان : «سأذهب لأرى أبي» ، لكنه لم يذهب على الفور ، بل ظل يرقب الحشد بعيون ساهمة وهو يتفرق ، ثم تحرك ببطء متجهاً نحو دارهم ، واستوقفته بارعة .

- كيف حال أبوك؟

- كويّس .

قالها باقتضاب ، وابتعد عن المرأة التي اعتاد أن يحذرها ، وسمع خطواتها تتبعه :

- والوالدة؟

- كويسة .

وصارت هي بجانبه ، فلم يلتفت إليها بل سمعها تقول :

- رايحة معك ، أطّمّن على الشيخ .

فلم يدر بماذا يجيب ، كان لا يستطيع أن يرفض ، وكان يخشى غضب أبيه وهو يتصور أنه لا يرحب بها . فظل مطرقاً وهي تسير بجانبه . ودخلت بارعة الدار . وقد توقع حسان أن تتجهم أمه لمرآها ، إلا أنه فوجىء بالمرأتين تتبادلان القبل ، ثم تغرقان في الحديث .

١٣

ينبسط معسكر «وادي الصرار» فوق بقعة من سهل فسيح . وتتوزع على جانبي المعسكر الشرقي والغربي ، غير بعيد منهما ، تباب عدة تتفاوت ارتفاعاتها ، لكنها لا ترتفع كثيراً ، وكأنها علامات وضعت خصيصاً لتدل على وجوده . ويحيط بالمعسكر سياج من الأسلاك الشائكة التي شُدّت بإحكام إلى عوارض حديدية وامتدت نحو الأرض على الطريقة العسكرية ، حيث شدتها أوتاد هي الأخرى حديدية . وقد توقفت الشاحنة وراء واحدة من تلك التباب ، هي التبّة المخصصة لمجاهدي القرية ، وهي تبّة تشرف على الجانب الشرقي للمعسكر . وهبط المجاهدون من الشاحنة ، وحملوا أشياءهم ، وأخذوا يصعدون متجهين إلى قمة التبّة المحدودبة ، يتقدمهم المختار بخطوات ناشطة وهو يبالغ في التمعن في الوضع الذي سيقيمون فيه ، يفعل ذلك بطريقة القادة ، كما هيأ له ذهنه ، ويوزع التعليمات متدخلاً في كل كبيرة وصغيرة .

كانت معالم المعسكر تظهر أمامهم كما تحددها الأضواء الكهربائية التي توزعت ساحته . ولم يكن مسموعاً وسط ذلك الهدوء غير الصوت

المتواتر برتابة للمحرك الكهربائي الموجود في مكان ما في المعسكر .

وقد دبر كل رجل لنفسه مكاناً على التبّة . وأظنكم تدركون أن الأمر لم يكلفهم عناء كبيراً . فقد ألف الفلاحون أن يبيتوا في الحقول في مواسم العمل الكثير ، يفترشون أي شيء ، ويلتحفون بأي شيء ، أو يتمددون بلا فراش ولا لحاف ، ولذا فإن الأمر لم يكن جديداً بالنسبة لهم . المختار بدا ، وحده ، غير مستريح للوضع ، فهو لم يجلب شيئاً ينام عليه ، وقد أنجده شعبان بفروة اعتاد أن يحتفظ بها في الشاحنة ، مراعياً سنه قبل أي شيء آخر . وأظهر المختار امتناناً حقيقياً ، وربت على كتف شعبان بمودة ، ووضع الفروة بعناية في المكان الذي اختاره لينام فيه ، وجلس فوقها . وتحلق حول المختار عدد من الرجال ممن لا يدرون ماذا يفعلون ، بينما انتشرت حلقات صغيرة هنا وهناك على الجانب من التبّة الذي لا يواجه المعسكر . وكان المختار نفسه لا يدري ما الذي يتوجب عليه أن يفعله بعد أن اختار المجاهدون مضاجعهم ، وكان في دخيلة نفسه يتعجل وصول أبي جهاد .

وفطن المختار وهو ساهم إلى شيء هام نسي أن يتدبره ، وهو الطعام ، وتساءل : ماذا سيأكلون في هذا الخلاء ، ولام نفسه على النسيان ، وأدرك أن المجاهدين سيفطنون إلى ما فطن إليه وسيطلبون منه أن يتدبر الأمر ، ولكنه عاجز .

كانت الأحاديث قد أخذت مجراها وسط الحلقات ، أحاديث عادية دارت حول أي شيء إلا المعركة . كان بعضها يدور همساً ، وبعضها صاخباً . ولم يخل الأمر من ضحكة تنطلق وسط السكون . وأحس المختار بأن عليه أن يفعل شيئاً فدعا الرجال إلى الصلاة . فقال الحاج عبدالعزيز الذي كان يجلس في حلقة المختار :

- فيش ميّ للوضوء!

فقال المختار متفصحناً ، الأمر الذي جعله يحس بتميزه :

- إذا لم تجدوا الماء فتيمموا ، هيك أمر سبحانه وتعالى .

ثم تذكر بعد أن قال ذلك القول أنه لا يعرف كيف يتيمم . وتوقع أن يسألوه عن التيمم ، لكنهم لم يفعلوا ، وأراد أن يبدل مجرى الحديث ، فلم يجد ما يقوله . كان الرجل جائعاً ، وكان عاجزاً ، وكان في موقف يواجه مثله لأول مرة . وتشاغل بالإصغاء لصوت المحرك . وكان الظلام قد أمسى مطبقاً بحيث صار من الممكن ملاحظة بصيص السجائر التي يدخنها المجاهدون ، وكأنه بصيص جمرات متقدة . وأخيراً ، غض المختار النظر عن إحساسه بمنزلته ، وتساءل بصوت مرتفع :

- شعبان ، نسينا نجيب أكل ، كيف بدنا ندبّرها؟

وهتف عزمي الدحدول من حلقة لا تبين ، وكأنما كان ينتظر إشارة :

- حقا يا مختار ، إحنا جعانين ، وملناش صبر على الجوع .

وعلق رجل :

- كل واحد يحكي عن حاله!

وانبعثت ضحكات . قال شعبان :

- اليوم مفيش فايدة ، ليلة وبتمضي ، بكرة بنروح على القرية وبنجيب أكل .

وقال الحاج عبدالعزيز الذي كان ما يزال يفكر بمسألة الصلاة :

- خلينا نصلي من غير وضو ، الله بيسامحنا .

وقال عزمي الدحدول الذي كان مشغولاً بجوعه :

- في قرية قريبة ، حدا يروح ويشحد لنا شوية أكل .

وتتابعت تعليقات الرجال : نشحد أكل لثلاثين زلمة والناس نايمة! - روح انت جيب اللي بدك ياه ! - متشدش عليه بيخاف من العتمة!-

الدحدول لحاله بدو أكل ثلاثين .

وسادت موجة من الضحك قطعها جواد بلهجة غامزة :

- بتضحكوا! مش شايفين اللي انتو فيه ، فصيل بحالة متروك من غير تموين ، إشي بخول!

فتساءل رجل بلهجة مهاجمة :

- ليش ما ذكّرتنا ، ما دامك فهيم هالقد!

- لما جيت ، كان صار بدكو تمشوا ، ما جاش في بالي إنو الأكل مش ع بال حدا .

وكان المختار قد صار مستفزاً واندفع يقول محنقا :

- اسمع يا ولد ، يا بتسكت يا بتتركنا ، بيكفّي!

وقاطعه جواد متحدياً :

- ولد اللي بيعرفش يدبّر الأمور ، يا وليد يا بو حامد ، واحد زيّك بيتركنا!

ورددت أصوات ، تميز بينها صوت الحاج عبدالعزيز :

- لفها يا جواد ، استهدوا بالله يا جماعة!

وقال شعبان :

- هذا مش وقته يا جماعة .

وقال المختار ، مسترسلاً في حنقه :

- فهموا ها الولد ، تحملته كثير ، سكّت صاحبك يا شعبان ، ولا بتكون آخرتها سودة!

ورد جواد ، وكان قد وقف :

- آخرتك سودة من هالحين ، الحق مش عليك ، الحق علّي سلّموك ذقونهم .

ووقف المختار وهو يصرخ :

- وبعدين!؟ وصلت حدودها . . .

فتدخل الحاج بلهجة معاتبة :

- استهد بالله يا مختار ، وانت يا جواد ، إحنا في إيش وانتو في إيش!؟ إيش لزوم الزعل؟

ثم نهض الحاج ، واتجه نحو جواد الذي كان جسده المنتصب يظهر بالكاد وسط الظلام :

- . . . تعال نروح أنا واياك نجيب أكل!

وعلق عزمي الدحدول :

- هذا حكي بيملّي الرأس ، وان شاء الله يملّي المعدة!

وأعقبه صوت :

- هَرَشَك بطنك!؟ بدّك توهرفهم!

وقال جواد متملصاً من قبضة الحاج التي أمسكت بذراعه ، وإن كانت حدة صوته قد خفتت :

- أنا بروحش ، خلّيه يروح هو ، هو القايد ، مش هو اللي طلب يصير قايد فصيل؟ خلّيه يطعم فصيله .

وصرخ رجل لم يتكلم من قبل :

- فكوها ، الدنيا ليل والصوت بيَوّدي ، بالك يسمعونا!

وأثار التدخل جواداً فاحتد :

- مختار هناك علّي بيخافوا منّه ، مش هان .

وكثرت الأصوات التي انتهرت جواد ، فأخذ يتحدث وقد اشتعل حنقه وهو يدور برأسه ليسمعهم جميعاً :

- أنا بحلف إنو مخبّي أكل ، إله لحاله ، اللي زيّه بينساش حاله!

وفلت زمام المختار، فأخذ بدوره يصرخ :

- ولك! يا ابن آمنة، انت وكل الحاضرين بيعرفوا إنه عمري ما أكلت لحالي، داري مفتوحة للكلّ .

- دارك! إحنا بنعــرف مين كــان خــاشش طالع ع دارك، فش إشي مخبا .

- بتندم ع هالكلام، أنا بقول لك!

- بتخوّفني يا بو حامد، صاحبك الكابتن وخلصنا منه، واحنا اليوم مجاهدين وبواريدنا معانا، مش غَنَم زي اللي كانوا يخافوا منّك، طز فيك وفي اللي مخترك!

لا بد من أنكم قد تصورتم أي هرج أحدثته هذه المشاجرة بين جواد وغريمه المختـار . كـان الجميع قد وقفوا الآن بين الرجلين، وقـال كل منهم شيئا يدعو إلى الهدوء وضبط النفس . والحقيقة أن كلاً من الرجلين قد أفرغ ما في نفسه، وصارا بحاجة لمن يتدخل جدياً ويحسم الأمر بينهما .

قال الحاج عبدالعزيز :

- استهدوا بالرحمن، وخلّونا نصلّي ونستغفر ربنا!

وقال رجل لجواد :

- اسكت! الزلمة أكبر من أبوك، وإله احترامه .

وتحـرك ثالث فـأجلس المختـار وهمس لـه بشيء، فـرد المختـار بصوت مسموع!

- هو اللي مش راضي يلايمها .

وأفلت صوت جواد على الرغم من أن يداً كانت قد كمّمت فمه :

- لنشوف آخرتها .

وتدخل شعبان :

- بظن إنه لازم نحطّ حــرس ، ونرتاح الليلة علشــان بكرة نكون مستعدين .

كانوا جاهزين لقبول أي اقتراح يوقف المشاجرة . أما المختار فلم ينتبه لقصد شعبان الفعلي ، فقال ، وفي صوته حدّة :

- بدري على الحرس ، لما بتيجي الفصائل الثانية ، بنشوف .

وعادوا يتوزعون في مجموعات . وصلّى الحاج عبدالعزيز وحده .

وبعد وقت قصير وصل فصيل «الخيام» وعسكر على تبة مجاورة ، وقد أحدث وصوله انفراجاً في الوضع ، إذ إنهم حصلوا على طعام ليلتهم ، وحصلوا على الماء ، والأهم من هذا أنهم لم يبقوا وحيدين . وبوصول أبي جهاد ، دب النشاط ، وزال الإحساس بالضياع الذي كان قد بدأ يسيطر عليهم وهم ممددون في مضاجعهم .

وحين اكتمل وصول الفصائل الأخرى ، أرسل أبو جهاد من يدعوهم لحضور اجتماع لقادة الفصائل . ونقل رسول أبي جهاد إلى التبّة رغبته في أن يحضر المختار وشعبان كلاهما ، الأمر الذي أزعج المختار ولكنه كتم انزعاجه . وبحث الرسول عن جواد ، وهمس له بأن أبا جهاد يطلبه . وكأنما كان جواد ينتظر مثل تلك الدعوة ، فقد انسل من بين المجاهدين وابتلعه الظلام . أما المختار فقد كان متعباً وكان ذهنه منهكاً ، وكان ، بعد أن أكل ، قد أحس ثقلاً في جسده ، فاضطجع مسنداً كوعه إلى الفروة ، وقرصه البرد على الرغم من أن الجو لم يكن بارداً ، ففرد الفروة ، وتمدد داخلها ، وطلب من شعبان أن يذهب وحده إلى الاجتماع . وتذكر الرجل وهو ممدد مضجعه المريح في داره ، ومضافته العامرة بالزوار ، والطعام الذي تعدّه زوجة خبرت مزاجه ، وقارن بين ضعفه هنا وبين عزّه في داره . عندما استفزه جواد في الصباح ، كان قادراً على أن يطرده كما يطرد كلباً ، كان

في داره ، أما هنا فإنه يشعر بوضوح شعور من وضع في غير مكانه ، وقد تجرأ جواد عليه وحاوره هذا الولد محاورة الند للند ، والأنكى من هذا أن شتائم جواد له قد مرت من غير أن يغضب الفلاحون . واستعاد في ذهنه ما قاله جواد ، أين ذهبت مهابته ، وكيف أمكن أن يعبث بها ولد مثل جواد ، بينما يرتعد أبوه خوفاً حين يقف في حضرة المختار . وانبثق في ذهنه خاطر مزعج : لماذا ذهب جواد إلى التبة المجاورة؟ هل سيحضر اجتماع قادة الفصائل؟ هل يمكن أن يعملها أبو جهاد؟ ألم يدع شعبان؟ وشعبان في آخر الأمر مثل جواد . وحاور نفسه : أبو جهاد ليس ولداً ، وهو يعرف أن جواد لا يصلح للقيادة ، ومع ذلك فقد يعملها لإغاظته هو .

وحين وصلت أفكار المختار إلى هذه النقطة ، كان النعاس قد طار كلية من عينيه ، وكان حنقه قد طغى على إحساسه بالإنهاك ، وطلب من رجل كان يتهيأ للنوم قريباً منه أن ينهض ، وأن يذهب فيتقصى أخبار الاجتماع على التبّة الأخرى . فنهض الرجل صامتاً وابتلعه الظلام . وظلت الوساوس تتناهب المختار . ثم عاد الرجل وانبأه أن الاجتماع لم يبدأ بعد ، وأن أبا جهاد يدعوه إلى الحضور ، إذا لم يكن متعباً .

غالب المختار كبرياءه ، وما كان في مقدوره أن يبقى وحيداً ، نهبا للوساوس ، ومضى يخبط في درب لا يعرفه . ولم يكن في الأمر مشقة ، فالتبة غير بعيدة ، ولم يلبث أن قاده اللغط إلى مكان الفصيل المجاور ، وسأل عن أبي جهاد فدلوه عليه . واستطاع أن يميز في ضوء الليل ، الذي تشيعه نجوم سطعت في سماء رائقة ، ثمانية أجساد أو تسعة تحلقت حول أبي جهاد . وقد رحب به الرجل بمودة موزونة ، وقال شعَبان ، بعد أن حياه :

- بدهم ثلاثة منّا للحراسة .

تحدث المختار بلهجة جهد أن تنسجم مع وضعه بما هو رئيس ، وكأنه

يذكر الحاضرين بهذا الوضع ، وطلب من شعبان أن يذهب وينتقي الرجال الثلاثة . ونهض شعبان ملبياً طلب المختار ، غير أن أبا جهاد ، الذي لم ينتبه لمحاورة شعبان مع المختار ، استوقفه وأفهمه أنهم بحاجة إليه هنا . وتصور المختار أن أبا جهاد فعل ذلك متعمداً ليقلل من هيبته أمام الآخرين ، فأسرها في نفسه ، وعاوده مرة أخرى ذلك الشعور بأنه في غير مكانه . أما شعبان فقد تردد برهة وهو واقف ، ثم جلس بعد أن ظل المختار ساكناً .

سأدع المختار لحظة غارقاً في همومه الخاصة ، لأحدثكم عن الخطة التي وضعها أبو جهاد للاستيلاء على المعسكر ، وما سأرويه لكم هو تلخيص أمين لما بسطه هو نفسه أمام قادة الفصائل في ذلك الاجتماع .

كان عندهم على التباب زهاء ثلاثمائة بواردي ، قدموا من سبع قرى . أما وحدةُ جيش الإنقاذ فلم تصل ، ولم يصل أي خبر عنها . وكان معهم تسعة رشاشات ، وعدد من القنابل اليدوية ، والديناميت الذي أخذه أبو جهاد من جواد . وكانوا يجهلون تفاصيل الاتفاق الذي تم بين الهاجاناه والانجليز لتسليم المعسكر . وكان في حسابهم أن الانجليز عرفوا باعتزام المجاهدين الاستيلاء عليه ، لكنهم يقدرون أن الانجليز لا يعرفون الكيفية التي سيتم بها ذلك ، وأغلب الظن أنهم سيعتقدون أن المحاولة ستتم بعد رحيلهم ، وليس قبله ، وأنهم يتصورون أن المجاهدين لن يقدموا على المجازفة ماداموا هم في المعسكر . أما قوة الهاجاناه في المنطقة فيمكن تقديرها بخمسمائة مسلح ، وإذا أسقط منهم من سيبقون للحراسة في المستعمرات ، فإنهم يستطيعون أن يدفعوا إلى المعسكر بثلاثمائة . وليس من المتوقع أن تصلهم نجدات كبيرة ، ما دامت العمليات القتالية ناشطة في البلاد . ومن المتوقع أن تشرع مجموعات من الهاجاناه بالتسلل إلى المعسكر قبل رحيل الانجليز ، فإذا تمكنوا من التحشد فيه وأصبحت أسلحته

وذخائره الوفيرة في حوزتهم ، تعقد الامر . وإذن ، فإن مهمة المجاهدين صارت واضحة : أن يسمحوا لمن يغادر المعسكر بأن يمر بسلام ، وأن يمنعوا مجموعات الهاجاناه من الدخول إليه .

فرغ أبو جهاد من بسط الموقف كما يراه ، وأخرج من جيبه مصباح بطارية ، وعلى ضوئه رسم على الأرض خارطة المعسكر ، وحدد التباب التي تكتنفه من الجانبين ، وعين لكل قائد فصيل الجهة التي سيكون مسؤولاً عن مراقبتها ، ثم جاء دور المختار ، فقال أبو جهاد بلهجته الرسمية :

- انت يا بو خالد ، بلا مؤاخذة ، خبرتك في هذي المسائل قليلة ، وفصيلكو تدريبه مش كافي ، بس إحنا بنستغنيش لا عنك ولا عن الفصيل ، وأنا بشوف إنك تكون مسؤول عن الاتصال مع الناس في القرى ، بتأمن الأكل ، وبتأمن النجدات عند اللزوم ، وخلّي شعبان ينوب عنك في القيادة وبنخلّي شغل فصيلكم مع فصيلنا .

غلبه منطقُ أبي جهاد على الرغم من إحساسه بالمهانة ، وداخله شعور خفي بالراحة ، لأنه سيعفى من القتال الذي لا يعرف عنه شيئاً ، ومع ذلك لم يشأ أن يبدو مستسلماً ، فقال مكابراً :

- قلت كل إشي وسكتنا! وزّعت الأوامر من غير ما تشاور حدا ، وسكتنا! وهالحين بدّك تبعدني ، خاف الله يا بو جهاد!

فبادر رجل إلى الرد :

- أبو جهاد مش غرضه يبعد حدا ، انت اللي ظلّيت بعيد عنّا طول ها الوقت ، وهالحين لما لقينا لك شغلة تقدر تعملها بدّك تخالف ، لو كان قدرتك حطّيناك قايد ع الكل ، وكلنا نمشي تحت أمرك ، يا مختار .

فصمت المختار ، ونظر أبو جهاد إلى ساعته في ضوء المصباح ، وأعلن :

- باقي ست ساعات للفجر .

وكرر توصياته بتشديد الحراسة واليقظة . وانصرفوا . وعاد المختار إلى تبّته وحيداً ، مفكراً ، وقد أصبح شعوره بالغربة عن الجو طاغياً . وفاجأه صوت جواد الساخر : «انتباه! أجا المارشال مونتغمري!» . ولم يثره هذا الهزء ، كما أن صرخة جواد لم تجد صدى لدى أحد من المجاهدين ، كانوا قد ناموا أو هم على وشك .

وتمدد المختار داخل الفروة ، وقد عاوده النعاس .

١٤

استيقظت بارعة مبكرة ، أيقظها حلم مزعج ، فانقبض صدرها ، فقامت من فراشها وغسلت وجهها فانعشها الماء بعض الشيء ، إلا أن انقباض صدرها ظل على حاله . وجربت المسهّدة أن تنام مرة أخرى ، فلم يطاوعها النوم ، فأخذت تتقلب على القراش وكأنها تتلوى ، وقد ظنت أن وقتاً طويلاً قد مضى منذ استيقظت . وخطر لبارعة أن تغادر الدار وتبحث عن تسلية . وحين أصبحت خارج الدار ، طالعها ظهر الراعي وهو ماض يدفع قطيعه من الغنم والبقر والماعز . ورأت على البعد خادمة دار المختار ، فاطمة ، تحمل جرتها متجهة إلى البئر . وما من شيء عدا ذلك كان يتحرك على مدى نظرها . وكانت الحقول الممتدة أمامها هادئة بزرعها ذي اللون الأصفر . ودفعها إحساسها بالوحدة إلى الحقول في مشوار ليس له هدف محدد ، تمشي أحياناً متأنية ، وتجري أحياناً أخرى على هواها بين نبتات القمح التي تغطّي ثلثي قامتها . هناك ، كانت تحس بأنها طاهرة متحررة ، وتسمع وشوشات السنابل البريئة فتندمج فيها . وهناك ، كانت تطلق العنان لعواطفها الأنثوية التي عودتها حياتها المضطربة القاسية أن تكبتها

وراء مظهرها الساخر ، أو القاسي ، أو العابث . لقد حرمتها الحياة من الزواج ، ومن الخلف ، ومن حنان الأهل ، ومن ود الأصدقاء . لكنها اعتادت أن لا تشكو لأحد ، تحسّ بالحنين لكل ما تفتقده ، ولا تشكو . وكانت علاقتها بجواد هي العلاقة الوحيدة الحميمة التي بقيت لها . رعته عندما كان طفلاً ، وراقبته وهو ينمو وتتبدل أحواله ، فيصير فتىً ، وشاباً ، وفيه وجدت بعض العوض بل كل العوض عن ما فاتها ، وقد اختلطت عواطفها تجاهه فصارت مزيجاً من الأخوة ، والصداقة ، والعشق ، والأمومة والبنوة . وهي لم تتوقف يوماً لتميز أيها أغلب ، بل إن مثل هذا التمايز لم يخطر ببالها . كان جواد رجلها بينها وبين نفسها فقط ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان لامرأة يائسة في داخلها لا تجرؤ ، بحكم وضعها ، على أن تطمع في أن يكون لها رجلها ، زوجاً كان أو أخاً أو أباً أو ابناً أو حبيباً . وهي في واقع الأمر لم تفصح لجواد يوماً عن عواطفها ، وهو نفسه لم يحاول أن يتحرش بها . كانت تفتقده ، وقد مضى يومان منذ ذهب مع المجاهدين ، وقد ترددت على دار الشيخ تتسقط الأخبار وتؤنس وحدتها أيضاً ، بعد أن أنست من أم حسان وداً لم تكن تتوقعه ، وبعد أن حدب عليها الشيخ نفسه في إحدى صحواته وبادلها الحديث بمودة فقضى على تهيبها من زيارتهم . ونازعتها نفسها الذهاب إلى دار الشيخ ، غير أن الوقت كان مبكراً ، فعادت إلى دارها ، وشغلت نفسها بشؤونها المنزلية حتى الضحى ، ثم توجهت لدار الشيخ .

كان عند أم حسان زائرتان ، زوجة المختار وابنتها زكية . وقد استقبلتها أم حسان بحفاوتها المستجدّة ونهضت وأجلستها حيث يجلسن في الحجرة التي يرقد فيها الشيخ . أما زوجة المختار فقد ردّت تحية بارعة ببرود ، فيه استعلاء وفيه جفوة . وارتبكت زكية بعض الشيء لكن برودها ظل أقل

من برود أمها .

قالت زوجة المختار ، بلهجة من يبّدل حديثاً انقطع بسبب دخول امرأة غريبة :

- قلبي مش مطمّن ، غيبتهم طالت .

وتساءلت أم حسان ، التي لم يكن لديها ما يشغلها من هذه الناحية ، بلهجة ذات مغزى :

- وانت يا زكية ، مش قلقانه على حدا؟

فأرسلت زوجة المختار نظرة من جانب عينيها ناحية بارعة ، ثم استردتها بسرعة ، وأغلقت فمها ضاغطة شفتيها إحداهما على الأخرى ، بحركة تقول إن الحديث لا يليق أمام بارعة . وظلت زكية صامتة وقد أحرجها موقف أمها . وقالت أم حسان منساقة بعاطفتها المستجدة نحو بارعة ، بلهجة خلت من أي خبث :

- بارعة اللي قلبها مرتاح ، لا قدّامها ، ولا وراها .

فسألت زوجة المختار ، وهي تسدد إلى بارعة من رأسها المرتفع نظرة لم تجهد نفسها في إخفاء ما فيها من اتهام :

- وانت يامَرَة ، صحيح ملكيش حدا فيهم؟

دعتها «يا امرأة» مفصحة عن شكّها في عذريتها ، وهي ما كانت آنذاك تهمة تعرفون قسوتها . وقالت بارعة ، ملاينة زوجة المختار على غير عادتها :

- حرام يا خالة ، أنا برضه قلقانه عليهم كلهم .

وردت زوجة المختار بعداء صريح :

- يابيَّ! شوفوا يا اختي ، اللي بيسمعها بيفكرها أطهر من حمام مكّة ، على مين يا مَرَة!؟

وداهم بارعة ذلك الإحساس بالقهر الذي يستولي عليها كلما وجدت نفسها في حضرة نساء لهن حياتهن المستقرة، والذي يبعث فيها ردَّ فعل تمتزج فيه الاستكانة مع الرغبة في التحدي.

- بيكفّي يا خالة، انت برضه عندك بنات، متتهميش الناس بالباطل، أحسن...

فقاطعتها زوجة المختار محتفظة بلهجتها العدائية:

- قال تهمة، قال، وحدة زيّك، استغفر الله! متتمسكنيش.

وفاجأهن صوت الشيخ:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. ما اجوش المجاهدين؟

قالت أم حسان: لا. وأخبرته أن خيّالا حضر اليوم إلى القرية وحمل إلى المجاهدين طعاماً جمعه من الدور، وقد عرفوا منه أن المعركة ستنشب اليوم أو غدا. وعلّق الشيخ باقتضاب:

- الله يسلّم.

ثم سأل بارعة بلهجة حانية:

- ما لك؟ ليش بتعيطي يا بنيّة؟

فبلعت زوجة المختار ريقها، وضغطت شفتيها إحداهما على الأخرى بحركة سريعة، وسلطت نظرها على بارعة، التي أطرقت وأخذت تمسح دموعها بأصابعها وتغالب نهنهتها. ثم قالت زوجة المختار من غير أن تصرف نظرها عن بارعة:

- مستوحشة يا خوي؟

وبدا الشيخ غير فاهم. ووقفت بارعة فجأة، وودعت وغادرت الدار، وقادتها قدماها مرة أخرى إلى الحقول، ومشت وهي تغوص بقامتها وسط الزرع غير آبهة بتقصف عيدانه. وانبعث من داخلها، طاغياً، ذلك

الإحساس بأنها مظلومة . ماذا تعرف تلك المرأة المتكبرة حتى تتهمها . وهل في مقدورها هي أن تبوح بالهمّ الذي سوّد حياتها؟ هي لم تذنب وإن كان عليها أن تتقبل معاملة المذنبين ، تعيش عيشة الخاطئة ثمناً لخطيئة لم ترتكبها .

وداهمتها ذكريات حياتها ، هي التي كانت في العادة تتهرب حتى من الذكريات ، وانفثأ الجرح الذي دارته سنوات وسنوات . وأظن أن السياق الصحيح للرواية الأمينة يفرض علي أن أصور لكم ذلك الشريط الذي انفلت من ذكريات المرأة المأزومة . ولكني اسألكم أن تعفوني من مهمة لا أقدر عليها . ومن الذي يقدر على أن يصف بدقة مشاعر امرأة مجروحة في كبريائها ، متهومة في عفتها ، ومظلومة ، أو أن يصور شريط ذكريات كانت هي نفسها لا تجرؤ على أن ترويها لأحد . ومع ذلك ، فقد أستجيب لبعض فضولكم إذا رويت لكم ما عرفته من قصة بارعة حين كانت لا تزال تعيش في قريتها مع أهلها . ولا أزعم أن ما مرّ في شريط ذكرياتها ، وهي تسير وسط الحقول على غير هدى ، هو ذاته الذي سأرويه من وقائع ، وأجزم بأنه لم يمر حين استسلمت بارعة أمام دفق الذكريات بالتسلسل الذي سأرويه الآن .

عندما بلغ وعي بارعة الدرجة التي يمكن فيها أن تدرك ما حولها ، كانت ، وهي الطفلة ، تعيش في أسرة وافرة العدد ، كثيرة المشاغل . تكدّ أمها في الدار ، وفي الحقول ، طيلة النهار وأغلب الليل ، وتنام مكدودة لتصحو مبكرة على يوم كدّ جديد ، ويعمل أبوها في حقله وفي حقول الآخرين وحواكيرهم ، وفي المراعي فيظل أغلب الوقت خارج الدار ، ويتوزع وقت الإخوة بين مساعدة الأب والترحال في القرى بحثا عن العمل في مواسم العمل الكثير . وكانت هي البنت الوحيدة بين رهط من الإخوة

الذكور .

ونمت بارعة ، بينما أخذ المرض يأكل حيوية أمها أو يأكل ما يبقيه العمل المرهق من حيويتها . وكلما أقعد المرض الأم ، كانت تستلقي على فراش يمدونه لها في طرف الحجرة الوحيدة التي هي كل دارهم ، حجرة لا تمتد أمامها باحة ولا يحوطها سياج . ولم يكن أحد يعتني بالأم المريضة أو يرحم ضعفها . وبمضي الأيام ، وقع على بارعة ، التي كانت تحبو بغير بشاشة نحو أعوام مراهقتها ، عبءُ العمل المنزلي . وغلبت العلّة أمها فقعدت المعلولة قعوداً لم تقم بعده ، وأخذت تبتعد عن الدنيا خطوة خطوة ، ولا أحد في الأسرة يهتم لذلك . ثم جاء يوم شهدت فيه بارعة أمّها وهي تحشرج وتلفظ بوهن بين الحشرجة والأخرى ما بقي في صدرها الهزيل من أنفاس متقطعة ، وقد قعدت بجانبها جارةٌ مشفقة ، تنقط في حلقها قطرات ماء ، آخر هدايا الحياة للمرأة المفارقة . وكانت بارعة في عامها الحادي عشر ، حبتها الطبيعة جمالا بدأ يتّشح بإمارات أنوثة مبكرة ، وكأنها وردة نبتت ، خلافاً للمألوف ، وسط الفقر . وجلست بارعة إزاء أمّها وقد جفت في عينيها الدموع ، وتجمدت نظرتها على الجسد المسجى . ورأت بارعة أباها يعود من الحقل على عجل بعد أن استدعوه ، فيقف إزاء الجسد الذي أخلته الحياة لتوها ، لا ينبس بكلمة ، ولا تندّ عنه حركة تنمّ عن الحزن . ثم رأتهم يأخذون الأم من الدار . وتبعتهم إلى المقبرة . ورأتهم يدفنونها ، ثم ينصرفون ، ويعود كل واحد منهم إلى شأنه .

ثم جاءت قريبتهم أم جواد . وكانت في ذلك الوقت ما تزال تحتفظ بشيء من صباها ، لتكمل تدريب بارعة وتعدّها لتتولى شؤون المنزل بكاملها . وقد فعلت بارعة ذلك دون أن يخطر ببالها أن لها الحق في أن تقبل أو ترفض . كانت بعد رحيل أمها الأنثى الوحيدة في الدار ، والأنثى

تخدم الرجال . وحملت بارعة عبء الدار ، وهم لا يرحمونها ، كما لم يرحموا أمها . ونمت كما ينمو النبات البري من غير أن يعتني به أحد . وسرعان ما صار للطفلة التي كانتها جسد صبية يملأ ثوبها ، إلا أنها ظلت خليّة من مشاعر الصبايا ، يحوم الشباب حولها فلا تفهم لماذا يحومون ، ويفرض عليها ذكور الدار قواعد صارمة للسلوك مع الآخرين فتنفذها وهي لا تفهم لماذا يفرضونها . ثم أكلت الحرب أكبر إخوتها ، سند أبيه وأمله . وحزنت الأسرة كلها ، إلا أن حزن الأب فاق أحزانهم جميعا ، وأغلب الظن أن عقل الأب قد اختل منذ تلك الحادثة . وقد أصبح الأب أكثر سهوما ، وخفت رغبته في العمل ، وضعفت همته ، وصار يقعد في الدار فترات أخذت تمتد وتطول بمضي الأيام ، ثم صار لا يمضي للعمل إلا إذا ألح عليه الأولاد ، وازداد كسله فصاروا يوبخونه . وتبدلت ، على العموم ، أحوال هذا الرجل تبدلاً شاملاً .

كان العمل المنزلي يستغرقها ، فلا تغادر الدار إلا لماما ، وكان بقاء أبيها في الدار يؤنسها ، وصارت تعتني به وتدبر شؤونه ، وتعد له الطعام الذي يعجبه ، وتتبادل معه الحديث . وتطوع هو مرة لمساعدتها في عمل المنزل . ثم تكرر ذلك حتى صار عادة . وصار في مقدورها أن تجد خلال النهار وقتاً تستريح فيه ، بل كان هو يحثّها على الراحة ، يجلسها ويجلس معها ، يتأملها ويحادثها . وكان أحياناً يناديها باسم أمها فتعدّ ذلك مداعبة مستحبة وتقديراً منه لها .

وأجلسها مرة إلى جانبه ، وعقد مقارنة بين جسدها وجسد أمها . ثم تكررت مثل تلك المقارنات ، وكانت نتيجتها كل مرة لصالحها . وصار يتحسس جسدها بيديه ، ويعبر عن إعجابه به . ولم تكن هي ترتاب في شيء حول سلوكه . لكنها لاحظت أن معاملة إخوتها للأب صارت أشد

قسوة وأنهم ما عادوا يستحبّون بقاءه في البيت ، بل صاروا يلحون عليه كي يغادره حتى لو لم يكن هناك عمل متاح له . ثم صاروا ينهرونه ، وحين كان الأب يتشبث بالبقاء كانوا يدبرون الأمر ، كلما تيسر ذلك ، بحيث يظل تحت رقابتهم .

لم ينبهها أحد إلى شذوذ الأب . ولم تدرك هي ذلك بنفسها . واستدعوا أم جواد ، وربما كان في نيتهم ان تتولى هي إفهام البنت . غير أن الأب الشاذ ، وقد أدرك فيما يبدو غرض الأولاد من وراء استدعاء قريبتهم ، سلك خلال إقامتها سلوكاً لا يدع مجالاً لأي ريبة . فغادرتهم المرأة وهي تعتقد أن الأولاد واهمون .

وعاود الأب سلوكه الشاذ ، وصارت تصرفاته أكثر جرأة ، وازدادت خطورته إلى الحد الذي جعل بارعة تتنبه على الرغم من غفلتها ، وصارت تصدّه بمقدار ما يسمح به الحياء للبنت الشابّة في مواجهة أبيها . وغالى هو إزاء صدّها . ولم تجرؤ هي على الاستعانة بإخوتها صراحة ، بل عالجت الأمر على طريقتها ، فكانت تتعجل الفراغ من شؤون العمل المنزلي ، ثم تغادر الدار وتنضم لإخوتها بسبب وبغير سبب ، وكانوا هم يفهمون .

صار مسلك الأب كابوساً يضيق الخناق على حياة بارعة ، ويسود حياة الأسرة وعلاقاتها . وجاء يوم هاجمها أبوها فيه عنوةً ، وألقاها على الأرض ، فجاهدت هي حتى تخلصت منه وجرت هاربة من البيت . ووصلت الحقل مروَّعة ، مبهورة الأنفاس ، زائغة النظرات ، وقد فهموا من غير أن تشرح لهم ، فتوجه أكبرهم إلى الدار ، وغاب ساعة ثم عاد متجهم الوجه ، وكلّفها عملاً أبقاها معهم بقية النهار . وحين عادوا إلى الدار ، وجدت الأب يجلس هناك ، وآثار الضرب ظاهرة عليه ، ومع ذلك ظلت عيناه تختلسان نظرات تلاحقها باللوم المقرون بالشهوة الصريحة .

سيطر على الأب شذوذه ولم يعد يحرص على إخفائه أو يستحي منه ، وتكررت هجماته على البنت ، وتكرر عقاب الأولاد له ، بغير فائدة .

ثم كان يوم في موسم الحصاد ، شاركت هي الإخوة العمل طيلة النهار ، ثم تذرعت كعادتها منذ بدأ الحصاد بالتعب وأعلمتهم أنها ستنام في الحقل ، ووافقوا ، كعادتهم ، وبقي واحد منهم عندها ، وعاد الآخرون إلى الدار . وكانت مستغرقة في النوم استغراقاً كاملاً عندما أيقظتها المفاجأة : كان أبوها جاثياً بجانبها ويداه تهصران جسدها بقوة وهو يلهث مثل ثور مهتاج ، فصرخت ، وصحا الأخ على صراخها .

فهل أحكي لكم تفاصيل تلك الفاجعة التي تمت في تلك الليلة ، وأيّ أهمية لذلك؟ بل إنني لأعجز من أن ألم بدقائقها . لقد قتل الابن أباه . ووقفت هي موزعة المشاعر بين موقفها من الرجل الذي قتل لأنه اعتدى عليها وبين موقفها تجاه الأب القتيل ، لا تعرف ماذا تقول ، أو ماذا تصنع . ووقف أخوها القاتل إزاءها صامتاً ، لا يتحرك . فمن الذي يستطيع أن يستوفي وصف مشاعرها في تلك اللحظات؟ لكن الأرض لم تنشق ، ولم تبتلع أحدا ، ولم تمطر جمراً ولا حجارة . وقد أخرجها من الوجوم صوت أخيها الذي أتاها مشوشاً تشوشاً غريباً : «روحي ع الدار ، نادي إخوتك ، تحكيش ولا كلمة!» . وأمام الإخوة ، قال القاتل : «هجم واحد على بارعة في العتمة والوالد موجود فتصدى له ، صحيت ع المعركة ، وهاي هي النتيجة ، زي ما انتو شايفين ، لا أنا عرفته ولا انت ، فاهمة يا بنت؟» . ولم يقل الإخوة الآخرون شيئا . ومن الذي يشك في أنهم فهموا!

وشاعت القصة في القرية على النحو الذي رواه الأخ . وأضاف الناس من عندهم ، فقالوا إن بارعة كانت تستقبل عشيقاً في الليل ، وإنها من أجل ذلك كانت تنام في الحقل . وجاء البوليس فأصرت بارعة على أنها

كانت نائمة ، وإنها حين صحت لم تميز أحداً في الظلام . وتشبث الأخ بالرواية التي اختلقها ، وأصر على أنه لا يعرف الرجل الذي هرب في الظلام . وطوي التحقيق كما تُطوى عند البوليس أغلب التحقيقات في جرائم القرى المماثلة إزاء صمت الفلاحين وغموضهم الأبدي . وتوقع الناس أن يحل عقاب الإخوة ببارعة ، وانتظروا نبأ مصرعها يوما وراء يوم . وكلما امتدت الأيام والإخوة لا يفعلون شيئاً ، طالتهم الألسنة بحدة أكثر . أما النساء فقد قاطعنها وابتعدن عنها كما يبتعدن عن شيطان ، وصار مقامها في القرية صعباً . وهكذا جيء بها إلى أم جواد ، فلاحقتها الاتهامات ، وتمزقت الأسرة وتشتت إخوتها في البلاد .

وطوت بارعة سرّها وانطوت عليه لا تبوح به لأحد . وكم من مرة نازعتها نفسها لأن تبوح بالسر لجواد ، فلم تجرؤ ، وهو نفسه لم يسألها . لقد تعلق بها بعد مجيئها إلى القرية بسنوات ، تعلق بها كما غدت في ذلك الوقت ، ولم يشغله البحث عن ماضيها .

وفي ذلك اليوم ، بعد أن استفزتها زوجة المختار وغلبتها الدموع على كره منها ، همّت بأن تروي قصتها وتكشف ذلك السر وتقذف وجه المرأة المتكبرة ببراءتها ، لكنها أحجمت أو لنقل إنها لم تجد الجرأة . وهمت مرة أخرى بأن تفعل ذلك عندما سألها الشيخ عن سبب بكائها ، فمنعها الحياء من ذلك الرجل الوقور .

كانت تسير على غير هدى وهي تفكر في عمرها الذي ضاع ، في موقف الناس منها وهي البريئة ، في السنوات التي عاشتها طريدة منبوذة . كانت فتية قبل سنوات وقادرة على الاحتمال . وها هي ذي قد أصبحت تخطو نحو عامها الأربعين ، لا تتوقع شيئاً ولا تجرؤ على أن ترغب في شيء ، ترى أنها متروكة وحدها ، ضعيفة لا ينتظرها إلا الوحشة

والشيخوخة ، وليس لها زوج أو ولد . وهذه القرية الملعونة التي أكلت أزهى سنوات عمرها ، ها هي ذي تنبذها . خدمت في دورها ، دار داراً ، مثل كلبة ، باللقمة المسمومة بالإهانة ، ومع ذلك فقد طردتها تلك الدور . وحين استقلت عنهم وصارت تدير أمورها وصاروا يحتاجونها ، لم يتوقفوا عن لوك سيرتها ، وهم يعيّرونها بجواد . ما الذي جنته من علاقتها بجواد؟ يفشّ همه عندها ويمضي لحاله ، شاب طائش يستلذ صحبتها لأنه طائش ، وحين يصحو لنفسه سيعاملها كما يعاملها الآخرون أو سيخاف كلامهم ، ثم لن يلبث أن يستقر هو وتكون له زوجة وأولاد ، وعندها لن تجرؤ حتى على مقابلته ، وهو نفسه لن ينشدها ، ألم يُهنها منذ أيام أمام أبي جهاد ، بغير حياء؟!

ووصلت ، وهي تدير في رأسها تلك الأفكار اليائسة الى بقعة جرداء وسط الحقول ، يتوسط تلك البقعة البئر التي يسميها أهل القرية بئر الشؤم ، أو «بير الشوم» كما يلفظونها .

وبودي أن أروي لكم حكاية هذه البئر التي يرهبها أهل القرية ، ويتشاءمون منها ويتجنبون الوصول إليها ما وسعهم ذلك .

حفر تلك البئر رجل غريب الأطوار . قدم الرجل إلى القرية من المدينة قبل سنوات عديدة ، واشترى فيها أرضاً ، وأعلن أنه سيقيم عليها بيارة يزرع فيها البرتقال والفواكه الأخرى . وشاع في القرية أن البيارة ستكون عجيبة بين العجائب ، وسيتم العمل فيها بالآلات ، آلة تزرع ، وآلة تسقي ، وآلة تقلم الشجر ، وآلة تقطف الثمر . . إلخ . وشاع أن الرجل سيقيم إلى جانب ذلك مزرعة لتربية الحيوانات ، وأن تلك المزرعة ستدار أيضاً بالآلات ، آلة تخلط العلف ، وآلة تدفعه إلى الأحواض ، وآلة تنظف الحيوانات ، وآلة تحلب الحليب ، وآلة تصنع الزبدة . إلخ . وشاع أن الرجل

ينوي أن يتوسع في مشروعه ويقيم مصنعاً ، كله آلات في آلات ، وأن الفواكه ، والحليب ، والزبدة والسمن ، ستعبأ في علب محكمة الإغلاق . إلخ . وكان ذلك في حينه مبعث دهشة لأهل القرية الذين ما عرفوا غير العمل اليدوي .

وبدأ الرجل مشروعه بحفر البئر ، من أجل الماء ، واتضح أن طبقة من الكلس تتكوم تحت القشرة الترابية . ونُصح الرجل بأن يتوقف عن الحفر لكنه عاند . وظلت المعاول لا تنغرز إلا في الكلس ، والقفف لا تخرج سواه ، وهو يصر على مواصلة الحفر . وصارت حكاية الحفر قصة . قال الفلاحون إن الماء لن يظهر وإن تلك إرداة الله . وقال الرجل : سأخرج الماء . وطالت الحكاية حتى تكومت حول البئر تلال من الكلس ، والماء لا يظهر . استمر الرجل في مكابرته وشحت الأرض بمائها . وتأكد اعتقاد الفلاحين بأن البئر مشؤومة بينما كان الحفارون ينزلون عميقاً في الأرض ولا يجدون ماء . وأشار أهل القرية على الرجل بأن يحفر في بقعة أخرى فلم يقبل . وشاع أن الرجل كافر يعاند إرادة الله . وامتنع الفلاحون عن العمل في الحفر ، فاستقدم عمالاً من المدينة ، حفروا أمتاراً أخرى وتضخمت كومة الكلس ، ولبست البئر اسمها الذي صارت تُعرف به .

وحين ظهر الماء آخر الأمر كان مالحاً لا ينفع لزرع أو ضرع . وقد انسحب الرجل كما قدم إلى القرية ، فجأة ، واستعاد الأرضَ أصحابُها الذين سبق أن باعوها ، بعد أن تنازل لهم عن معظم الثمن ، ولم يعد أحد يسمع به .

وبقي من كل ذلك المشروع كومة الكلس ، التي ينتفع بها الفلاحون ، كلما احتاجوا لطلاء دورهم ، والغموض الذي أحاط بالبقعة التي حُفرت فيها البئر . وتراكم الغموض عبر الحكايا التي أضافتها خيالات الفلاحين

وأوهامهم ، حتى صار يقال إن الجان يحلون كل ليلة بالمكان ويقيمون فيه طقوسهم . وما عاد أحد يجرؤ على أن يزور المكان في الليل . وصار المشعوذون الذين عاشوا في القرية يستخدمون البئر ، يخطّون للفلاحين الملهوفين حروفاً تسجل رغباتهم ، ويلقونها في البئر في وضح النهار ، على أمل أن يحققها لهم الجان في الليل . ويقبضون أجورهم ، وأجور الجان .

وظلت البئر إلى ذلك خطراً يتحاشاه الرعيان كلما مرت قطعانهم قريباً منها . ومع ذلك ، لم يخل الأمر من بضعة حوادث سببتها غفلة الرعيان عن غنمة أو بقرة فلتت من القطيع ، وشاع أن رجلاً وقع فيها مرة ، لم يقل أحد من هو ولا من أين قدم ، ولا في أي تاريخ وقعت الحادثة .

وهكذا ترون أن البئر قد استحقت ، لأسباب قوية ، الاسم الذي أطلق عليها .

عند تلك البئر ، جلست بارعة ، وفكرت : لا أحتاج إلا إلى قفزة وينتهي كل شيء .

١٥

وصل جابر إلى التبّة التي أقام عليها فصيل «الخيام» ، وكان يحل صينية الترمس على رأسه . وعلى الرغم من أن خطواته كانت ما تزال نشطة كعادتها ، فقد كان التعب بادياً علي جابر وهو يصعد التبّة ويبحث بعينيه عن أبي جهاد ، بينما تلاحقه تعليقات مرحة من الفلاحين الذين لم يفاجأوا بمجيئه ، وإنما فوجئوا بصينية الترمس في ذلك المكان .

قال جابر لأبي جهاد في خلوتهما : «إن رجال الهاجاناة موجودون داخل المعسكر» . وكان لهذا النبأ وقع سيء على قائد الفصيل ، الذي وضع حسابه على أساس غير هذا الأساس . وأبدى المفاجأ بالنبأ شكّه ، فأكد جابر النبأ ، وقال إنه باعهم الترمس بيده ، وتحمل مزاحهم المهين ، وإن أذنيه لا يمكن أن تخطئا رطانتهم العبرية . واستفهم أبو جهاد عن عددهم ، فأوضح جابر أن معرفة عددهم كانت متعذرة بالنسبة له هو الذي لم يُسمح له بتجاوز باب المعسكر . وقد أحس جابر بالوقع السيء لأنبائه على قائده وبثقل الجو الذي ساد محادثتهما ، وبحث عن شيء جديد يقوله :

- أظن ، كـيف بدّي أقـول لك ، شـفت إنو هم مش مـخبـيين إنهم هناك .

فردّ أبو جهاد باقتضاب : مفهوم .

وأكمل جابر بلهجة عادت إليها تقريريتها :

- في إشي ثاني ، يمكن يكون مش صحيح ، حسّيت إنو بينهم ناس مش من جـهـتنا ، بقـول لك يمكن يكون مش صـحيح ، بس أنا حسّيت هيك ، لأنو في ناس شكلهم غـير شكل ، وبعـدين بيـعرفـوش ولا كلمـة عربي ، وباين إنو ملهمش خلطة مع الثانيين .

كـان إحسـاس جابر صحيحاً ، إذ بينما كان أبو جـهـاد يتـراسل مع القيادة ويستنهض القرى ، كان ناس العصابات الصهيونية المسلحة قد أتموا تحركهم ، وقد استغلوا فرصة غياب معظم مجاهدي المنطقة لنجدة «بيت دراس» ، ورتبـوا أمـورهم للتـواجـد في المعـسكر قـبل أن يرحل عنه جنوده الإنجليز .

وفي اجتـمـاع قادة الفـصائل ، بسط أبو جـهـاد الموقف أمامـهم ، وقال ، داعيا إياهم إلى التشاور :

- هذا هو الإشي اللي جَـد علينا ، بخـبّـيش عليكو : وضـعنا صـار أصعب من الأول .

قـال رجل : «الراي إلك يا أبو جـهـاد ، شـور علينا ، واللي بتـشـوفـه بنسـويه!» . وقـال آخـر : «بنظل مـحاصـرينهم ، وبنشـوف آخـرتهـا» . وقـال ثالث : «ليش ما نطلب العون من القيادة» .

وطال الحديث ، من غير أن يصل إلى نتيجة . ثم شرع أبو جهاد يتكلم وكأنه ينظم أفكاره أثناء الكلام :

- يا إخـوان ، الوقت زنقنا ، وبلاش نضـحك على حـالنا ، إحنا هان

مش محاصرينهم ، يا دوب قادرين نراقبهم ، والسلاح اللي معنا قدام السلاح اللي في الكنب يا جبل ما يهزّك ريح! وإذا هذا السلاح صار في إيدين الهاجاناة بيخلصوا علينا وإحنا هان . والقيادة عندها ألف شغلة ، وعلى كلٍ معندهاش سلاح تبعثه إلنا ، حتى جماعة جيش الإنقاذ ، لا أجو ولا بعثوا خبر ، يبقى المسألة هيك : هم في الكنب والانجليز بدهم يرحلوا بكرا ، وقبل ما يرحلوا الانجليز مش رايحين هم يعملوا إشي . وانتو عارفين لو صار السلاح في إيديهم مش بس بيخلصوا علينا ، لا ، وبيحتلّوا جهتنا كلها كمان ، واحنا ، بلا مؤاخذة ، مش قُصّر هالقد حتى يوكلونا ببلاش .

فقاطعه المختار وكأنه يريد أن يكشف عجزه :

- قُصْر الحكي ، إيش اللي بتؤمر به!؟

- حلمك يا بو خالد ، إحنا قاعدين نتشاور ، معانا خارطة للكنب ، وفيه ناس عندنا بيعرفوه شبر شبر ، من يوم ان كانوا يشتغلوا فيه . ممكن نعمل مجموعات تخش على المعسكر بعد نص الليل ، بعدما بيرحلوا الانجليز ، ع المخازن ، كل مجموعة على مخزن ، بتنسفه ، بتحلته ، حسب الأحوال ، وبنكون إحنا مجمعين حالنا وحاضرين ، بنهجم دفعة وحدة من كل الجهات .

وعلّق رجل مقاطعا :

- عمليّة انتحارية ، يعني .

- حلمك عليّ . خليني أكمل حكيي ، عندنا لها الحين ثلاثمــاية بواردي ، واليوم بننخي القرى وبنجيب كمان ، العمليّة مش انتحارية زي ما بيقول أخوي أبو حسن ، بس بدها جدعنة ، نهجم ، وما نخافش ، والاّ ، بلا مؤاخذة ، إيش بنقدر نعمل غير هيك؟!

فقال الرجل الذي اسمه أبو حسن ، وكأنه يعتذر عن ملاحظته :

- على بركة الله .

وقال المختار محتدا ، بشكل مفاجىء :

- إيش على البركة ، عليّ الطلاق ما فهمت إشي ، كيف بدنا نهجم على الاستحكامات والدبابات والمدافع؟

فرد أبو جهاد ، بعد أن استراحت نفسه لأن الخطة قد اتضحت في رأسه ، ولأنه ضمن موافقة قادة الفصائل :

- سلامة فهمك يا أبو خالد ، أنا حكيت حكي عربي ، بنهجم على طول بعد ما بيطلعوا الانجليز من المعسكر .

- حكي معناه إنو نودّي حالنا في داهية ، زي اللي بهجم عالموت!

كتم أبو جهاد حنقه ، وتساءل متحدياً :

- عندك بلا مؤاخذة رأي غير هالرأي .

ورد المختار مستجيباً للتحدي .

- عندي! اليهود أخذوا الكنب والسلام ، بلاش ندب حالنا على الموت دَب ، كل حي بيرجع لأهله .

قال أبو حسن ، كأنما ليؤكد أنه لا يوافق المختار على رأيه :

- سؤال أبو جهاد معناه : إيش نعمل حتى نستولي ع الكنب ، إذا كان عندك شور ، شور علينا!

كانت عيون الجالسين مسلطة كلها على المختار . وقد تأملهم هو بنظرة متأنية ، فاستشعر في وجوههم ردود فعل تتنوع بين العداء والاستخفاف والاتهام . إلا أن رغبته في تجنّب معركة يرى أنها خاسرة سلفاً كانت أقوى من حاجته إلى مجاملتهم :

- بقول لكم خلّونا نرجع ، كل ناس يديروا بالهم على قريتهم ، لو

موتنا حالنا هان بلا فايدة مين بيدافع بعدين عن البلاد ، بتضيع هي الثانية ، وبعدين انتو ليش قلقانين على الكنب؟ كلها كم يوم وليلة وبتدخل جيوش العرب ، بدكو نروّح حالنا عشان يومين ثلاثة فرق؟

كانت تلك حجة جديدة ، وكان لها تأثيرها على قادة الفصائل ، الذين كانوا يدركون أن العملية التي يتهيأون لها تتضمن قدراً كبيراً من المجازفة . والحقيقة أن كلام المختار قد أربكهم . وتطلع بعضهم في وجوه بعضهم . وقد تصدى أبو جهاد للرد :

- الجيوش العربية بدها تدخل فلسطين بعد ثلاثة أيام ، أي نعم . بس اي متى بتصل جهتنا؟ مين عارف؟ ومن هان لتصل بيكونوا الهاجاناة أخذوا القرى وصرنا إحنا زي الكلاب الشاردة . وبعدين أنا بسألك يا مختار : إذا كانت كل جهة في فلسطين بدها تفرّط في حالها وتستنّى جية الجيوش ، إيش بتقدر هالجيوش تساوي ، وين بدها تحارب ولا وين؟ وليش نخلّيهم يقولوا إجينا نساعدهم لقيناهم مسلمين بلادهم؟ إحنا بنعمل اللي علينا ، اللي بنقدر عليه بنعمله ، ولما يصلوا بيعملوا اللي عليهم ، بيخلصوا ع المستعمرات وبنرتاح .

قال شعبان ، وهو يتحدث لأول مرة منذ بدأ الاجتماع :

- كلامك صح يا يو جهاد .

ثم مال على أذن المختار ، وهمس بشيء ، فقال المختار بصوت مرتفع ، معلنا تشبثه برأيه :

- أنا بفرطش في زلامي ، هذا حكي بيطلعش منّوا إشي .

فاستفتاهم أبو جهاد واحد واحداً ، وقد وافقوا على الهجوم ، ثم سأل المختار فصمت . وبادر شعبان إلى القول :

- احنا مع الجماعة .

فنهض المختار وقال :

- بقول ثور ، بيقولوا احلبوه ! هذا شغل ولاد ، بقول لكو : نصبر ، مش راضيين ، بقول لكو : نشاور القيادة ، مش راضيين ، أقول لكو : اعملوا اللي بدكو اياه ، بس أنا لأ ، أنا مضيعتش عقلي!

وخطا مبتعداً عنهم . وكان في هيئته وهو يمشي ببذلته الحشيشية شيء يثير السخرية . وقد علق رجل : رجعت حليمة . . . فالتفت المختار وصرخ :

- ما أنا عارف ، بدكو تتهموني ، هذا اللي قاعد قدّامكو بيغشكوا ، أول مرة قال : الكنب فاضي وجابنا على هالأساس ، وبعدين قال : فيه جيش إنقاذ ومدافع ومش عارف إيش ، لا أجا جيش الإنقاذ ، ولا جيش الزفت ، واليوم بدو يوهرفنا على الفاضي ، عشان إيش؟ فكره إنّو يرفع راسه قدّام القيادة ، بدو يطلع فيها بطل ، بس أنا بقول له في وجهه ، بقول له : هذا شاربي بقصّه إن ما أجا على راسه طب!

ودنا منهم أكثر ، وأكمل :

- . . . أنا وليد أبو حامد بنضحكش علي ، مشيت وراك مرة ، قلت يا ولد الحق ربعك ، وهالحين ، مختصر الكلام ، فش فينا كبير وصغير ، كل واحد إلو راس يتبع شور راسه ، يا بنرجع كلنا وبنستنّى الجيوش اللي قُوّادها ملوك أولاد ملوك ، مش همل ، يا برجع لحالي أنا وجماعتي .

ثم صمت لحظة ، قال بعدها : «السلام عليكم» . وانصرف . وقد نهض شعبان وفي نيته أن يوقفه ، غير أنا أبا جهاد أشار إليه :

- خلّيك يا شعبان ، فش فايدة!

أحدثت كلمات المختار أثراً مناقضاً لما توخاه ، وكأنما نبههم موقفه المخالف للجماعة إلى حاجتهم لمزيد من الاتحاد والتعاون . وانصرف

المجتمعون إلى وضع الترتيبات الخاصة بالعملية . وخولّوا أبا جهاد اختيار الرجال الصالحين للاستيلاء على المخازن . واتفقوا على أن يرسلوا المراسيل إلى قرى المنطقة ، لطلب النجدات العاجلة . واقترح أحد الحاضرين أن يذهب شعبان إلى قريته ، ونصح أبو جهاد شعبان بأن يستعين بالحاج عبدالعزيز . فوافق شعبان وهو صامت ، ونهض لينصرف ، وانفض الاجتماع .

قال قائد فصيل لزميله وهما يهبطان التبّة محاذرين :

- تعال اتغدا معانا ، وبنحكي لنا شوي :

- جماعتي بيستنّوني ، كثّر خيرك ، انت شايف ، العملية مش سهلة ولازم أوضبهم .

وقال قائد فصيل آخر لزميل آخر :

- المختار مش هيّن ، بس أبو جهاد ولا هو سائل .

- أبو جهاد ساند ظهره على حيط ماكن ، جماعتو معه ، والقيادة بتراعيه .

ثم أضاف بعد لحظة صمت قصيرة :

- . . . بدّك الدغري ، لو ما كانش أبو جهاد فيها ، كنت ما اشتركتش .

وقال أبو جهاد لجابر الذي كان ينتظره :

- شيل ترمساتك وروح لهناك ، بدّي عينيك وذينيك تكون مفتوحة على الآخر ، وارجعلي مع الغياب!

فوضع جابر في يد قائده حفنة ترمس ، ورمش بعينيه وهز رأسه ، وانصرف .

فابتسم أبو جهاد .

١٦

وصل شعبان إلى التبّة التي يقيم عليها فصيله بينما كان المختار يحرض المجاهدين على الرحيل ، واستمع لما يقوله المختار الذي تجنب متعمداً أن يقول لهم إن الآخرين باقون ، ثم تدخل ، وقد صمم على أن يجابه المختار بعنف :

- الشغلة مش مزحة ، ما جيناش عشان نروّح ، الفصايل كلها باقية ، وأنا رايح أجيب نجدة ، أنا شايف إنّه أبو خالد خايف ، وإذا في حدا منكو كمان خايف يجي يروّح معاي .

ويبدو أن لهجة شعبان الحازمة قد فاجأت المختار تماماً ، حتى إن هذا صمت ، بينما استدار شعبان ، وهبط التبّة بخطا وئيدة متجهاً نحو الشاحنة ، وفتح باب حجرة القيادة ، وأسند كوعه إلى نافذتها وجلس ينتظر ، من غير أن يلتفت ناحية التبّة التي صارت وراءه .

وقد أتى المختار بعد قليل وصعد ليجلس بجانب شعبان من غير أن يحييه . كان المختار متجهما ، وكان عاتباً ، وكان يصطنع التكبّر . ومدّ شعبان يده وأدار المفتاح وشغّل المحرك بحركات غير متعجلة ، وتناهى إلى

سمعه وقع أقدام صعدت إلى الصندوق ، فاغتمّ في داخله ، وضغط على دواسة البنزين فأزّ المحرك ضاجّاً . وفي تلك اللحظة ، لمح شعبان ، وقد نظر إلى المرآة ، جواداً وهو يجري قادماً نحو الشاحنة ، وحين دنا صديقه منه ابتدره هو بالسؤال :

- إيش بدّك؟

- جيت أقول كلمتين لها الـ . . . اللي قاعد جنبك .

قال شعبان ، وهو في الحقيقة حانق على غير جواد :

- بلاش ولدنة!

وضغط ضغطة قوية على دواسة البنزين ، فاهتزت الشاحنة ، ثم انطلقت بأقصى سرعتها ، وهي ترتفع وتحطّ فوق الأرض غير المسوية .

قال المختار بصوت خفيض وعميق :

- اهدا يا ولدي! عمك وليد مش رايد إلا الخير .

ونبهته كلمات المختار إلى أنه يجور على السيارة . فخفف السرعة شيئاً فشيئا . وركز انتباهه على النتوءات والحفر التي تشكل الطريق الترابي ، حتى وصل الطريق المزفّت .

قال المختار بعد قليل :

- اسمع يا شعبان .

- . . .

- أنا بحكي معك يا ولدي .

- نعم يا مختار .

- متظلمش عمك وليد ، يشهد الله انو معزتك عندي كبيرة ، زي ولد من ولادي ، ومن يوم ما قالت لي العجوز . (كان يسمي زوجته العجوز في حضرة الآخرين) . إنّو نفسك تناسبنا وأنا بقول : شعبان ولد فهيم وقدّ

حاله .

- خلّينا في اللي احنا فيه ، يا مختار!

- طول عمري بقول : شعبان إبن حلال وشغّيل ، بس مش قادر يفهمني ، علتك يا شعبان انك كنت بعيد عنا ، معشتش معانا ، أنا مربّي أهل القرية ، اللي بتشوفهم اليوم زلام ملو هدومهم أنا بعرفهم لما كانوا أولاد ، وبعرف أبّاياتهم وأمّاياتهم قبلهم ، بيحز في قلبي أشوفهم يموتوا . أنا بقدرش أقول روح يا فلان وموت! وعشان إيش؟ عشان أتباهى وأقول صرت بطل . هذا اللي مش قادر يفهمو صاحبك أبو جهاد ، ولا صاحبك جواد . جواد لما أجا ينسف الباص ، مفكرني معرفتش ، باص المستعمرة باللي فيه ، سألتك بالله لو ضبطت معه وانفجر الباص جنب قريتنا إيش كان بيصير فينا!؟ ما اليهود ذبحوا الناس في «دير ياسين» من غير سبب ، بلد بحالها ذبحوها وما سألوش ، إيش بدهم يساووا فينا أحنا حينتها ، فكر لا قدر الله لو بيحرقوا قريتنا ويذحبوا أهلها ، عشان إيش؟ عشان واحد اسمه جواد ما فش في راسه مخ! وبعدين جماعتنا ناسيين ، مهو محدش حامل الحمل غير أبو خالد ، وقت الحصيدة اجا ، والشعير نشف ، والقمح لاحقة ، وهينا بنجري من مطرح لمطرح بنجرجر في حالنا . ومحدش حصد ، مين بده يطعمهم ، الناس اللي فضيت خوابيهم وما فيهاش حبّة طحين .

قال شعبان :

- بترجّاك يا مختار ، لفها! حبّيت تروّح وهيّك مروّح ، خلّينا احنا في اللي احنا عليه . كل واحد إله نبي .

- ما بدكش تسمع ، ليش ألفها ، ما انت الثاني مجرجر في حالك بدل ما تجري ورا رزقك ، وبتقول لي لفها لأني نصحتك ، صرت زي

جواد ، وحتى صرت تتطاول عليّ قدام الناس ، تعلمت منه ، الوسخ ابن الوسخة ، ما أنا شايف آخرته ، طيشه بيقتلو . إن ما كنش اليوم ، بكرا .

وقاطعه شعبان :

- اسمع يا مختار ، فش فينا واحد راضي عن طيش جواد ، الدغري ، بس انت يا مختار ، بخبّيش عليك ، زوّدتها ، اليهود فاتحين ثمامهم بدهم يبلعوا البلاد كلها . وانت بتحكيلي ع الحصيدة! وكل مرة بتلاقي سبب وبتزعّل الناس ، غير هيك ما بتعملش إشي .

- ولك شوف الشيخ ، الله يعافيه ، عمل اللي بدكو ياه ، إيش نابه!؟ ارتمى ، مش ملاقي مين يداويه ، ومحمود ابن الحاج ، إيش نابه غير القبر وحسرة الوالدين .

- انت ناسي إني كنت معاهم ، النجدات اللي راحت خلّصت بين دراس من الذبح ، اللي مات ما متش ببلاش .

- ماتوا اللي ماتوا يا شعبان ، ونسيتوهم ، وطيّب إيش كان بيصير لو استنّوا كم يوم لما تيجي الجيوش العربية وتخلّص «بيت دراس» وغير «بيت دراس» ، جيوش من صح .

- أنا عارف رايك ، وانت سمعت رأي أبو جهاد ، أنا معو ، بس نفسي اسألك سؤال يا بو خالد ، انت مشان توخذ شقفة أرض من أبو جواد اشتغلت عشرين سنة ، رحت وجيت ، وتغلّبت وفتّيت عملة ، مش خايف ها الحين على أرضك كلها؟ أنا عارف أكيد انت خايف ، بس اليهود مطمعينك ، وانت مفكر إنهم إذا استحلوا القرية بدهم يخلوا أرضك إلك ، وعشان هيك بتلف وبتدور ، أبو جواد قدرت عليه ، وما خفتش ، بس قدّام اليهود ركبك بتصكّ ، هاي حرب من جَدْ ، فيها شقا وفيها موت ، بس الشغلة فش منها مهرب ، يا احنا في أرضنا يا هم فيها .

قال المختار وهو يتململ :

- أنا عمري ما خفت ، تغلطش!

- طول عمرك بتخاف اللي أقوى منك ، خفت من الأتراك ، وسايرتهم ، وخفت من الانجليز وسايرتهم ، وهالحين خايف من اليهود ، شايفهم مسلحين ومتدربين ، وخايف منهم .

- شعبان!

- تزعلش من كلمة الحق يا مختار . انت غلطان وهالمرة غلطان أكثر من كل مرّة ، الاتراك اللي خوّفوك وينهم؟ والانجليز؟ هيهم راحلين ، والحالة مع هذول أصعب ، هذول بدهم البلاد ، المسايرة بتنفعش معهم ، طبايخك وهداياك بتنفعش معهم زي ما نفعتك مع غيرهم ، والكابتن غني من وراك ووارا اللي زيّك ، بس الكابتن روّح ع بلاده ، حمل اللي جمعه وروح ، هذول مش ناويين يروحوا ، يا احنا يا هم ، وراهم ناس زي الشياطين ، بدهم البلاد وبدهمش ايانا ، إيش نعمل؟

- بتحكي زي ما بيحكي أبو جهاد ، وصرت تتفاصح زيّه .

قال المختار ذلك ، وانطوى على نفسه ، غير راغب في الحديث . ولم يلاحقه شعبان ، بل كان يفكر : ضاعت زكية . وخيم بينهما صمت محرج . وقد عنّت لشعبان فكرة ، فأوقف السيارة وهبط من مقعده وألقى نظرة على الصندوق . كان في الصندوق أربعةُ رجال ، وقد وقفوا ممسكين بالعوارض الخشبية بينما استلقت بنادقهم فوق الصرر التي وضعوها على أرض الصندوق ، وحيّوه على الرغم من أنّه لم يحيّهم . ولم يجد لديه رغبة في ردّ تحيتهم ، فعاد إلى مقعده .

في ذلك النحو ، وصلت الشاحنة مشارف القرية . وقد قطع المختار الصمت فجأة :

- مين هاي اللي قاعدة عند بير الشوم؟

وحين أدرك أنها بارعة ، ندّت عنه همهمة استخفاف وعاد ينظر أمامه . أما شعبان فقد خفف السرعة ، ثم توقف وناداها ، فأقبلت بارعة مسرعة تخب في ثوبها . وقد أثارت تلك الوقفة المختار ، بل إنه انتهر شعبان طالبا منه أن يتركها ويمضي . لكن شعبان انتظرها حتى وصلت ، وطمأنها على الغيّاب ، ودعاها للصعود . فقال المختار بلهجة محتدة .

وصّلني ع دارنا .

وردّ شعبان بغير اهتمام :

- دار الشيخ في طريقنا بنمر عليه الأول .

وعند دار الشيخ ، غادر شعبان الشاحنة ، وتبعته بارعة ، وقد وجد في الدار زكية وأمها . رحبت به الأم حفيَّة ، وأربك زكية الخجل ، وسألته الأم عن المختار ، فتذكر لحظتها فقط أنه نسي المختار في الشاحنة . وعندما اتضح أن المختار غادر الشاحنة إلى داره ، انصرفت أم زكية وابنتها لتلحقا به .

- ايش مالك؟

سألت أم حسان شعبان عن سبب تجهمه . وأجابها شعبان ، وكان قد قعد قعدة مريحة :

- ولا إشي ، كيف حال الشيخ؟

- على حاله ، ربنا يعافيه ، أخذ الإبرة ونام .

- النوم كويّس إله .

- الرملاوي (وكانت قد صارت تدعو الممرض بهذا الاسم) قال إنه بيجي بكرة وبيعطيه إبره ، وقال إنها آخر إبره عنده ، ولازم ندبر حالنا .

قال شعبان :

- بالك يبعثو حكيم ، على كل بنشوف ، بس نخلص من اللي احنا

فيه .

ثم أضاف وعيناه مغمضتان من التعب :

- . . . بدي منّك خدمة .

وبادرت هي :

- اطلب .

فطلب منهـا أن تمر على دور القـرية وتطلب أن يحـضـروا طعـامـاً للمـجاهدين ويأتوا به إلى الشـاحنة ، وأن تبلغ إلى مـن تراه أن المجاهدين بحاجة إلى نجدة ، وأن الشاحنة تنتظر أصحاب النخوة .

فقامت لتنفذ ما طلبه ، وقامت بارعة معها ، وغادرتا الدار ، أما هو فقد أسند ظهره إلى وسادة موضوعة على الحائط وفرد ساقيه واسترخى .

١٧

سمع جواد صوت الشاحنة ، ثم رآها مقبلة . فهبط التبّة متعجلاً ووقف ينتظرها أسفل التّبة ، وقال لشعبان بعد أن حياه :

- صارت كثير شغلات في غيابك . . .

قال شعبان ، مقاطعاً ، وعلى ثغره بداية ابتسامة :

- تطلّع ، شوف مين أجا معي!

كانت بارعة تنزل من الناحية الأخرى ، مغاضبة ، كما فهم جواد . وقد استفهم جواد بنظرة من عينيه ، فردّ شعبان :

- طلبت تيجي ، وترجّتني ، الدغري ما اقدرتش أمنعها .

وهتف جواد ، وقد نسي أنه يقاطعها :

- بارعة!

وأقبلت هي مستجيبة ، وقد عسكت ابتسامتها وإشراقة وجهها إحساسها المتجدد بالارتياح :

- لا تقول ولا تعيد ، بعرف في الحرب زي ما بتعرف انت في اللغم!

ثم قالت ، وهي فرحة إذ لاحظت تأثيرها على جواد :

– . . . ليش ساكت ، أنا ما جيتش من شانك ، جيت هيك ، أحسن من القعدة لحالي .

قال جواد أخيراً :

– هلا بيك ، أنا دايماً بقول : بارعة أخت رجال .

فابتسمت له ابتسامة أشدّ إشراقاً ، ومضت ، كأنما لتؤكد ما قالته ، تتبع مجموعة الرجال الذين هبطوا من صندوق الشاحنة واتجهوا صاخبين إلى حيث أشار لهم شعبان . وقد تبعها جواد بنظره ، وهي تخب بثوبها ، وحطتها البيضاء فوق رأسها قد انفردت قليلا مع الريح وكأنها فرخ طير يمشي مشيا وراء سربه . ثم رجع جواد بذهنه فجأة لشعبان الذي كان قد هبط من مقعده وكأنما نسي بارعة تماما :

– بقول لك صارت كثير شغلات وانت غايب ، جماعة جيش الإنقاذ أجو ، ستّين سبعين زلمة ، ورئيسهم ، وهم بنادولو رئيس ، زلمة ملو هدومه ، على كتفه ثلاث نجمات ، معهم ثلاث رشاشات ، ومصفحات ، لو تشوفها يا شعبان ، مصفحات بصح وصحيح .

فقاطعه شعبان يسأله :

– كم مصفحة؟

– ثنتين ، بس الوحدة منهن أقوى من الصخر ، حديد غلظه هالقد (وقام بحركة من كفيه تصور سماكة الحديد) ولبسهم ، لبس عسكر بصح وصحيح ، إشي بفرح القلب .

غمغم شعبان بشيء ، وخطا متجها نحو التبّة ، فاستوقفه جواد ، وأسرّ في أذنه مع أنهما كانا وحدهما :

– صار أكيد إنو الانجليز راحلين الليلة ، واحنا بدنا نهجم مع الفجر ، كلفني أبو جهاد بشغله خلّتني أعرف هالإشي ، لو تعرف إيش هي ،

اسألني ، بس أنا مش رايح اقول لك ، إشي بيرفع الراس! أبو جهاد قايد ، مش هذاك .

واستفهم شعبان :

– وينه أبو جهاد؟

– هناك ، مع الرئيس تبع جيش الإنقاذ ، أكيد بيتشاوروا في الهجوم .

كان جواد على العموم مرتفع المعنويات . وقد تبع شعبان الذي اتجه لمقابلة أبي جهاد ، وظل يثرثر كما ابتدأ منذ لقيه ، حتى وصلا حيث كان أبو جهاد يجلس مع الرئيس .

قال شعبان ، بعد التعارف :

– جبت ثلاثين زلمة ، نصهم معاهم بواريد ، والباقي كيف بدي أقول ، معاهم قواليش ونبابيت .

قال الضابط بلهجة فيها فصاحة وهو يتأمل هيئة شعبان مغبرّ الثياب والشعر ، والجهد :

– كل يوم بسمع شي جديد عن هذا الشعب .

ثم أكمل وقد اعتقد أن شعبان مهموم لأن الرجال بغير بنادق .

– . . . ولا يهمك يا أخ ، عندنا بواريد للكل .

وأضاف متفكهاً :

– . . . في الشام عندنا بيقولوا : هات سلاح وخذ رجال ، وأنا بقولكو هاتو رجال وخذوا سلاح!

قال جواد ملفتا النظر إلى وجوده :

– حيّكوا ، أهل النخوة ماماتوش!

والحقيقة كما عرفتها أنا أن نخوة الضابط لم تكن على قدّ الحال ، وكثيرون ممن استنفرهم المفزعون من القرى وجاءوا وهم لا يملكون بنادق

ظلوا بغير بنادق إلى نهاية المعركة ، فلم يكن لدى وحدة جيش الإنقاذ ما يكفي لهم جميعا .

وقد قال أبو جهاد ، بعد أن تكلم جواد :

- جواد اللي حكيتلك عنه ، ولد نَشْمي ، لو ربنا بيعطيه عقل على قد نخوته بيعمل العجايب!

فتململ جواد ، أراد أن يقول شيئا للضابط ، لكنه احتار بأي شيء يدعوه ، ونطق أخيراً بينما كان الضابط يرقبه مبتسماً :

- احكيله عن الحاج عبدالعزيز يا بو جهاد ، بتصدق يا أفندي ، ابنه استشهد قبل كم يوم ، وهو اليوم معانا ، حامل بارودة ابنه .

قال أبو جهاد ، كأنما ليصرفه :

- روح ابعثلي الحاج نعرفه ع اخونا حضرة الرئيس ، وانت حظّر الرشاش ، نظفه كويّس! والمتفجرات عندي ، بعدين بسلمك ياها .

استدار جواد فرأى بارعة ترقبهم وقد ثنت حطتها فغطت طرف وجهها ، ووقفت غير بعيدة ، كأنما تنتظره ، وقد تجمد لحظة لأنه كان قد نسي وجودها تماماً ، ونبهت حركته الرجلين ، فتساءل الضابط :

- معكو نسوان كمان؟!

قالها الضابط مستمرا في إظهار إعجابه بـ«هذا الشعب» ، أما أبو جهاد فقد استفهم وفي وجهه شيء من الجهامة :

- إيش بتساوي المرة هان؟

- جابها شعبان (ردّ جواد) أجت معه من القرية . . .

وحدد أبو جهاد نظره كأنما ليتعرف عليها .

وبادر جواد : هي اللي كانت معي هذيك المرّة عند الباص ، انت شفتها .

وعقب شعبان متدخلاً لمصلحة جواد :

- بنت أخت رجال يا بو جهاد ، قد حالها ، متقلقش!

فهز أبو جهاد رأسه ، ثم صرف نظره عن بارعة وعن الشابين وغرق في حديث مع الضابط . فانسحب شعبان صامتاً . وتوجه جواد نحو بارعة وقد فهم أن المسألة مرت بسلام ، ولما باراها ابتدرته هي :

- سألك عني أبو منخار كبير ، بدوش يحكي معي .

- أبو جهاد زلمة طيب ، ما حكاش إشي .

- كان ناقصه بحكي ، أبو منخار!

- تعالي معي ، واسكتي!

فتبعته وهي تردد :

- بدّي أورّيه مين أنا ، خلّيه يرفع منخاره زي ما بدّه!

وفاجأهما ، كليهما ، صوت أبي جهاد :

- يا بنت! يا بنت!

قال جواد :

- روحي ورّيه!

فرمته بارعة بنظرة حادة ، لكنها غير غاضبة ، ومضت نحو الرجلين تخبّ في ثوبها بمشيتها النشيطة ، وكان الضابط يتأملها منذ أقبلت ، أما أبو جهاد فقد ابتدرها :

- اسمعي يا بنت!

- اسمي بارعة .

- عاشت الأسامي ، اسمعي ، ظلّي مع جواد ، وأنا شايفك عاقلة ، ظلّي معاه واهديه ، بدنا ياه بطل ، بس من غير ما يموت ، فاهمة!

أفرحتها كلماته كما لم يفرحها شيء من قبل ، ولو لم يوقفها الحياء

لأخذت تنطّ من الفرح ، وقد هتفت :

– فاهمة يا عم ، فاهمة ، الله يطول عمرك!

فابتسم لها الضابط ، فأضافت على الفور .

– . . . وعمر السامعين .

واستدارت منصرفة قبل أن يصرفها ، وأتت مختالة إلى جواد ، الذي كان قد انتحى جانباً وانتظرها ، وقالت هي مقبلة عليه :

– الحق معاك ، أبو جهاد زلمة طيّب ، لو تعرف شو قال لي .

ومضيا معاً يتحادثان .

وقال رجل يسأل عزمي الدحدول ، وهو يشاركه طعامه ، عندما مرّ جواد وبارعة بقربهما :

– بالك جواد ، الليلة بدّو يطخ ، ولاّ بدّو يطخ!

فردّ عزمي الدحدول وهو مشغول بما يأكله .

– إيش قصدك؟

وضحك الرجل ، وبلع لقمة .

وما أن بلغا المكان الذي وضع فيه حوائجه ، حتى فك جواد الرشاش وراح يريه لبارعة ، قطعة قطعة ، بحركات مبالغ فيها ، وأخذ يحدثها في غضون ذلك عن السلاح المخيف ، مباهياً بأنه تدرب عليه منذ زمن طويل ، وأفهمها أن الرشاش هو أهم أسلحتهم على الإطلاق ، وأنه سيعمل عمله هذه الليلة . وكان المجاهدون يمرّون بهما ، بينما هما يتحادثان ويتمازحان ، فيتوقفون لحظات ويحيون ، أو يمضون بغير تحية . وكانت نفس جواد قد رقّت في لحظة من لحظات الصفاء القليلة في حياته . وبدت هي سعيدة ، لا تصدق أنها سعيدة ، وكأنها تعيش في عالم وهمي تحبه وينسيها شقاءها .

واتمّ جواد تركيب قطع الرشاش من جديد وسألها نصف جاد :

- أفكّه مرّة ثانية ، عشان تتعلمي؟

- مفكرني هبله بتعلمش من مرّة وحدة . طيب ، الليلة بورّيك ، إن ما طنّحيت عليه أحسن منك!

بهذه الطريقة ، أعلنت عزمها على مرافقته في الهجوم . وقد استمع هو إليها وكأنه أمر عادي ومتوقع ، حتى إنه لم يناقشها . وقال مواصلا مرحه :

- حتى تضيعي الذخيرة ، وما تصيبيش حدا .

وكانت هي قد نطّت نشطةً وجلست وراء الرشاش ، وصارت تديره وتلعب بالزناد ، وأكمل هو ، كاشفا عن تفوق معلوماته .

- الذخيرة ، أهم من الرشاش . معانا صندوقين ما فيش غيرهم ، وأبو جهاد سمحلي استعمل واحد بس . والثاني بيظل احتياط ، للضرورة .

وهنا فقط فطن إلى خطورة قرارها الذهاب معه ، وناقشها فيه معترضاً بغير إصرار ، ومبدياً خوفه عليها .

- تخفش علي ، عمر الشقي باقي .

- بقول لك الشغلة صعبة ، مش مسخرة .

- إيش يعني ، على إيش بدّي أخاف ، لا ولد ولا تلد .

عند هذه العبارة ، صمت جواد فجأة ، داهمته فكرة طاغية هي التي أسكتته ، وبدا عليه انشغال البال جليا . واستفهمت بارعة بوجهها الذي كان ما يزال يحمل مرحها . ثم تكلم هو فجأة كما سبق أن صمت فجأة :

- بارعة! ليش ما تتجوزيني ، وخلّي اللي بدّو يزعل يزعل ، ويطق!

أعترف ، هنا أيضاً ، بأنني لا أملك أن أصف لكم مشاعرها ، لقد تجمع كل ما مرّ في حياتها من مشاعر وتكثف في تلك اللحظة . ومن المدهش أنها مع ذلك لم ترتبك ، أو أن الارتباك لم ينعكس على صفحة وجهها

التي ظلت رائقة وباسمة . وعلى الرغم من أن اقتراحه قد هزّها من الأعماق ، فإنها احتسبته نزوة من نزواته العابرة التي اعتادت عليها ، وردّت :

- ما كانش ناقص إلا هذا ، كنت مفكراك طايش وبس ، أنا هالحين شايفه إنك مجنون .

أما هو فقد سيطرت عليه الفكرة وانتهى الأمر . في البداية نطق جواد بما نطق به من غير أن يفكر ، لكنه صار الآن مقتنعاً بسداد الفكرة :

- الكل بيحكو علينا ، خلّينا نسكتهم ، بدل ما يوكلوا عرضك ليل نهار .

وأما هي ، وقد لاحظت أنه لا يمزح ، فقد انبثق كل ما تكثف في داخلها من مشاعر ، انبثق قوةً حرّكت لسانها وعضلات وجهها ، وعينيها ، ويديها ، وصارت تتكلم بها كلها . وقد جاء كلامها يعكس تناقض مشاعرها ، وكذلك حركاتها وإشاراتها . تحدثت بما يعني أنها موافقة وتحدثت بما يعني أنها رافضة . وكانت تكرر بين وقت واخر : مجنون ، انت مجنون ، تقولها مرات ، جادة ، وتقولها مرات مستنكرة ، وتقولها مرات متوددة ، أو مداعبة ، أو مشفقة عليه ، أو معبرة عن رغبتها فيه .

وامتلأت نفسه هو بعاطفة غامرة نحوها ، كان على استعداد لأن يتزوجها مهما قيل ، ومهما تكن العواقب ، ورأى دموعاً تسحّ من عينيها فازدادت عاطفته تدفقا ، ومد يده نحوها ، فنحتها وهي تقول :

- خلّ في راسك عقل يا جواد!

فقال بلهجة أحسها غير موفقة :

- قلبي متولع فيك ، فاهمة!

وقفز إلى ذهنه سؤال في تلك اللحظة :

- بارعة ، انت عمرك ما حكيتيلي ليش هجرت أهلك؟

- انت اللي عمرك ما سألتني .

وسيطرت عليه الرغبة في أن يعرف ، وكانت هي مستجيبة ، واستمع إليها بينما كان الليل قد أخذ يفرد أستاره فوق التباب ويسبغ عليها هدوءه السري . قالت له كل شيء . كان يصغي وكان يتعجب . واحسّ بها تتبدل في عينيه . لم تعد هي بارعة المرأة التي ألفها مقتدرة منذ عرفها . لقد رآها تلك اللحظات البنتَ المظلومة الشقيّة التي احتملت الظلم والشقاء وصبرت وتجلدت . ولم تعد هي المرأة التي كان يصبّ بين يديها حمى حماقاته واندفاعاته ، بل صارت المرأة التي تحتاج لحمايته . وقال حين اختتمت روايتها :

- بدي أتجوزك ، واحط على عينهم كلهم ، وأوّلهم أبوي اللي تشاطر عليك انت وقدّام المختار خاف!

قالت هي ، من غير أن تحمل لهجتها ما يشي بممانعتها :

- بتحكي وانت مش مدرك!

كان الظلام قد أطبق . وكان المجاهدون قد وجدوا لأنفسهم أمكنة يستريحون فيها ، بينما أحاديثهم ما تزال ناشطة ، يتناهى إليهما لغطها من هنا وهناك . ورجته بارعة أن ينام ليستريح قبل حلول الفجر . لكنه صمم على أن يذهب ليرى أبا جهاد . وتمددت هي حيث كانت تجلس ، وهو يتأملها . ثم نهض ومضى إلى التبّة الأخرى .

واستمع جواد من جديد إلى تفاصيل المهمة التي سيقوم بها ، أعادها عليه أبو جهاد مشدداً على كل تفصيل ، وكرر وصيته له بأن يقتصد في ذخيرة الرشاش ، ثم طلب منه أن يستريح حتى يكون مستعداً بعد ساعات . واستأذن جواد قائد في أن يصطحب بارعة معه ، وأفهمه أن تلك

هي رغبتها ، فوافق أبو جهاد بغير تمنع ، وطلب منه أن يعلمها كيف تملأ جرار الفشك . وعاد جواد مسرعاً لينقل إليها النبأ فوجدها قد أغفت ، غطّت نفسها بغطاء الرشاش وأغفت . وأحس هو بشيء من الغيظ لأنها نائمة ، هو الذي لديه ما يقوله لها ، وهمّ بأن يوقظها ثم أحجم . ولم تكن لديه رغبة في النوم ، فمضى يجول بين مجموعات المجاهدين على التبّة وبحث عن شعبان فلم يجده . ثم بحث عن المجموعة التي ستشترك معه في الهجوم على المخزن حتى وجد أفرادها ، واختلى بهم ، وواعدهم على اللقاء في الوقت المحدد ، وعاد إلى حيث ترك بارعة . وحاول أن ينام ، اقنع نفسه بأن عليه أن يستريح ، إلا أن النوم لم يطاوعه . وأمده الليل ببرودة منعشة نشطته وأبعدت النوم عنه أكثر مما هو بعيد . وصعد إلى أعلى التبّة . وجلس وحيداً يرقب المعسكر المنبسط أمامه . شكلت أنوار المعسكر بقعة من النور سطع وسطُها فيما تداخل محيطها مع الظلام الذي يكتنفه ، فكأنها بركة ضحل ماؤها عند أطرافها وغابت حدودها عن النظر على الأنحاء كافة . وكان صوت المحرّك يأتيه وهو يتبين نبضاته رتيبة وواضحة ، كأنها دقات ساعة هائلة نصبتها مخلوقات سحرية . وتذكر أنه لم يدخل ذلك المعسكر في حياته . وتصور نفسه يسير غدا داخل المعسكر ، مزهواً بالانتصار ، وبشجاعته في المعركة ، وبارعة بجانبه وقد اعترف الرجال كلهم بأنها «أخت الرجال» عن جدارة . وهدأت خواطره عند تلك الصورة . وأغفى وهو جالس على ظهر التبّة ، إلى أن استفاق وقد تيبست أعضاؤه ، ونهض يليّنها بالحركة ، بينما كانت أصوات كالهسيس تتناهى إليه . وافتقد شيئاً وسط الظلام لم يدر في البداية ما هو . ثم فطن فجأة إلى أن أنوار المعسكر قد انطفأت وغاب صوت المحرك ، وحل محله صوت آليات تتحرك على الطريق الخارج من المعسكر . فجرى منحدراً نحو بارعة وقد

دبّ فيه الحماس . وهزّها حتى أيقظها وهو يعلمها أن الانجليز قد رحلوا ، وأن الهجوم سيبدأ وشيكاً .

ودبت الحركة شيئاً فشيئاً فوق التبات .

كان على جواد ومجموعته أن يجتازوا سياج الأشرطة الشائكة ويدخلوا المعسكر ، ثم عليه هو بعد ذلك أن يكمن برشاشه في مكان سيدله عليه واحد من رجال مجموعته ليحميهم ، بينما تتقدم بقية المجموعة للاستيلاء على المخزن المخصص لهم .

وقد حمل جواد الرشاش بيده ، وأعانته بارعة فرفع صندوق ذخيرة على كتفه وسنده بيده الأخرى . ووضعت هي الصندوق الآخر على رأسها . وسارا محاذرين وسط الظلام إلى مكان تجمع مجموعات الإغارة الذي يعرفه جواد . وقد حضر أبو جهاد حين كان جمعهم قد اكتمل ، حياهم ، وقال لهم كلمات مشجعة ، ثم أوضح لهم مزايا العملية : إن الهاجاناه لن يتوقعوا هجومهم في الظلام ، وإنهم سيظنون أن المجاهدين لن يجازفوا ، وهذا يجعل مهمتهم أقل صعوبة ، وأفهمهم أن مجموعات الإغارة موضوعة تحت إمرته المباشرة ، وحدّد لهم مكاناً سيتواجد هو فيه ، وعليهم أن يتركوا فيه ذخيرة الاحتياط ، وبإمكانهم أن يرسلوا اليه مراسيلهم إذا اقتضى الأمر ، ثم قال : «سيروا على بركة الله!» .

اتضح لجواد أن قائد مجموعتهم يعرف طريقه جيداً ، فقد مضى بهم عبر مسرب تستره تعرجات الأرض ، حتى وصل إلى موضع في السياج تمكن الرجال من اجتيازه بسهولة ، وهمس موضحاً : «كنا نمرّ من هنا عندما نهرب من العمل» . ثم وصل إلى النقطة التي يتوجب على جواد أن يكمن فيها . فلبثوا هناك بعض الوقت ، وأوصاه قائد المجموعة ، بعد أن دلّه على المخزن الذي كان يجثم وسط الظلام كهيكل كبير ، أوصاه بأن يقتصد في

الذخيرة ولا يطلق إلا إذا دعت الضرورة ، وأبقى عنده واحداً من صندوقي الذخيرة . ثم تقدمت المجموعة ، وبقي هو وبجانبه بارعة .

اختار جواد ، بمعونة قائد المجموعة ، مكاناً وضع فيه الرشاش ، ووضع بجانبه صندوق الذخيرة ، وبيّن لبارعة ، بعد أن غادرهما الآخرون ، كيف وأين تجلس وتتحرك عندما يبدأ إطلاق النار .

كان متوتراً غاية التوتر ، وقد استصعب الانتظار ، وتشوق للحظة التي سيستخدم فيها الرشاش ، بينما كان يجوس بنظره أنحاء المعسكر حتى ألفت عيناه الرؤية في الظلام . وظهرت أمامه موجودات ذلك المعسكر مثل خيالات يلفّها السكون والغموض . وقد غرق في تأملاته حتى إنه كاد ينسى بارعة التي تجمع جسدها بجانبه ، ساكنة متهيبة وقلقة تجاهد الرغبة في الإفصاح عن قلقها حتى لا تغلبها .

وبزغ ضوء القمر مطلا من فجوة بين تبتين ، وكان بزوغه هو الإشارة التي أطلقت قوى المجموعات . ولم يلبث أن أزت رصاصات هنا وهناك . ثم اشتد الإطلاق . وكان في مقدور جواد أن يتميّز الأنحاء التي ينطلق منها الرصاص . وقد أثار قلقه أن رصاص مجموعته لم ينطلق . ولم يستطع أن يجزم فيما إذا كانوا قد وصلوا المخزن المحدد لهم أم لا ، فقد اختفت أجسادهم منذ انطلق الرصاص ، بعد أن كانت تظهر كأشباح سوداء تتحرك في هلام العتمة . كان في ذروة قلقه وتوتره ، ونبهته حركة من بارعة فأدرك أنها ترتجف ، وهمس : «أهدئي» ، فردت هي : «هذا من البرد» ، وسكنت .

أخذ جواد يفكر فيما وقع لمجموعته ، كانت الأصوات تكشف عن عدة اشتباكات تدور في آن واحد في أنحاء المعسكر ، أما الناحية التي ذهبت إليها مجموعته فقد ظلت صامتة . وقد أغاظه قعوده في المكمن جاهلاً لما يجري والرشاش معه وهو لا يفعل شيئاً . وغالب رغبته في اللحاق برفاق

مجموعته ومعرفةِ ما يدور ناحيتهم ، حتى غلبته . وهمس لبارعة بصوت راجف :

– لازم نلحقهم ، بيصيبنا اللي بيصيبهم ، اسمعي ، الأحسن نجري جري ، احنى ظهرك واجري وراي ، ما تقفيش ولا ترفعي راسك!

وحين فتحت فمها لتتكلم ، أخذت أسنانها تصطك ، وخرجت من بينها كلمة واحدة مفهومة :

– الصندوق

– الصندوق ثقيل؟ نسيت هذا ، اتفوع الشيطان ؛ أصلك مش مدرّبة ولاّ كنت جريتي فيه .

وفكر أنه يستطيع أن يجري بالرشاش ، ولكنه لا يستطيع أن يحمل الصندوق أيضاً ، فليدعها هناك ، وليمض هو برشاشة ، وهكذا فعل . وقد سار من غير أن ينحني ، نسي وصيته لها ، وخطا بخطى متسارعة . وكان قد قطع نصف الطريق إلى المخزن حين انهمر الرصاص من تلك الناحية ، فتوقف ، وانبطح على الأرض ، ووضع الرشاش أمامه ، وشتم بصوت مسموع ، شتم نفسه ، وشتم الحالة التي هو فيها .

كان القمر قد ارتفع أكثر في الأفق ، وصارت الأشياء أمامه أجلى ، وأصبح يدرك أن رجال مجموعته يطلقون من مكان قريب من المخزن . ثم سمع صوت انفجار قنبلة ، وأخرى . ورأى رجالا يخرجون من الناحية الشرقية للمخزن ، وفي أيديهم أسلحة أوتوماتيكية يطلقون منها في كل اتجاه . وتميز صوت قائد مجموعته وهو يصرخ بأقصى قوته ، «أين أنت يا جواد ، عليهم!» . فأرخى لرصاص رشاشه العنان ، دفقات سريعة متتابعة ، لم يلبث بعدها أن صمت الرشاش ، فقد فرغ جرار الفشك . وأتاه صوت قائد المجموعة ، مستحثاً ، محنقاً ثم شاتماً . كان صندوق الذخيرة هناك

حيث ترك بارعة ، واحتار فيما يمكن أن يعمله ، ثم استدار ليجري متعجلاً أن يحضر الصندوق ، فرآها مقبلة بحطتها البيضاء التي لفتها لفاً على رأسها ورقبتها وجانب من صدرها ، وقد حملت الصندوق بين يديها وأتت به نحوه بخطى متعثرة وهي تصرخ : «جاييتك يا جواد!» . ويبدو أن الصندوق كان قد ثقل بين يدي بارعة بحيث لم تعد تستطيع أن تشيله ، لكنها ظلت تجاهد وتخطو متعثرة بثوبها وبالصندوق الثقيل الذي يحكّ وسطها . وصرخ فيها وقد لاحظ تعثرها : «بارعة ، حطّيه! أنا جاي» . والمؤكد أن صرخته قد شجعتها ، فقامت بحركة أرادت منها أن تتمكن أكثر من الصندوق ، وأن تزحزح حوافه عن الأماكن التي تحكّها من جسدها . ومرت ثوان فقط على هذه الحركة حين صرخت بارعة ، ثم اضطرب جسدها ، وسقط الصندوق من يديها واصطدم بالأرض بصوت مسموع ، ثم لم يلبث أن سقطت هي الأخرى وهي تتلوى .

ركض جواد إليها وقد فقد صوابه ، كانت منطرحة فوق الأرض تلهث لهاثاً واهناً ، بينما انبثقت فوق الحطة البيضاء عند الصدر بقعة من الدم ، وأخذت البقعة تتسع وتتسع وتلتمع لمعاناً غريباً تحت ضوء القمر .

لا شك في أن بعضكم قد شهد مشاهد كهذه ، وأن أغلبكم قد قرأ عن مثيلاتها . ولذا فأرجو أن تعفوني من رواية تفاصيل ما حدث بعد ذلك ، فانها ستبدو مكرورة! ولأشغلكم بما هو أهم : لقد نجح الهجوم ذلك الفجر . كلّف ضحايا كثيرة ، ولكنه نجح . وجاء رجال المجموعة فنقلوا بارعة إلى داخل المخزن ، ومدّدوها فوق صندوق من صناديقه الكبيرة . وسمع جواد في غضون ذلك عبارات توبيخ ، موجزة لكنها صارمة . وامتزجت في نفسه مشاعر الاستخذاء ، والإحساس بالذنب ، والأسى ، والنقمة ، خليط من المشاعر جعله يقف بجانب الصندوق صامتاً وهو ينتفض .

وقد فحص قائد المجموعة جرح بارعة بإمعان ، جاءتها الإصابة في وسط الصدر وأحدثت فيه فتحة كبيرة ، ميزها الرجل بوضوح بعد أن انتشل من باب الفتحة فتات القماش الذي انعجن بدم بارعة . وعلق بصوت حزين : «أظنها طلقة رشاش من رشاشاتهم الكبيرة» .

ثم جاء أبو جهاد ومعه جمع من الناس ، وفحص الجرح بدوره . وغمغمت هي بصوت واهن متحشرج : «ماء» . فقال أبو جهاد مفصحاً عن يأسه من نجاتها : «بلوّا ريقها!» . وقدّم جندي من جيش الإنقاذ قَدِمَ مع أبي جهاد مطرته لجواد الذي لم يفهم ، فقال الرجل : «اسقها!» ، ثم كرر : «طلبت ماء ، اسقها!» ، ثم لم ينتظر بل نحى جواداً بيده ، ودنا من المحتضرة وصب شيئاً من الماء في فمها . وقد حركت بارعة شفتيها بوهن شديد لتمتص بعض الماء ، وسالت بقية الماء على جانبي فمها ، وغمغمت : «كنت خايفة ، ظلمتني يا جواد» ، بينما ظلت عيناها زائغتين وهي لا تكاد تفتح جفنيها .

وقال أبو جهاد شيئاً ثم غادر المخزن ، وغادره معه أغلب الموجودين ، وبقي جواد مع عدد قليل منهم . وتردد جندي جيش الإنقاذ ، الذي كان عليه أن يغادر ، في أن يأخذ المطرة ، ثم تركها ، وانصرف . وتقدم عزمي الدحدول الذي ظل منذ قدم مع أبي جهاد يقف وراء جواد ، وحمل المطرة بيده وصب دفعة ماء كبيرة فاضت على وجه بارعة ، فاختلج الوجه اختلاجة ضعيفة ، وكررت هي بصوتها المتحشرج : «كنت خايفة» . وأمال الدحدول رأسه على كتف جواد وأخذ يبكي بصوت مرتفع وجسده السمين يهتز كله اهتزازات متواترة . وصرخ جواد . وقد انفجرت عواطفه دفعة واحدة كما ينفجر الماء الحبيس :

– متموتيش ، بموّت حالي لو متّ ، بدنا نتجوز .

وأخذ جسده ينتفض انتفاضة من تنبّه فجأة على لسعة عقرب. فتقدم رجلان ونحيا عزمي الدحدول، وأرغما جواداً على الجلوس على صندوق مجاور للصندوق الذي مددت عليه بارعة وأخذا يهدئانه، بينما كفّ عزمي الدحدول عن البكاء وأخذ ينظر ناحية جواد نظرة عاجزة.

وجاء الممرض الرملاوي، وتساءل لحظة أن ولج الباب:

- إيش اللي جرى؟

وقد رنّت شينه وجيمه المفخمة رنينا شاذا وسط ذلك السكون، ولم يجبه أحد. وكانت المصابة قد سكنت، وعيناها مغمضتان، ودخل ضوء النهار الطالع على وجهها، فبدا جميلاً بهياً، وبدت عليه علائم ارتياح لم يشهدها أحد من قبل على ذلك الوجه.

١٨

عرفتم ، إذن ، أن خطة أبي جهاد قد نجحت ، وسيطر المجاهدون على المعسكر . وقد طار النبأ في المنطقة ، وفي أنحاء فلسطين كلها . ووصل النبأ بطبيعة الحال إلى القرية ، بعد أن عادت إليها شاحنة شعبان تحمل شهداء القرية وحشداً من مجاهديها أطلقوا العنان لأهازيجهم المزهوة التي حملت بشارة الانتصار للأهل المترقبين . واخترقت الشاحنة الهازجة أزقة القرية حتى وصلت مسجدها ، حيث سجي الشهداء ، بألبستهم الدامية ، فوق حصير الجامع . وبقي جثمان بارعة وحده في الشاحنة ، والحقيقة أن شعبان قد فكر في أخذه إلى دارها ، إلا أن جواد ، الذي خاطبه باقتضاب شديد ، طلب منه أن يأخذه إلى دارهم ، فشق شعبان بشاحنته الحشد الذي تجمع ، ومضى إليها .

وانسل الحاج عبدالعزيز وسط الحشد ، وقد اعتزم أن يزور المختار .

كان النبأ قد وصل إلى المختار قبل أن يصله الحاج ، ووقع عليه وقعاً سيئاً . وأحس المختار أنه في مأزق ، وقد صار مركزه مهدداً . وكان يلوب في مضافته وقد تملكته الحيرة ، وهو يفكر في ما يستطيع أن يفعله ليتجاوز ذلك

المأزق ، ولو بقي في المعركة لاختلف الأمر . لكن وقت الندم قد فات . هكذا ردد لنفسه وهو يهرش رأسه ، الذي حصل قد حصل ، أبو جهاد انتصر ، وعليه هو أن يتدبر أمره .

قال الحاج عبدالعزيز ، بعد أن قعد قبالة المختار الذي قعد على فراشه المعهود في صدر المضافة :

- البقية في حياتك يا بو خالد ، استشهد . . .

فقاطعه المختار ، غير حريص على إخفاء استيائه :

- عرفت الأخبار ، بالك تكون روسكو بردت ، أربعة في يوم واحد ، ما بردتش روسكو لسه؟

- لا يا مختار ، مش انت اللي بتقول هيك ، الشهداء الله يرحمهم ، الكنب صار في إيدينا ، هيْ مش قليلة ، واليهود أكلوها .

- احلموا ياخوي ، ستّين شهيد عشان كنب كنا قادرين نوخذوا بعد أكمن يوم ببلاش ، إيش مفكّر يعني هم رايحين يخلّوكو فيه ، ليش ، إيش ناقصهم ، سلاح؟ عندهم ، ورجال؟ البحر بيجيب لهم كل يوم .

قال الحاج ، الذي صدم كلام المختار تصوراته عن إمكانية التفاهم معه :

- ستّين؟ اللي قالولك مش عارفين ، أربعين ، وبعدين . . .

وقاطعه المختار وهو محتد :

- اربعين ولا ستّين ، والمرة ، كنت ناسي المرة اللي موّتها جواد صاحبك بطيشه!

وامتد الحديث بينهما على هذا النحو ، وقد أدرك الحاج بجلاء أنهم قد صاروا في واد وأن المختار صار في واد آخر ، واعتقد أن الأمل في استرجاعه مفقود ، فأراد أن يغير مجرى الحديث ، تجنباً للصدام معه :

– على كل يا مختار الشهدا صاروا عند ربهم ، والكنب صار إلنا ، وصرنا قادرين نحمي حالنا لحد ما تيجي الجيوش ، وهالحين عندنا إشي مستعجل ، صار لازم نحصد ، الشعير نشف ومحدّش حصده ، والقمح كلها أكم يوم وبينشف ، بدنا . . .

فقاطعه المختار وقد بهتت حدّته :

– أنت زلمه طيّب يا حاج ، سحبوك معهم بالكلام الحلو ، الله يسامحك! خلّينا ها الحين في اللي احنا فيه ، اليوم بندفن الشهداء ، وبعدين بنحكي في الحصيدة ، طيّب ما أنا عارف ، غيري بيسوّيها والبلا بيقع على راسي ، أربعة في يوم واحد! في حرب اليمن كلها مات لنا واحد ، في حرب القناة ولا واحد مات . . .

– تبعدهاش كثير ، قلت خلّينا في اللي احنا فيه ، نِعْمَ الرأي ، بدك تيجي ع الجنازة؟

– كيف لا ، تكونش مفكّر إنو وليد أبو حامد بينسى الواجب!

أقبل المختار على المسجد بصحبة الحاج ، وقد لاحظ عند وصوله ازورار الناس عنه ، كانت تحياتهم له باردة ، وترحيبهم به باهتاً ، فأسرّها في نفسه ، وتصرف كأنه لا يلحظ شيئا . وصار يدور هنا وهناك ، ويدس أنفسه في كل صغيرة وكبيرة . ولم يكن هناك الكثير مما يجب عمله ، فالقرى المجاورة ، المشغولة هي الأخرى بشهدائها ، لم تبعث وفوداً . وقد حملت القرية بأسرها شهداءها الأربعة إلى المقبرة وو ارتهم فيها . وانصرف الناس إلى دورهم من غير أن يتواعدوا على مكان يلتقون فيه للعزاء . إنها المرة الأولى التي يدفنون فيها مثل هذا العدد . وكان في ذهن كل واحد أن العزاء ينبغي أن يتم في دار المختار لو لم يكن قد فعل ما فعل . ولم يجرؤ أحد على أن يدلي باقتراح .

أما بارعة فقد تولى فريق من النسوة الاهتمام بجثمانها في دار أبي جواد ، وخرجت من أجلها جنازة منفردة ، سار فيها عدد كبير من النسوة ، وسار فيها رجال متجهمو الوجوه اختلطت في نفوسهم مشاعر ما استطاعوا أن يفصحوا عنها ، فساروا صامتين وراء النعش .

وقد عاد المختار إلى داره فور الانتهاء من جنازة الشهداء . كانت بارعة في ذهنه ، ولكنه عدّ المشاركة في جنازتها هي الأخرى تنازلاً منه لا يقدر عليه ، فتجنبها ، وحمل همومه وانصرف من المقبرة . كان ذلك اليوم قاسياً عليه ، كان بينه وبين نفسه يقر بأن انسحابه من المعركة خطأ ، وأن مركزه صار مهدداً بسبب ذلك . وقد عمّق إحساسه بالهم ما رآه في وجوه الناس وفي استقبالهم له . ومع ذلك ، كان يقول لنفسه : إن حجته ما تزال قوية ، وهو يستطيع أن يدافع عن نفسه .

وأخذ ، وقد صار وحيداً في مضافته ، يُقلب الأمر على وجوهه المختلفة . ومر في ذهنه خاطر ، إنه يستطيع أن يتصالح مع أبي جهاد وينهي المسألة ، والحاج عبدالعزيز كان قد ألمح إلى استعداده للتوسط بينهما . لكنه استبعد هذا الخاطر . فالمصالحة معناها الآن أن يصبح تابعاً لأبي جهاد ، خانعاً له ، مثله مثل قادة الفصائل الآخرين الذين أصبحوا خواتم في أصابع الرجل ، وهذه كبيرة عليه ، هو وليد أبو حامد . وإذن ، اضربها عالية يا وليد ، ولا توطي راسك!

واعتزم أن يقوم بزيارة إلى «القدس» ، يقابل الناس في القيادة ويتدبر أمره معهم ، وسيفعل ذلك بالسر ، فإذا نجح مسعاه كان بها ، وإذا فشل فلن يعرف أحد . وأعلن في الدار أنه مسافر للتسوق من أجل الحصيدة والاتفاق مع حصادين ، كدأبه كل سنة في بداية الموسم . وقضى بقية نهاره في زيارة دور الشهداء وتعزية ذويهم . وزار في المساء دار الحاج

عبدالعزيز وتحدث معه عن الحصاد وحاجاته . ثم عاد إلى داره ، وحاول أن ينام فلم يطاوعه النوم ، هاجمته هواجسه فأقضت مضجعه ، وخطر له أن يكون أبو جهاد قد أرسل تقريره إلى القيادة ، وأن تكون القيادة غاضبة منه ، هو الذي انسحب من المعركة ، وربما يرفضون استقباله ، فما الذي يستطيع أن يفعله . فهل يترك لأبي جهاد أن يشوّه سمعته؟ ذلك الخاطر جعله ينهض ويستدعي ابنه الأصغر ، ويملي عليه رسالة قرر أن يحملها معه .

تلك الرسالة بالذات ما تزال محفوظة إلى اليوم في ملفات البوليس السري ، انتقلت إليهم من ملفات أمن الثورة حين استولوا على مكاتبها في «القدس» ، وها أنا أسجل لكم نصّها كما وردت بخط الولد الأصغر للمختار ، وأستطيع ان أتصور أن المختار قد أملاها عليه ، وأن الولد لم يدخل عليها سوى بعض التنقيحات :

«سماحة مفتينا الأكبر الحاج محمد أمين أفندي الحسيني حفظه الله .

مقدمها مخدومكم وليد أبو حامد مختار قرية . . .

يا سماحة مفتينا الأكبر

بعد الصلاة على سيد الأنام وبعد التحية والسلام وتقديم جزيل الاحترام إلى سماحة مفتينا وأعوانه السادة الكرام ، أبلغكم سيدي يا سماحة المفتي أني ذهبت إلى الجهاد مع إخوتي أبناء قريتنا الأمجاد ، وفعلت ذلك عليم الله احتساباً لوجهه تعالى ، لا أريد جزاء ولا شكورا ، وتحقيقاً لرغبة قيادتنا الموقورة ، التي نادت العباد للدفاع عن البلاد حتى وصلنا كنب «وادي الصرار» وحوطنا الذي فيه من الكفار ، وهناك التقينا بإخوتنا مجاهدي القرى الثانية ومعهم السيد أبو جهاد ، الذي يعلم الله أنه ما في شيء بيني وبينه إلا المحبة والاتحاد ، وأنا من جهتي كنت على تمام

الاستعداد ، يعلم الله العارف بما في قلوب العباد حتى أموت فدا أوامر قيادتنا العليا ، لكني عرفت والعياذ بالله أن القيادة لا علم عندها ولا خبر بالذي يجري ، وإنه أخونا أبو جهاد كما نطق بلسانه قدام جميع الإخوان ، يعمل ما يعمل من غير ما يشاور القيادة ، وحاولت مولانا أفهمه أنه هذا لا يصير ، وقلت له أنا المختار مسؤول عن روح الأهالي ، والله تعالى وصانا لا ترموا أنفسكم إلى الهلاك ، قلت يشهد الله هذا الكلام بأدب واحترام ، وطلبت منه إنّا نستنى أوامر القيادة ، نقول لها ما هو الحال ونطلب هدايتها ، لكنه هو ما قبل وأسمعني كلام لا يليق ، فروّحت ومعي رجال قريتي وبقي معه ناس من الطايشين ، وامرأة فاسدة سمعتها لا تشرف ، وبعدين صار يقول عنّي إني والعياذ بالله هربت من المعركة وقعدت في داري ، وأنا أقول لكم سيدي الحقيقة كل الحقيقة ، وأستسمح من سماحتكم الإنصاف من هذا الظلم اللي رماني فيه أبو جهاد وجماعته ، وأن تنظروا بعين المحبة والعطف لمطالب قريتنا التي لا تريد إنه يتدخل أحد في أشغالها لا من قريب ولا من بعيد ، مخصوص أبو جهاد ، فالقرية كلها طالبة أكون أنا قائد الفصيل ، شاهد على هذا الحكي مندوب سماحتكم الأستاذ سليم بك المحترم ، وأصير المسؤول اللي يسمع أوامركم سيدي من غير واسطة بيننا وبينكم طول الله سبحانه وتعالى عمر سماحتكم وحفظكم ذخيرة للوطن ، ونصر جهادكم على من يعاديكم إنه السميع المجيب آمين .

خادمكم المخلص

وليد عبدالله سعيد أبو حامد»

أعاد قراءة الرسالة بإمعان ، ومهرها بختم المخترة ، وصرف الولد ، ونام .

وفي اليوم التالي ، كان المختار بكامل قيافته يدخل مبنى القيادة في

«القدس» ، كانت حطته ، ببياضها الناصع ، وعقاله الأسود الغليظ ، وقمبازه الحريري ، الذي أزيحت عنه العباءة قليلاً عند الصدر لتكشف لونه السكري ، والصاكو الصيفي ، بلونه البني الذي ظهرت ياقتاه ، والعباءة السوداء الجديدة ، والحذاء الذي دهنه لتوه ، تكسبه تلك الوجاهة التي يتمتع بها عادة ميسورو القرى ، وتجعل العاملين في مكاتب القيادة يهتمون بهم . وقد أدخل هؤلاء المختار بشيء من الحفاوة إلى حجرة قريبة من مكتب الأستاذ سليم . فتحسس الرسالة في عبه وأطمأن لوجودها ، ثم لملم أطراف عباءته وجلس ، وهو يدير في ذهنه ما ينبغي أن يقوله للأستاذ . وقد طالعته صورة للمفتي معلقة في صدر الحائط ، بوجهه الجميل وابتسامته التي تشبه ابتسامة الجيوكندا ، ونظرة عينيه المشرقة الحفية ، واللحية التي وخطها شيب أضفى على وجهه مهابة مستحبة أخذ بها المختار وقام عن كرسيه ودنا منها يتأملها عن قرب .

ثم جاء سكرتير شاب ، مكشوف الرأس ، وقاد المختار باهتمام إلى حجرة الأستاذ ، وتنحى عند الباب ليدخله أمامه . فوقع نظر المختار أول ما وقع على الأستاذ سليم يحطّ جسده وراء مكتب فخم ، وقد نهض الأستاذ بحركات موزونة حين أصبح المختار داخل الحجرة ، ودار حول المكتب الموضوع أمامه ، واستقبل المختار معانقاً ، ودعاه للجلوس على مقعد يقابل كرسيه ، وعاد هو بحركاته الموزونة ، وجلس على الكرسي . ومن جديد ، طالعت المختار النظرة المشرقة الحفيّة لصورة المفتي المعلقة فوق رأس الأستاذ سليم مباشرة ، وأتاه صوت الأستاذ :

- كمان مرحبا ومية مرحبا يا مختار .

استراحت نفس المختار لهذا الاستقبال ، وزال حرجه هو الذي يدخل هذا المكتب لأول مرة . ورد على تحية الأستاذ ، بينما أخذت عيناه تجولان

في الحجرة تتأملان موجوداتها . ومال السكرتير على أذن الأستاذ وقال شيئاً ثم انسحب . وقد فات المختار أن ينتبه إلى أن سحنة الأستاذ قد اضطربت للحظة ، ثم عادت إليها رخاوتها .

- أيوه يا مختار . إيش أخباركو؟

أتاه صوت الأستاذ وقد خلا هذه المرة من الحرارة التي حملتها عبارات الترحيب ، فأخذ يزن كلماته :

- إحنا بخير من الله ، نحمد الله على كل حال .

ومال الأستاذ بحركة بطيئة على مكتبه ، ووضع عضدية متعامدين أمامه ، وأسند ذقنه فوق ملتقى كفيه ، ووجه نحو المختار نظرةً خلت من أي تعبير ، ثم سأله متمهلاً :

- قل لي ، إيش اللي صار بينك وبين أبو جهاد أوّل مبارح؟

قال المختار وقد تململ قليلاً :

- شرحت كل شيء في هالمعروض .

قال ذلك وهو يقوم ويناوله الرسالة المطوية ، ثم عاد وجلس ، وهو يلملم أطراف العباءة ويتأمل الأستاذ وهو يمر بعينيه ، بأناة ، على الرسالة . وتساءل الأستاذ وهو مشغول بالقراءة؟

- إذن وقعت بينك وبين أبو جهاد؟

فردّ المختار على الفور بلهجة المتشكي :

- هو اللي بداها يشهد الله ، بيحشر حاله في كل شي ، اللي بيخصّه والي بخصّوش ، وبعدين أول امبارح أجا يدبّ الناس على الموت دب ، قلتله : تروّى ، وخلّينا نشاور قيادتنا ، نفر فيي كأني ولد صغير ، بدّو يصير زعيم وشوما صار بصير . . .

ومضى المختار يشرح في هذا النحو ، وقد استقامت لهجته وزايلها

الاضطراب ، ما وقع قبل يومين . وفي غضون ذلك ، دخل السكرتير ووضع ملفاً فتحه الأستاذ ، واستمر الأستاذ موزعا بين القراءة وبين الإصغاء للمختار .

وختم المختار روايته :

– هاي هي الحكاية ، وأنا في عرضكو تخلصوني من ظلم هالزلمة!

أسند الأستاذ ظهره على كرسيّه وتمعن قليلاً ، ثم ضمّ يديه خلف رأسه وليّن رقبته ، ثم أرخاهما . وعاد يستند بعضديه على المكتب . وقال بصوته المتأني :

– اسمع يا مختار . خلّ بالك عندي ، أبو جهاد هذا بنعرفه كويس ، اللي إله واللي عليه ، بيحب الزعامة ، أي نعم هو بيحب الزعامة زي ما قلت ، بس أنت غلطت ، ليش ما ظلّيت معهم؟ كنت كسرت عينه ، وعين غيره ، أنا بقول لك : أنا مش ضد أبو جهاد ، وفيه عندنا ناس في القيادة بيحبّوا أبو جهاد ، أنا ذاتي بقدّر جهاده وشطارته ، ومنشان هيك أنا خايف إخوانّا هان يلوموك ، لأنك تركت .

كان لهذا الكلمات وقع سيء على المختار ، أزال الإحساس بالارتياح الذي شعر به بسبب الاستقبال ، لكنه ، وهو المدرب على مجابهة مثل هذه المواقف ، لم يفقد حيلته ، فبدل لهجته من التشكي إلى الاعتذار :

– ساعة غضب ، والله العظيم كانت ساعة غضب ، غلبني الشيطان .

قال الأستاذ :

– مش عارف كيف بدّي أحلها ، إحنا بدناش نفرّط فيك .

وبادر المختار بقول على الفور :

– أنا معتمد على الله وعليك يا سليم بك ، زلمة فهيم زيّك بيعرف مقامات الناس .

قال الأستاذ بلهجته المقدسية :

- يعز مقامك يا مختار .

وواصل المختار حديثه المندفع :

- لو صرت أنا قائد فصيل بصير أنا واياه زي بعض ، وما حدش إلو في حد .

وعاد الأستاذ إلى لهجته المتأنية :

- قادة الفصائل في جهتكم كلهم مع أبو جهاد .

- وما له ، أنا تبعكو ، لو صرت قائد فصيل أنا قدّهم وقدود ، بس كونوا انتو معي .

هز الأستاذ سليم رأسه مفكّراً ، وارتفع حاجباه بعض الارتفاع ، ونقرت أصابعه نقرات خفيفة على طربوشه الموضوع فوق المكتب ، وصمت برهة اغتنمها المختار ليقول :

- . . . انتو اؤمروا وأنا خدامكم ، أنا واهلي وحمولتي وكلّ القرية ، ما تظنّش إنو وليد أبو حامد قليل .

قال الأستاذ ، وقد انشد وجهه الطري بعض الانشداد وخرجت من عينيه نظرة متفحصه ، تستبق ما يرمي إليه من حديثه المراوغ :

- فيك البركة ، بس مش هاي هيّ القصّة .

وقال المختار ، مشجعاً إياه على الإفصاح عمّا يريد :

- أنا خدّامك وخدّام المفتي . . .

- متتعبنيش ، بقول لك مش هاي هيّ القصة .

أدرك المختار بخبرته الطويلة أن الرجل يساوم ، وصار متلهفاً لمعرفة ما يريده منه ، ودخل رجل يحمل كوبي شاي ، فبدّل الأستاذ مجرى الحديث :

- انت عارف ، احنا مشغولين هالايام ، الانجليز راحلين ، اليوم بالذات بيطلع آخر واحد منهم ، وسماحة المفتي موجود برّه .

وقال المختار :

- الله يعينه .

ثم أكمل وقد خرج الرجل الذي أحضر الشاي :

- . . . أنا تحت أمرك وأمره ، بس انت اطلب ، وأنا في الخدمة!

- يا مختار أنا بطلبش إشي لنفسي ، احنا كلنا للمصلحة الوطنية ، مش هيك؟

- كلامك على راسي ، أنا حاضر لكل إشي ، خدّامكو وخدّام المصلحة الوطنية .

- بس أنا مش قادر أوعدك ، يمكن ما يطلعش بإيدي وتزعل منّي ، إنما أنا شايف ، كيف بدّي أقو لك . . .

وقالها على طريقته ، أفهمه أن قادة الفصائل في منطقتهم متكتلين حول أبي جهاد ، وهم لا يوصلون إلى القيادة إلا ما يريدونه ، بينما لا ينفكّون يطلبون منها . وأفهم الأستاذ المختار المتلهف على تثبيت مركزه أنه لو قبل أن يوافي القيادة أولاً بأول بكل ما يجري في منطقتهم ، خصوصاً أخبار قادة الفصائل ، فإن هذا سيساعد على إقناع القيادة بالتغاضي عن خطيئته وتعيينه قائداً للفصيل .

والحقيقة أن الأستاذ سليم قد عقد تلك الصفقة لحسابه الخاص ، كان في مقدوره أن يستحصل على قرار تثبيت المختار في القيادة على الفور ، لكنه تمهل ليظل القرار الموعود الجزرة التي يسوق المختار بها . وكان هو نفسه في مركز مزعزع ويريد أن يثبته بتقديم مزيد من الخدمات ، وهذا أمر عرفته عرضا من ناس ثقات بينما كنت مهتماً بشأن آخر لا صلة له

بأحداث هذه الرواية .

أما المختار فقد استراحت نفسه عندما عرف مطلب الأستاذ ، وهو الذي كان يتصور أن الرجل يساوم من أجل رشوة ، وقبل العرض مغتبطاً ، حتى إنه كان ، حين عاد إلى داره ، يحمل من الهدايا أكثر بكثير مما ألف أن يحمل في العادة ، وكان ذلك تيمناً بموسم الحصاد الجيد .

قال الأستاذ سليم للسكرتير وهو يشيل الملف من أمامه :

- حط التقرير الأخير في المحفوظات ، خلافات الفلاحين ما بتنتهيش ، محدش فاضي لها .

- وقال السكرتير للرجل الذي يحضر الشاي ، هو يشيل كأساً فارغة من أمامه :

- كيف شفته؟ أنا شفت وجهه ناشف .

فرد الرجل :

- براهنك ، إذا المرة الجاي ما جابش هدية .

١٩

موسم الحصاد هو موسم الفرح بالنسبة لأي فلاح ، تتراكم فوق كاهل الفلاح متاعب العمل طيلة سنة ، ومطالب الدائنين ، وهموم نفاد المؤونة ، والخوف من تقديرات محصلي الضرائب ، ومن غزوات الهاجاناه ، والولد الذي صار في سن الزواج ، والبنت التي امتلأ جسدها وصارت عيناها زائغتين ، والعجوز التي تشكو الأوجاع ولا تنفع معها الحجب والتعاويذ ، وعشرات الهموم الأخرى ، ومع ذلك تظل أيام الحصاد هي أيام الفرح ، وتستغرق كيانه كله .

صار المختار قائدا للفصيل بموجب نبأ شفهي نقله أحد القادمين على لسان الأستاذ سليم . وظل شعبان هو القائد الفعلي الذي يعود إليه المجاهدون في شؤونهم . وصار الحاج عبدالعزيز كبير القرية الذي يحترمه الجميع . وبقي الشيخ حسن جريحاً في داره ، يعوده أبو لطفي الرملاوي بين وقت وآخر ، وقد تحسنت حالته تحسناً طفيفا ، لكنه ظل طريح الفراش ، يعاني آلامه . وانصرف الناس عن التفكير في هذه الأمور أياما ، انشغلوا خلالها كلية في عملية الحصاد ، يَسْرون مع الفجر إلى الحقول ويتوزعون

فيها ، ويحصدون الزرع ، ويكومونه أغماراً أغماراً تتناثر على مد البصر ، كأنها علامات تشهد بأن الأرض ، آخر الأمر ، طيبة! وكانت العربات التي تجرها الدواب أو يسحبها الرجال ، كما كانت الجمال ، والخيل ، والحمير ، وحتى الثيران ، تمر رائحة غادية على الدروب التي تصل ساحة البيادر بالحقول . وقد نقل الأولاد ميادين لعبهم من ساحة القرية إلى الحقول ، ينصرفون إلى التقاط السنابل التي تتخلف من وراء الحاصدين ، ويجمعونها في ضمات يجدلونها بأنفسهم ، أو تجدلها لهم قريباتهم ، ثم يحملونها إلى دكان أبي زكريا ويقايضون بها على الحلوى ، من الراحة ، والمصاص ، والكعكبان ، والأقراص المسمسمة ، والغريبة ، أو على لعب الأسلحة والمتفجرات ، أو على البالونات زاهية الألوان ، أو الأمشاط والمرايا ، وما إلى ذلك مما تطفح به دكان أبي زكريا في الموسم .

كان مفروضا على جواد أن ينهمك في العملية مع أسرته ، يحصد معهم حتى تشتد حرارة الشمس وتكفّ الظهور عن احتمال لسع أشعتها الحارقة ، ثم يجلس تحت أي مستظل ، يلوك لقمات الغداء التي أحضرتها أمه ، ثم يجمعون الأغمار ويحملونها على الدواب ، ويدفعون بها إلى البيدر حِمْلاً بعد حِمْل ، ثم يعودون إلى الدار للترويح عن النفس ، والنوم ، استعداداً لعمل اليوم التالي . وكان هو يعود معهم ، يلتمس الراحة فلا يجدها ، فيغادر الدار ويهيم على وجهه ، وكانت قدماه غالباً ما تقودانه إلى «الخيام» يلتمس الترويح عن نفسه بين مجاهديها .

خلّف مصرع بارعة في نفس جواد هماً سيطر عليه . وقد تحدث الناس عن القصة ، وقال الذين يلومونه : «بطيشه تسبب في قتلها» ، وقال الذين يجدون له الأعذار : «يحدث هذا في المعارك ، وإذا كان جواد طائشاً فهو لا شك شجاع» .

وحمل المختار القصة ودار بها وهو لا يكفّ عن الإساءة لجواد حتى بعد أن بهت اهتمام الآخرين بها . وكان جواد يسمع أقوال المهاجمين والمدافعين ، ولا يكف عن التفكير في الحادثة . وكانت مشاعره تتأرجح بين الإحساس الشديد بالذنب وبين التعزي بأن المرأة جاءت بنفسها ولم يدعها هو للمجيء وطلبت بنفسها أن تذهب معه في الهجوم . غير أن جواد لم يستطع أن يغفر لنفسه إهماله بارعة ساعة الشدة . والأهم من هذا انه فقدها لحظة أن وعدها بالزواج ، وكانت حياتها ستتبدل ، وهي اللحظة التي انفجر فيها إدراكه أنها أقرب الناس إليه وأحبهم إلى نفسه ، وها هو قد خسرها إلى الأبد وما من شيء يستطيع أن يعوّضه أو ينسيه إياها . وأصبح قليل النوم يثقل الهم عليه ويعذبه .

وقد صحت الأسرة ذات فجر استعداداً للانطلاق إلى الحصاد ، فقالت الأم بعد أن حضّرت لهم طعامهم : «اسبقوني! سأمر على قبر بارعة ، فهذا يوم أربعينها» . وفطن جواد للأمر ، فقال : «أذهب معك» ، فلم يعارض الأب بل اصطحب أولاده الآخرين وغادر الدار .

مشى جواد بجانب أمه مطرقاً صامتاً ، وظل صامتاً بجوار القبر ، بينما كانت هي تتلو أدعيتها وترش القبر بالماء ، وزار معها قبور الشهداء الآخرين ، وتبادل عبارات مقتضبة مع ذويهم ، ثم غادر المقبرة ، وسار مع أمه خطوات على الدرب الذي يقود إلى الحقل ، وبعدها توقف :

- روحي لحالك ، أما متضايق ، مليش نفس في الشغل!
- أبوك بيزعل ، الشغل كثير .
- يزعل!؟ يزعل .

وتركها واتجه إلى «الخيام» . ووجد أبا جهاد في داره كما توقع . وقد استقبله الرجل بمودة ، ولم يسأله عن سبب مجيئه في تلك الساعة

المبكرة .

وقال جواد وقد آنسه استقبال أبي جهاد :

- تعبان يابو جهاد ، أنا تعبان ، شوف لي مهمة ، أي مهمة .

قال أبو جهاد :

- أنا فاهم يا جواد ، حالة وبتمر ، اصبر! احنا بلا مؤاخذة كلنا صابرين .

ثم أردف وقد لاحظ صمت جواد :

- . . . عندنا شغلة اليوم ، رايحين على «المجدل» ، تعال معانا غيّر جو ، رايحين أنا وقادة الفصايل نقابل القائد المصري ، وشعبان بدّو يوخذنا في الشاحنة .

وتساءل جواد :

- مختارنا رايح معاكو؟

- المختار لأ . رايح شعبان والحاج عبدالعزيز .

كانت قوات الجيش المصري ، مثلها مثل الجيوش العربية الأخرى ، قد دخلت فلسطين في الخامس عشر من أيار / مايو . وقد انفتحت أمام القوات المصرية مدن وقرى الجنوب الفلسطيني . وبسطت تلك القوات سيطرتها ، كما كانت تقول البلاغات العسكرية المتباهية ، على خط امتد حتى بلدة «المجدل» خلال أيام ، وانتشرت على تلك البقعة فوق حفاوة جمهور متعطش للخلاص من الكابوس الصهيوني رأى في قوات الدول العربية معينه الأمين على الخلاص واستبشر بقدومها ، ففتح لمكاتبها ولضباطها أوسع دوره وأجملها ، وخصص لخيمات عساكرها أغنى حواكيره وحقوله وأحسن باحات مدنه . وكانت «الخيام» والقرى المجاورة لها تشكل المنطقة المجاورة للمناطق التي بسطت القوات المصرية سيطرتها عليها . وقد

استبشرت تلك القرى بأن ساعة الخلاص صارت قريبة ، وبأن العبء سوف نزاح عن كواهلها ، خصوصاً أن هذا العبء صار ثقيلاً بعد أن تعقد الوضع في تلك الجهة من جديد . وقد صحا الناس على أنباء تقول إن وحدة جيش الإنقاذ التي بقيت ، ومعها نفر من المجاهدين ، في معسكر «وادي الصرار» لحمايته قد انسحبت فجأة وبغير ما سبب مفهوم صباح ذلك اليوم ، وإن إمدادات جديدة ما تنفك تصل إلى الهاجاناه مما يحمل البحر من رجال وعتاد ومما تستغني عنه المستعمرات اليهودية في الجهات التي كانت لها الغلبة فيها . ونحن نعرف اليوم أن القيادات المحيطة حاولت أن تقنع الجيش الأردني بالتدخل لحماية تلك الجهة ، فلم تجد غير آذان أصمتها أوامر قيادتها البريطانية القاطعة بعدم التدخل ، ووجوه أكربها العجز المفروض عليها .

وقد أجرى أبو جهاد اتصالات بالقيادة المصرية في بلدة «المجدل» فتلقى جواباً غامضاً ، واتصل بالقيادة الفلسطينية في «القدس» ، فجاءه الجواب يحثه على أن يجمع وجهاء المنطقة ويذهب معهم إلى القائد المصري ويشرح له الوضع ويستحثه على التدخل . وقد شرح أبو جهاد لهم سبب سفرتهم إلى «المجدل» ، عندما التأم جمعهم في داره ذلك الصباح ، بحضور جواد ، فتحمسوا للمهمة ، وحملتهم شاحنة شعبان ، ومضت تخب الأرض خبّاً .

لم يكن جواد قد زار «المجدل» منذ هرب من البوليس ، وقد رأى البلدة ذلك الضحى في حالة لم يألفها ، كان مركزها يضج بحركة لا تهدأ ، باعة ، وعربات تنقل الخضار والفواكه والبضائع المتنوعة ، وسيارات عسكرية تروح وتجيء شاقة طرقها بين الحشود ، والعساكر المصريون ، المارون أو الواقفون في المحارس يلفتون النظر ببذلاتهم العسكرية . ورأى هنا وهناك

آثار القصف الذي أحدثته غارة جوية قصفت قنابلها البلدة قبل يوم واحد .

وقد شقت شاحنة شعبان طريقها بصعوبة نحو مبنى دار البلدية حيث اتخذت القيادة المصرية مقرها . وتحدث أبو جهاد مع رجل يقف في محرس وسط أكياس الرمل أقيم أمام الدار وبدا واضحاً أنه لا يفهم اللهجة الفلسطينية . وانتهى الحوار بموافقة العسكري على أن يدخل أبو جهاد وحده ، وبقي الوفد ينتظره في الساحة . وقد ضاقت نفس جواد بهذا الانتظار الذي طال .

وأخيراً ، رجع أبو جهاد ، وأفهمهم أنه قابل ضابطاً مسؤولاً وشرح له غايتهم ، وأن الضابط كان لطيفاً معه ، ولكنه لاحظ أنه قصير اليد ، وقد استمهله حتى يتصل بقيادته في «غزة» ، وطلب منه أن يعود بعد الظهر ليعرف الجواب ، وأنه وافق أمام إلحاح أبي جهاد على أن يستقبل الوفد كله . وحين كرر أبو جهاد أن الضابط كان لطيفاً ، لم يملك جواد نفسه بل عقب :

- هذا اللطيف تبعك لطعنا زي الكلاب قدّام بابه .

وأتاهم في تلك اللحظة صوت عسكري الحراسة ، الذي يبدو أنه استطال وقفتهم :

- الوقوف هنا ممنوع يا حضرات ، ولا مؤاخذة .

وأحس جواد بالاستفزاز ، ولكنه تجلّد أمام نظرة أبي جهاد الآمرة . وقال أبو جهاد :

- خلّونا نزور قيادة المجاهدين ، قايدهم صاحبي ، وبعد الظهر بنرجع ، وبنشوف .

في قيادة المجاهدين ، قيل لهم إن الرجل موجود في داره ، فذهبوا إليه مشياً ، واستقبلهم رجل فارع الطول ، قوي البنية ، له وجه يوحي لمشاهده بأن هموم الدنيا كلها مرت عليه لكنها لم تذله ، وصوت عميق كأنه يخرج

من صدره . وقد أصغى الرجل بانتباه لما رواه أبو جهاد . وعندما فرغ أبو جهاد ، احتفظ الرجل بصمته لحظات أخرى وهو مطرق ، ثم نظر إليهم :

- انتو زي ما أنا فاهم بدكو مساعدة الجيش ، ومتأملين تحصلوا عليها؟

وكانت لهجته وهو يسأل تحمل تشكيكاً واضحاً بذلك الأمل . وقال واحد من الضيوف لم ينتبه للتشكيك :

- متأملين ، وهينا بنسعى .

صمت الرجل لحظات ، ثم نظر ناحية أبي جهاد :

- اسمع يابو جهاد ، انت اخونا ، وأنا بقول لك : في شغلات صايرة مخلياني ما اطَمّنش . الجماعة طلبوني اليوم . عارف إيش بدهم؟

طرح سؤاله وصمت وهو يتفرس في وجوه الحاضرين :

- . . . بدهم يانا نشتغل تحت أمرهم ، قال إيش ، قال : جيش ونظام وخطط ومطط! ما بدهمش يظلوا المجاهدين فالتين يشتغلوا على راسهم ، حتى ما يخربوش خطط الجيش ، هذا اللي قالوا لي ياه .

وتبادل الرجال النظرات ، بينما صمت قائد المجاهدين ، ثم أكمل :

- . . . واللي مخلّيني ما أطَمّنش مش هذا بس ، أنا سمعت إنهم بدوا في «غزة» يلمّوا سلاح المجاهدين ، ونبهوا عليهم : عمليات ما عمليات ما بدناش .

علق جواد :

- جبتك يا عبد المعين . . .

وتساءل أبو جهاد باهتمام :

- ما افهمتش إيش بدهم بالضبط .

- اللي قلت لك اياه ، وترجّوني إنّو انفذ الأوامر والا بحطهم ، قال ، في حرج .

- وأخرتها؟

تساءل شعبان . ورد الرجل وهو يزفر :

- زي ما انتو شايفين ، لا بنقدر نسلم ذقونا ، ولا بنقدر نعادي الجيش المصري ، وهيكو شايفين ، رجعت قعدت في الدار مش عارف إيش أقول لجماعتنا .

قال أبو جهاد :

- كنت متحمّس ، حكيك هبّط قلبي ، وصار أملي ضعيف ، على كل لازم نشوفهم يا إخوان .

وكان ضيق جواد قد بلغ ذروته ، فنهض وخرج إلى الطريق وأخذ يستنشق الهواء بأنفاس عميقة .

وصل الوفد مبنى البلدية بعد الظهر ، وقد استقبلوا ، على غير ما توقعوا ، بحفاوة ، وأدخلوا فور وصولهم إلى مكتب الضابط الذي قابله أبو جهاد في الصباح . ورأى جواد وراء المكتب شاباً يبلغ الثلاثين حسن الطلعة ، يرتدي بذلة عمل عسكرية أنيقة ، ويعلق تاجاً فوق كل من كتفيه . وقد استرعى انتباه جواد خصوصاً لونُ شعر الضابط الأشقر المسبل وبياض بشرته الصافي ، المختلف عما ألفه من سمار بشرة المصريين وتجعد شعورهم وسواد لونها .

قال الضابط وهو يقف من غير أن يغادر موقعه وراء المكتب :

- أهلاً أهلاً ، خطوة عزيزة يا عُمَد .

ونطق بعبارات الترحيب وهو يشير إليهم كي يجلسوا من غير أن يصافحهم ، ثم جلس على كرسيّه وراء مكتبه .

قال أبو جهاد مفتتحاً الحديث :

- مرحبا!

وردّ الضابط :

- ألف مرحبا ، الإخوان . . .؟

فعرفه أبو جهاد بهم واحداً واحداً ، بينما أخذ الضابط يكرر عبارات المجاملة بعد كل اسم ، وظل يكرر عبارات المجاملة بصورة مبالغ بها حتى بعد أن فرغ أبو جهاد من التعريف . وقد شعر جواد أن النهار قد ينقضي قبل أن يسمعوا كلاماً مفيداً ، فنظر ناحية أبي جهاد ، والتقط أبو جهاد مغزى النظرة ، وقال مقاطعاً الضابط :

- ما أجتكوش ، بلا مؤاخذة ، أوامر؟

واكمل إزاء صمت الضابط المفاجىء :

- . . . بخصوص طلبنا .

وتململ الضابط لحظة ، ثم تماسك ، وفارقت وجهه سمات المجاملة وبدا رسمياً تماماً :

- الحقيقة أنا بعد ما مشي أبو جهاد بلّغت طلبكو لمكتب القيادة ، وسعادة الباشا عرف الموضوع وأقدر أقولكو إنّو اهتم بِيه شخصياً .

واستعجله أبو جهاد :

- إيش كان جوابه؟

- حلمكو يا عُمَد ، الحكاية بالنسبة للجيش مش بالبساطة اللي حضراتكم متصورينها ، انتم لا مؤاخذة مجاهدين ، اللي يطلع في راس الواحد فيكو يعمله ، إنما في الجيش فيه ضبط وربط وخطط وحسابات استراتيجية وعمليات . . .

قال أبو جهاد يائسا :

- بدنا نعرف جواب القيادة .

وعقب جواد محنقا :

- معروف!

وتساءل الضابط بعد نظرة سريعة لجواد :

- قلت لي اسم حضرته جواد ، جواد إيه؟

وهم جواد بأن يقول شيئاً غير أن أبا جهاد سبقه متجاهلاً السؤال :

- المهم ، فيه مساعدة إلنا ولا لأ؟

- الجيش هنا علشان يساعد البلد ، الجيش عنده خطة عامة ، وبينفذها ، وعملياتنا ماشية على كدة ، وما اظنش إنّ حضراتكم حتطلبوا مني أشرح لكو الخطة ، الجيش له أسرار .

وأحس جواد بالاستفزاز مرة أخرى ، غير أن ضغطةً من يد شعبان على فخذه أسكتته . وقال شعبان :

- وضعنا صعب ، والخطر علينا ، والجيش ما وصلش جهتنا .

فقاطعه الضابط :

- كل شيء في أوانه ، والجيش ما بيقدرش يبدل خطته علشان قريتكو مهدّدة .

قال أبو جهاد :

- المنطقة كلها مهدّدة . . .

وكان جواب الضابط حاضرا :

- احنا مسؤولين عن المنطقة اللي بتشغلها قواتنا ، منطقتكو دورها جاي ، وزي ما فهمت من أبو جهاد قريتكو في المنطقة العربية حسب قرار التقسيم ، وعلى كده هي ضمن مسؤولياتنا ، اطمنوا .

قال شعبان :

- بس هم ممكن يحتلّوها الليلة .

فابتسم الضابط ابتسامه استخفاف ، وقال :

- ياخذوها في الليل ، واحنا نجيبها لكو في النهار .

وألحف أبو جهاد ، وفي ذهنه ما يجب أن يقوله للقيادة في «القدس» :

- يعني هذا هو جواب قيادتكو؟

فخبط الضابط خبطة خفيفة براحتيه كلتيهما على المكتب ، معلنا عن بداية ضيقه بالأسئلة :

- أفهمكو إزاي ، بقول لكو احنا جيش ، الحكاية مش سايبة .

قال أبو جهاد :

- إذا كان هيك ، أعطونا سلاح ، أقلّته سلاح!

قال الضابط متمهلاً ، وقد استعاد سمته الرسمي :

- معلوماتنا بتقول انو عندكو سلاح ، ولا قول لي : احتليتوا المعسكر إزاي؟ سلاحكو مش كفاية؟

- كان بيكفي قبل ما تيجي لهم أسلحة ونجدات جديدة ، كنا زي ما تقول مدبرين حالنا ، بس هالحين بدنا سلاح ، أقلّته بدنا رشاشات وألغام حتى ندافع دفاع لحد ما تيجو انتو زي ما تفضلت .

قال الضابط متهرباً :

- ما عنديش تعليمات ، المسألة دي عايزة أوامر القيادة العليا .

قال جواد ، ليحرجه فقط :

- احكيلهم ، يمكن يوافقوا . . .

قال الضابط يسأل أبا جهاد :

- ما قلتليش اسم حضرته إيه؟

وقال أبو جهاد هازئا ، متجاهلاً السؤال مرة أخرى :

- يعني لا نجدة ، ولا سلاح ، إيش بدنا نساوي من غير سلاح؟

ورد الضابط منقلاً نظره بينهم :

- مستعجلين على إيه؟ متهيأ لي انكو مبتثقوش فينا ، بقول لكو كل حاجة وليها وقت ، دي حرب ، حرب يا حضرات ، وده جيش مش مسخرة زي مساخر الفلاحين اللي بتعملوها ، واحنا عندنا قيادات ، وقيادة عليا ، وقيادة أعلى للجيوش العربية ، افهمكو إزاي ، متقريفونيش!

قال جواد معبراً عن حنقه وخيبة أمله ، وهو الذي لم يفهم معنى الكلمة الأخيرة من كلام الضابط :

- انت مفكّرنا بنفهمش ، بس احنا بنفهم أكثر من اللزوم .

فقال الضابط وهو ينهض ويريد أن يفرغ من هذه المقابلة ، وفي لهجته سخرية واستخفاف :

- ما دام فاهمين ، يبقى كويّس ، اتحلّت .

ومد يده للمصافحة وهو يقول : شرفتم!

فانصرف جواد قبل الآخرين من غير أن يصافحه .

وقال جواد لشعبان وهم يتجهون نحو الشاحنة :

- كان ناقصه يتف في وجوههم ، ومحدش منهم فش قلبي بكلمة ، قال وجوه قال!

ورد شعبان :

- إيش طالع بالإيد .

ثم بصق .

وقال أبو جهاد للحاج عبدالعزيز :

- سكّرها من كل النواحي ، الضابط الأشقر هذا ، وأنا اللي كنت متأمّل بجيّتهم .

ورد الحاج وهو حزين :

- إلنا الله .

٢٠

أوقف شعبان الشاحنة أمام دار الشيخ حسن ودخلوا ثلاثتهم ، هو والحاج وجواد ، وابتدرتهم أم حسان معاتبة :

– رحتوا «المجدل» ما قلتوليش ، قال الجيش صار فيها . لو حكيتوا للجيش كان بعث حكيم .

فتبادلوا النظرات ، وكل واحد منهم يلوم نفسه ، ليس لأنهم لم يطلبوا طبيباً ، ولكن لأن الشيخ غاب عن بالهم تماماً . وأكملت هي :

– صحتو على حالها ، بينام وبيصحى ، لا لورا ولا لقدام .

قال الحاج :

– إذا رحنا مرة ثانية بنسأل عن حكيم ، الشيخ إله الله ، كيف حاله هالحين .

– نايم ، يا حسرتي ، الصبح بدري أجا الرملاوي ، وأعطاه إبرة ، قال إنو عاد دبّر كم إبرة ، وبعدين أجا المختار ، إلا نسيت أقو لكو . . .

وتبدلت لهجتها وهي تحكي بسرعة :

– . . . أجا مخبّر من المعسكر ودوّر عليكو ، بيقول إنه اليهود هجموا

الليلة على المجاهدين اللي ظلوا في الكنب ، واستحلّوه ، وقال إنه المجاهدين طلعوا زلط ملط ، لا سلاح ولا ذخيرة .

وعلّق الحاج :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال شعبان :

- هذا اللي كان ناقصنا .

وقالت المرأة ، مستدركة :

- يِيه ، راسي دايخة ، والمختار أجا يسأل عنكو بعدما سمع الأخبار ، وهو برضه عرف إنو رحتوع «المجدل» وشكا منكو للشيخ ، قال حكي كثير ، قال انتو حاطّين إيدكو في إيد أبو جهاد وبتشتغلوا من ورا ظهره هو وكأنه لا قائد فصيل ولا رئيس لجنة .

وتشاوروا ، فقرر شعبان والحاج أن يذهبا لدار المختار لتهدئته . أما جواد فقد اعترض وانصرف عنهما مغيظا .

وفي دار المختار ، كانت أنباء أخرى سيئة في الانتظار . فقد أرسل المختار رسولاً إلى «المجدل» كي يبلغ إلى قيادة القوات المصرية أن الحاج وشعبان وجواد لا يمثلون القرية ، وأنهم ذهبوا من غير أن يستشيروا أحداً فيها ، بما في ذلك هو رئيس اللجنة القومية .

قال المختار بنفسه ذلك وهو مملوء غلاً ، ثم قال :

- حكيتلكو عشان تعرفوا ، القرية مشر داشرة ، وبعدين أنا بخافش من أبو جهاد تبعكو ، خلّيه يبلط البحر ، وعلى كل ، المصريين رايحين يعرفوا مين هو .

وتساءل الحاج :

- عشان هيك طلبتنا ، جبتنا تسمم بدنا .

- جبتكو عشان الأهم .

وتساءل شعبان ، الذي كان كلام المختار قد أخرجه عن هدوئه ، وهو يزفر :

- لسه في إشي ثاني يا وليد؟

وانفجر غضب المختار بدوره ، وأخذ يصرخ :

- وليد في عينك! أنا سيد راسك المختار ، عيشتك في «يافا» خلّتك تنسى عوايدنا ، بس احنا هان ما نسيناش ، وكل واحد يلزم حده ويعرف مقامه ، يا شعبان يا ابن فتحية!

فتدخل الحاج ، الذي كان متعلقاً بالتقاليد ، والذي رأى أن شعبان قد أخطأ :

- شعبان مقصدش يهينك يا بو خالد ، بس هو راجع منرفز من مقابلة الظابط ، هاي هيّ .

- أنا حزرت إنو الظابط مش رايح يرد عليكو ، وليش يرد ، ميخذين معاكو مفاعيص وبدكو الناس تلبيكو ، جواد بن آمنة الهبلة بيروح ، ووليد أو حامد بيروحش! وصلت معاك لها لحد انت يا حاج يا عاقل ، زمن! طيب لو الظابط طردكو طرد مش كان الحق معاه؟ هذول ولاد ناس ، حكّام ، بدهم اللي بيعرف يقابل الحكام ، وانتو اخذتولهم ناس بيعرفوش يطرحوا السلام .

وتبادل الرجلان النظر ، والتقط المختار ضيقهما بكلامه :

- حكيي مش عاجبكو ، كلمة الحق بتوجّع يا حاج ، شعبان ولد وبعتبش عليه ، أما انت ، بشيبتك هذي .

وتساءل الحاج كاظماً غيظه كظماً :

- وبعدين يا وليد يا بو حامد!

- وإلك عين تفتحها فيّ، وبترفع صوتك كمان، كلامي قاسي على قلبك، بس كلام غيري بتلاقيه حلو زي الشهد، هذا اللي بيجوجر فيك وبيبعدك عن قريتك، احتل الكنب مَرّة صار بدّو يركبنا، خلّيني أشوف وين بدّو يحط راسه بعدما اليهود رجعوا له.

قال الحاج:

- إذا جايبنا عشان تحكيلنا عن الكنب، عرفنا الخبر.

- مش هذا بس اللي بدّي ياك تعرفه، الكنب راح، والمصريين رحتولهم خزُوكُو، خلّي في راسك عقل، وافهم، شغل أبو جهاد بيجيبش نتيجة، هالمرة بدّك تسمع كلامي وترد عليّ أنا!

وقص المختار عليهم ما دعاهم من أجله، حكى بطريقته، ولكني أعرف اليوم أكثر مما حكاه المختار في ذلك اليوم، وسأروي لكم كل ما عرفت.

كان استيلاء المجاهدين على المعسكر مفاجأة لقيادة العصابات الصهيونية المسلحة في تلك المنطقة. والذي قدّره أبو جهاد، حول أهمية المعسكر، قدّرته أيضاً تلك القيادة، وقد حشدت للهجوم عليه حشداً كان من شأنه أن يمكنها من الاستيلاء عليه، سواء بقيت فيه قوة جيش الإنقاذ أم رحلت. وكان كل همهم قد تركز على أن يفرغوا من العملية قبل أن يصل أي من الجيوش العربية إلى المعسكر. وقد شجعتهم استعادة المعسكر على أن يبسطوا سيطرتهم على قرى المنطقة، ويجلوا عنها سكانها، قبل أن تصلها قوات الجيش المصري، ووضعوا خطتهم على هذا الأساس.

وهكذا، جاء إلى المختار في ذلك الصباح رسول من قبل مختار المستعمرة اليهودية، وهو المختار ذاته الذي سبق أن وعد مختارنا بتوفير القرية من الهجوم عليها لو ظلت ساكنة. وقال الرسول على لسان مختاره:

«إنك وعدت مرة ولم تنفذ ، وإننا نقدر وضعك ، وسنعطيك فرصة أخرى للسلامة ، فرصة واحدة لن نكررها» ، وعدد الطلبات : أن تسلم القرية سلاحها ، وألا يغادرها مجاهدوها للاشتراك في عمليات القرى الأخرى ، وألا يؤوا مجاهدي تلك القرى ، ولأهل القرية بعد ذلك أن ينصرفوا لشؤونهم آمنين .

وتساءل الحاج بعد أن حكى المختار قصته :

- إيش رايك انت؟

فرد المختار مشتكياً :

- رايي أنا! ليش انتو خلّيتولي راي! مهمّ صاروا عارفين ، وبدهم راي اللجنة كلها ، محدّش باقي يصدّق كلمتي ، ومعنا مهلة اليوم بس ، يصلهم خبر قبل غياب الشمس .

وتساءل شعبان ، الذي ظل صامتاً منذ انتهره المختار :

- إيش رايك انت يا مختار؟

- هالحين بتسألني عن رأيي يا شعبان ، لما صار الموس ع الرقبة ، مردودة عليكو! بنتفق كلنا ع رأي واحد ، محدّش يلعب على حدا .

قال الحاج :

- انت مصدّق إنهم بيوفوا بوعدهم؟

- مصدّق ولا مش مصدّق ، هذا هو الحال .

قال شعبان ، منبهاً لما اعتقد أنه غاب عن بال المختار :

- قصدهم مبيّن زي عين الشمس ، بدهم السلاح ، عشان يوخذوا القرية بالبلاش ، «دير ياسين» معملتش إشي ، وذبحوها . . .

فقاطعه المختار وهو يهرش رأسه :

- هالحين انت جاي تعلمني ، أنا بعرف قدّك وقد أبوك وقد أبو أبوك

كمان ، في المستعمرة هان في الهاجاناه هناك عملتها «شتيرن» مش الهاجاناه .

قال شعبان :

- اسمع ، وانت سيد العارفين ، ومتزعلش! كلهم بدهم بلادنا ، هذول ولا هذول . صح ولا لأ؟ حد بيسلّم سلاحه لعدوّه ، وبيقعد تحت رحمته؟

- يعني أنا بفهمش! سامع يا حاج؟!

قال الحاج :

- شعبان معه حق ، هذول مالهمش أمان .

قال المختار ، ملقياً بآخر ما عنده :

- الدغري ، تزعلوا ولا متزعلوش ، بس فكروا وما تقولوش إنو هذا رايي أنا وحدي : نقبل طلبهم أحسن ما ننذبح كلنا ، حطّوا في راسكو عقل ، وخلّونا نلايمها معهم أكم يوم لحد ما ييجي الجيش المصري ، ولا الجيش الأردني ، ولا يفرجها ربنا!

وتبادل الحاج وشعبان النظرات ، ونهض المختار ووقف بينهما وتفرس في كل منهما لحظات ، ثم أخذ يدور في المضافة على مهل ، وقد تابعه شعبان ، ومشاعره تتأجج في نفسه ، أحس بكره لذلك الرجل ، وأحس باحتقار له ، وأحس في الوقت ذاته بأن للرجل منطقه ، وأن ما يجري يخدم ذلك المنطق ، وانتابه الإحساس بأنه مقهور ، وبأن هذا الجو ليس جوه ، وأن محاولة إقناع المختار ليست سوى عبث ، وردد في نفسه : ذنب الكلب أعوج . وأخرجه من تأملاته صوت الحاج الذي عكس يأسه هو الآخر :

- افهم من هالحكي إنو لازم نقبل إنذارهم؟

فتوقف المختار وسط المضافة ، ونظر نحوهما :

- افهموا اللي بدكو ياه ، أنا قلت لكو اللي بعرفه ، وانتو اعملو اللي

عليكو ، مش تحطّوها على ظهري .

وألحف الحاج :

- طيّب ليش ما تقول لنا رأيك ، وتريّحنا .

- بقول رايي لما بعرف إنه زلامنا شورها من راسها ، وإنهم بيعرفوا مصلحة أهلهم .

وهَمَرَ شعبان :

- ما فيش فايدة ، أعوج .

وكرر الحاج سؤاله وكأنه يبحث عن إجابة أكثر مما ينتظر إجابة المختار :

- قول رايك يا بو خالد!

صمت المختار ، وعاود الدوران في المضافة . ووقف شعبان متهيئاً للانسحاب ، وتبعه الحاج وواجه المختار وسط المضافة ووضع يده على كتفه :

- خايف تحكي رايك ، على هيك اسمع! بيصيبنا اللي بيصيب غيرنا ، معاهم في الحلوة والمرة .

وانسحب الرجلان ووجدا نفسيهما يسيران على غير اتفاق نحو دار الشيخ حسن ، ودخلا الدار ، صامتين ، مكتئبين . كان الشيخ يهذي بكلام غير مفهوم وآثار الحمى بادية عليه . وكان شعبان يحس بالأسف له وبالضيق لعجزه عن مساعدته ، وراودته الرغبة في أن يهرب إلى أي مكان من ذلك الجو الذي يخنقه ، وأتاه صوت الحاج :

- الله يعين الشيخ .

وردت أم حسان :

- ما نفعتش الإبرة ، تقول فيها ميه بدل الدوا .

قال الحاج :

- شعبان ، يا بنيي ، أنا تعبان ، يرحم والديك ، دوّر على جابر وابعثه لعند أبو جهاد .

فنهض شعبان ومضى . وقام الحاج يستروح الهواء في باحة الدار ، ولحقته أم حسان .

وقال جابر لشعبان عندما التقاه :

- ابن المختار راح اليوم الصبح ع المستعمرة ورجع قبل ما تيجو .

وردّ شعبان ، الذي فاجأه النبأ :

- ع هيك ، روح خبّر أبو جهاد باللي رايح أقول لك عليه وأنا لاحقك ، أنا والحاج .

وعاد شعبان إلى دار الشيخ وحده ، وبادرته أم حسان وهي تدخله حجرة الشيخ : «الشيخ صحي» . وتساءل الشيخ :

- وين المختار؟

فردت أم حسان :

- مش كان هان اليوم الصبح ، إيش صار لك؟

قال الشيخ وهو يحاول أن يستعيد صحوه :

- الله يخزي الشيطان ، هالجرح تعبني يا ازلام .

قال شعبان ، كاذباً ، ليواسيه :

- جابر راح ع «الخيام» ووصّيته لو راح ع «المجدل» يدوّر ع حكيم .

وهمهم الشيخ :

- الأعمار بيد الله ، بس هالوجع . . .

فمال الحاج نحوه ، ولمس مكان الجرح :

- سلامتك يا أبو حسان ، الله شايف وعارف ، وعينه على عباده .

وردد الشيخ بمرارة :

- الله؟ الله؟

ثم ، كمن كان نائماً وأفاق .

- . . . استغفر الله العظيم .

وصمت لحظات أبهظ ثقلها مجالسيه ، ثم كرّر بآلية :

- . . . استغفر الله! . . . استغفر الله!

ثم بمرارة :

- . . . العجز قاسي عليّ يا زلام!

وغالب الحاج غصة هصرت حلقه ، وتلألأت في عينيه طلائع دمعتين . ونهض شعبان ، وقد حاصره إحساسه بالضيق ، وأخذ يمشي في الحجرة . أما أم حسان فقد غادرت الحجرة . وظل الصمت يخيم ثقيلاً على نفوسهم ، حتى دخل حسان . وقد التقطت عينا الشيخ القامة الطفلة والوجه المتسائل ، وانحنى حسان على الجسد الممدد وقبل يد أبيه . وسرت في وجه الشيخ ارتعاشة حياة :

- بارك الله فيك ، كنت بتلعب؟

فردت أم حسان التي رجعت إلى الحجرة وراء ولدها وكأنها أرادت أن تكسر ثقل الجو ، بصوت يجهد لكي يكون منطلقاً :

- حسان بيدّرّب مع الأولاد ، مَهُمّو ساووا فصيل ، وحسان صار قايد مش عارف إيش ، إيش بتسموها؟

قال حسان بلهجة معتزة :

- مجموعة .

قال الشيخ بصوت لم يخفف وهنه ما فيه من محبة :

- حسان ابني بدّو يصير بطل ، أنا عارف . . .

وأخذت عيناه تبتعدان عنهم ، وغاب من جديد وصار يردد : حيّ

على الصلاة ، حيّ على الجهاد!
قالت أم حسان :
- رجع يهلوس .
وانفجر بكاؤها ، ولم تحاول أن تستره . وسحت من عيني حسان دموع صامتة ، وصار جسده يختلج . وغالب الحاج غصات جديدة داهمته . وأشار شعبان للحاج فقاما معاً ، وقال له عندما أصبحا في باحة الدار :
- خلّيني أوصلك ل «الخيام» . . . بنتشاور مع أبو جهاد وبروح أنا على «المجدل» بالك يقبل حدا ييجي معي .
قال الحاج بصوت بدأ يستعيد استقامته :
- شوف العسكر ، قل لهم مين هو الشيخ ، قل لهم إنو تعلم عندكو في الأزهر !
وغادرا دار الشيخ . وما هي إلا دقائق حتى توقفت الشاحنة أمام دار أبي جهاد . وفي الدار كان جابر وجواد عند أبي جهاد . وكان جو الأزمة يخيم على الجميع ، تعكسه تموجات الوجوه ، كما تعكس صفحة الماء نذر العاصفة . وكان حوارهم سريعاً ومتوتراً ، وكان جواد أكثرهم توتراً ، يسمع ويعقب على ما يسمع مهتاجاً ، شاتماً ، وقد تركز سخطه على المختار ، وظل يردد : جاسوس ، قلت لكم إنه جاسوس! وأبو جهاد يهدئه ، ويعود بالحديث إلى المأزق الذي هم فيه . وكلما وردت سيرة المختار ، عاود جواد هياجه وشتائمه .
ثم دار حديثهم حول ما يجب عمله لإعداد الدفاع عن القرى المهددة . وكان جواد يصغي غير قانع بما يدبرون ، وقاطعهم بحدة :
- خاين ، بحلف براسي إنو خاين ، خلّوني أخلّصكو منه ونرتاح .
والحقيقة أن هذه الفكرة كانت قد دهمته عندما وقف إزاء قبر بارعة

في الصباح ، ثم غابت عنه بعد أن زار أبا جهاد وغرق فيما غرقوا فيه من مشاغل ، وها هي قد عادت تدهمه ، قوية مسيطرة ، بحيث لم يستطع إخفاءها . ولم ينتبه أحد من الحاضرين إلى أن فيما يقوله جواد الساخط كثيراً من الجدية ، وقد انتهره أبو جهاد بكلمة ، ثم أكمل حديثه ، وألقى الحاج نحوه نظرة عجلى من غير أن يصرف انتباهه عما يقوله أبو جهاد ، واحتسبها شعبان نزوة من نزوات جواد العديدة ، فلم يتدخل . أما جابر فلم يثر هياج جواد أي رد فعل لديه .

وكرر جواد :

– خلوني أخلّصكو منه ، هالكب .

ثم بعد أن صمت قليلاً :

– . . . ما أنا لو طاوعت نفسي كنت عملتها من غير ما أشاوركو ، بس خايف تقولوا : جواد متهوّر .

فقال أبو جهاد بلهجة من يردّ على اقتراح من غير أن ينتبه لحالة جواد :

– عمله زي هاي بتحلّش مشكلة ، وبالعكس بتساويلنا مشكلة ، أنا بلا مؤاخذة ، عارفها ، بتحطنا في وجه بعضنا حمايل وعشاير .

قال جابر بلهجة شديدة الحياد ، وقد بدا الحديث حول هذه النقطة يستأثر باهتمام الجميع :

– بلاش تقتلوه ، احبسوه ، بنوخذه على المغارة وبنخبّيه ، وخلّي اللي بدّو ياه يدوّر عليه!

وأكمل شعبان :

– وبنخبّر القيادة خلّيها تعمل اللي بتشوفه .

قال أبو جهاد بلهجة من يريد طيّ الموضوع من أساسه :

- المختار صارلو في القيادة ناس بتدافع عنه ، لو حبسناه بيعملوها حكاية وزيطة وزمبليطة ، وبعدين إيش الفايدة ، خلّونا في المهم ، أي متى بتنتهي مدة الإنذار؟

وغرقوا في موضوع الدفاع من جديد . ولم يعجب ذلك جواد فأخذ يغيب عنهم ، ثم نهض وخرج من المضافة ، ولعلهم اعتقدوا أنه خرج ليتمشى .

٢١

شاع نبأ الإنذار في القرية . وتحلق الناس في ساحة البيادر مجموعات مجموعات ، تكبر وتصغر بمن ينضم إليها أو يغادرها . وحمل المجاهدون بنادقهم وذخيرتهم من غير أن يستنفرهم أحد ، وانهمكوا في الأحاديث الدائرة في تلك الحلقات . وتوزع الأطفال بين الرجال ، أو تحلقوا في مجموعات خاصة . وكانت نسوة يذهبن ويجئن يُجرين مشاورة عاجلة متوترة مع هذا الرجل أو ذاك ، ثم يعدن متعجلات إلى دورهن ، أو ينضممن إلى المجموعات التي انعقدت حلقاتها أمام الدور التي تطل أبوابها على ساحة البيادر . كانوا بغير قيادة ، المختار في داره ، والحاج وشعبان متغيبان ، والشيخ في فراشه ، وكانوا يتشاورون فلا ينتهون إلى رأي . حلّت البلبلة . وحل الخوف على الأرض والدور والأهل ونمط الحياة المألوفة . وأطلت على الجميع أشعة شمس مولّية ، زاد اصفرارها جهامةَ وجوههم جهامةً . وذكّرهم مضي الوقت بالخطر الداهم .

وفاجأهم مشهد عربة يجرها بغل ، وقد حمّل واحد من أهل القرية أثاث داره وأسرته ، وأطل من طرف الساحة وهو يقتاد البغل باحثاً عن

السلامة .

في مقدوركم أن تتقولوا على الفلاحين ما شئتم ، أما عن حبهم لأرضهم وكرههم للرحيل عنها فهذه مسألة لا يطالها أي تقوّل . وما كان أقسى ما أحاط بالرجل الذي اعتزم الرحيل! وحتى لا تسيئوا الفهم أبادر فأقول : ما من أحد ضرب هذا الرجل أو بصق عليه ، كما يمكن أن تتصوروا . غير أن ما حدث كان أوقع من ذلك .

تصوروا بحراً من المشاعر امتزجت فيه أحاسيس مئات الناس بالقهر ، والظلم ، والعجز ، والاعتزاز ، وحب الأرض ، والنخوة ، والتمسك بمصير الجماعة ، وما إلى ذلك مما لا تصفه كلمات اللغة! تصوروا بحر الأحاسيس هذا وقد هاج دفعة واحدة في وجه رجل واحد! كان الجميع يتكلمون ، وكانت وجوههم تنطق بأبلغ مما تقول ألسنتهم ، وكانت أيديهم تتحرك ولها لغتها الخاصة ، والذين أعجزهم التعبير باللسان والوجه واليدين انفجروا بالبكاء وكأن مصيبة غامضة لكثرة ما هي رهيبة حلّت بهم .

وجاء المختار ، حمله الصخبُ على المجيء ، ولم يتبدل الحال بعد حضوره . ظلت حلقة هائلة من الرجال والمشاعر تحيط بمعتزم الرحيل . وضاع صوت المختار وسط الجلبة ، بينما كان ينبههم إلى أن الرجل لن يرحل ، وأنه أقنعه بالبقاء . ووقف الرجل الذي كان قد عقد طرفي قمبازه على وسطه فظهر ساقا سرواله الأبيضان ، وقف ذليلاً يسربله الخجل من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه . وتسمرت أقدام البغل في مكانه وظهرت في عينيه غباوة نوعه كلها . أما ركاب العربة ، من أسرة الرجل ، فكانوا قد هبطوا منها منذ بدأت الضجة واختفوا وسط الحشد .

واستمر الهرج والمرج . وبذل المختار قصارى جهده ليفرق الحشد ، لكن الرجال كانوا قد التفوا مثل طوق حديدي فأعجزه تفريقهم . وظل المختار

يصيح حتى كاد يفقد صوابه ولا أحد يصغي إليه أو يدري ماذا يقول . وامتدت يد المستاء لأن ما من أحد يصغي إليه فنزعت حطته وعقاله عن رأسه ، وألقت بهما على الأرض بحركة تعبر عن منتهى غضبه وضيقه . وسعت قدماه تشقان له طريقاً وسط الحشد ، وقد قرر أن ينصرف . وترك الرجل الراحل بغله وعربته وتبع خطوات المختار .

وكأنما كان الأمر مدبراً ، فقد وصلت الشاحنة في تلك اللحظة التي كان المختار يبعد فيها بيديه آخر من يقفون في طريقه ويكاد يتحرر من الحلقة الملعونة . ورأى المختار الشاحنة مقبلة نحوه فانحرف كي يتجنبها . ويبدو أن شعبان انحرف في الوقت ذاته بالشاحنة كي يوقفها بجانب الحشد متجنباً الاصطدام بالمختار ، فكادت مقدمة الشاحنة تمس المختار الذي أساء فهم حركة شعبان . وجأر المختار بصوت مرتفع وقد ظن أن شعبان أراد ان يدهمه :

- نفسك تعملها يا ابن فتحية!؟ مش ناقص إلا هذا!

وسرت في الحشد همهمة مفادها أن شعبان أراد أن يقتل المختار لو لم يفلت هذا منه بشطارته . وأخذ صوت المختار الشاتم يطغى ، بينما كان الصمت يحل شيئاً فشيئا :

- بيقودوكوع الذبح ، هذا الولد ، كلام أبو جهاد مخلاّش في راسه عقل ، مهَم الاثنين غُرب عن القرية ، ولا على بالهم ، يموتوا الناس وتترمل النسوان ، ويتيتّموا الاولاد .

وكان شعبان قد صار في مواجهة المختار ، وأخذ هو الآخر يصرخ ، وقد انفجر كل ما في نفسه من غيظ :

- اخرس ، اخرس يا خويّف! فلاّحينا رجال ، جدعان ، مش زيك!

وبسط المختار ذراعيه فانفردت عباءته وكشفت قمبازه ، وأخذ يدور

على قدميه كالمهووس هو يردد :

- بيسبني ابن فتحية ، مش ظايل غير هذا ، سامعين! بيسبني في وجهي ، الله الله!

وأتبع شعبان عبارته ببصقة وقعت على ظهر المختار الذي كان ما يزال يدور ويصرخ ، بدل أن تقع على وجهه .

وهتف رجل :

- بلاها يا شعبان ، خلّ الزلمة في حاله!

لكن حنق شعبان كان قد بلغ ذروته وسيطر على كل عضلة في جسده فوترها ، فوجد نفسه يمسك المختار من ذراعيه كليهما ويوقف دورانه ويرميه على الأرض ويرفسه بقدمين تناوبتاه بكل ما آتاه الحنق من قوة . وتصايح الرجال ، وأمسكوا بشعبان حتى سيطروا عليه ، ونحّوه عن المختار . وأقبل آخرون على المختار المرمي على الأرض فأنهضوه ، وأخذوا يسوون ملابسه ويهدئونه .

كفّ المختار عن الصياح ، ونهض ، ولزم الصمت ، وأخذ يدير ناظريه في الواقفين حوله ، يعاتبهم بعينين اندلق منهما إحساسه بالمهانة . وحاول أن يفعل شيئاً يستعيد به نفسه ، فغمغم بكلمات للرجال الذين أبعدوا شعبان ، ثم همّ بأن يقول شيئاً بصوت مرتفع غير أن الخجل حبس عنه الكلام . وداهمه إحساس طاغ بالمذلة وبالندم . لقد وضع نفسه في هذا الموضع الذي جعل شعبان ، وهو من جيل أصغر أبنائه ، يضربه ، هكذا علنا أمام الجميع ، فلا يتصدى له أحد . وتحرك بخطوات بطيئة ، مغادراً الرجال الواقفين حوله بغير تحية . وطنّت في رأسه أسئلة تلسعه لسعاً : كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ أي خطأ ارتكبه وهو الحريص على سلامة القرية ، أين ذهبت مهابته؟ وهل يستطيع أن يرفع رأسه بعد الآن

بين الفلاحين؟

كانت الأسئلة تطن في رأسه ، ولا يجد لها جواباً ، بينما كانت خطواته قد ساقته باتجاه دور القرية وأذناه تلتقطان أصداء الضجيج الذي انبعث من الحشد بعد أن غادره . وتساءل : ماذا يقولون ، وكيف ينظرون إلى الأمر؟ من المؤكد أنه لا يلام إذا غلبه شعبان في العراك وهو الشيخ المسن ، لكنهم سيسخرون منه في المستقبل إذا تركها لشعبان ولم ينتقم منه ، وإذا انتقم منه فسينقسمون ، فريقاً معه وفريقاً مع شعبان ، لم ينقسموا اليوم لأنهم احتسبوها ساعة غضب ، ولأن ما يشغلهم أكبر من هذا ، أما بعد ذلك فستصير قصة ، سيستخفون به إن بلعها وسكت ، وسينقسمون إن انتقم .

وصار يمشي ، وفي رأسه تدور حسبة ، من سيكون معه ومن سيكون ضده ، يجد أن غالبية الناس تلومه فيزداد إحساسه بالمهانة ، ثم يتذكر ما قدمه لهم من خدمات وما له من أفضال عليهم ، فيهدأ ليعاود حساباته من جديد ، وقد اختلط في رأسه كل شيء ، وما عاد في مقدوره أن ينظم أفكاره .

وقفزت إلى مخيلته صورة أبي جهاد ، إنه الشيطان الذي أفسد عليه الناس ، لقد لعب في عقولهم وجعلهم ينسون مقامات الكبار وينسون حتى أشغالهم . وما أسهل ان يترك الناس الحصاد ويتبعوا أول مفزع حاملين البواريد ، بدل المناجل! وشعبان نسخة من أبي جهاد وهو مثله لا يعرف قيمة العمل في الأرض . أبو جهاد ترك الأرض لإخوته ، وشعبان تشرد في المدينة ، وكلاهما نسي أخلاق القرية وعاداتها ، والغريب أن الفلاحين يستجيبون لهما ولا يسمعون كلامه هو ، غير أنهم سيسمعونه حين تحل بهم الكارثة ، وسيأتون إليه ويعترفون بأنه أعقلهم ، ويطلبون منه السماح ،

ولكن ما الذي يضمن له توبة الفلاحين ، حتى لو احتل اليهود القرية فسيلومه ناسها على الرغم من أنه حذرهم ، وإذا كانوا يتهمونه الآن همساً فسيقولون له غدا في وجهه : أنت خائن وقد بعتنا . ليس أمامه سوى حل واحد : أن يبقى في القرية إذا هُجِّر أهلها كما هجّر أهالي قرى أخرى ، وليكن ما يكون! سيقولون : خائن ، لكنه سيبقى ، هنا ولد ، وهنا تربى ، هنا شهد أيام عزّه ، وهنا سيموت . لكن كيف يعيش في القرية إذا تركها الآخرون ، من الذي سيزرع ويحصد أرضه ، وهو لا يظن أن اليهود سيقبلون أن يعملوا أجراء عنده ، وأولاده لا يكفون لخدمة الأرض التي يملكها؟ واختطلت الأفكار في رأسه من جديد واشتد الطنين .

- يا حيف يابا ، ضربوك!

أخرجه صوت زكية من تأملاته :

- هسْ ! لا تصوتي يا بنت!

- قالوا لنا إنهم ضربوك .

- شعبان تطاول علي ، حبيب قلبك يا زكية!

صمتت زكيه ، وسارت بجانبه . أما هو فقد وجد نفسه يبكي فجأة ولا يستطيع أن يغالب الدموع التي انفجرت ، وأحس بنفسه يكاد ينهار على الأرض ، فأسندته زكة ، وكفّ هو عن مغالبة الدموع وأرخى لها العنان حتى وصل مضافته . ثم جاءت زوجته ، فوقفت إزاءه مدهوشة لا تدري ماذا تفعل . وكان بكاؤه قد تحول إلى نهنهة .

قالت الزوجة :

- الله يجازيهم اللي عملوها !

وهمت زكية بأن تقول شيئاً ثم عدلت ، فتحركت تريد مغادرة المضافة ، فاستوقفها ، وقد لمع في عينيه بريق غريب ، دام لحظة ثم اختفى :

- ظلّي ! إلي حكي معك ، هذا الولد طالب يتجوّزك ، والشيخ حسن ترجّاني ، وقال إنه نفسه تتجوّزو قبل ما يموت . إيش رأيك؟

- . . .

- ساكته . كأنك موافقه .

قالها بلهجة خلت من اللوم ، وظلت زكية صامتة وظل سؤاله عالقاً بعينيه :

- احكي . . . إذا بدكيش اياه أنا ما بجبرك .

فتدخلت الأم التي بدا أن لهجة زوجها قد حيّرتها ، وحيّرها أكثر فتحه الموضوع في ذلك الوقت بالذات ، وراحت تنتقي كلماتها :

- البنت رايها من رايك يا بو خالد ، الدغري هي كان عندها ميل للولد ، بس بعد اللي عمله لو تطلع عينه!

فرد على الفور ، وقد لمع بريق عينيه لحظة أخرى ثم انطفأ من جديد :

- لا! لا! لا! اللي صار ملوش دخل ، وبخبّيش عليك أنا أعطيت كلمة للشيخ ، بس قلت له بعد ما أشاور زكية .

ففغرت الزوجة فمها من كلامه ولهجته . ولعبت الحيرة بوجه زكية فغيرته أشكالا وألواناً ، ولربما شكت بأن أباها يمتحنها مجرد امتحان ، وألح هو :

- إيش بتقولي يا بنت؟

فلم تجد أفضل من أن تنسحب ، راكضة . وظلت الزوجة تنظر إليه من غير أن تفارقها الدهشة ، ثم كأنما جمعت شجاعتها :

- إيش هذا اللي بتقوله للبنت . باينتك بتحكي جد ، بعد اللي صار .

- إيش صار؟ خلاف بسيط ، والزلام بتختلف وبتتصالح؟ إذا كان شعبان اعتدى على المختار مش هذا معناته إنه جدع وقد حاله؟!

وغاب مظهر الدهشة عن وجهها ليحل محله قلق مفاجىء :

- هذا حكي عاقلين؟! أبو خالد ، أنا عارفتك كويّس ، إحك لي ، إيش في راسك؟

- لا في راسي ولا برّه راسي ، بيعزّ علي أرد طلب للشيخ ، الزلمة بيموت ، وطلبه أمانة . بعدين شعبان جدع مش مسخرة!

فقالت الزوجة متقوية بشكوكها :

- اتركني من هالحكي ، هذا حكي بيعبّيش مخّي ، أنا اللي عارفاك ، إذا كنت ناويلك نيّة على شعبان ، شوف شغلة غير هالشغلة!

كان ما يرمي إليه المختار مختلفاً تماماً عن ما ظنته زوجته خطة للتستر على انتقامه من شعبان . فقد كان وسط اللوثة التي أصابته ، وقد تعرض لتلك الإهانة العلنية ، قد اعتقد أنه يمكن أن يكسب شعبان إلى صفه بهذا الزواج ، وسيضرب أكثر من عصفور بحجر واحد : سيكسر عين الشيخ بالموافقة على طلبه ، وسيصبح شعبان نسيبه ويكف عن معاداته ، فإذا كسب شعبان والشيخ فقد كسب أهل القرية ، وإذا كسبهم أبعدهم عن أبي جهاد . وقد ابتسم لزوجته القلقة :

- أنا مش ولد حتى أزعل من ولد ، الله يسامحه ، ساعة طيش ، بس أنت شايفه : زكية بدها ياه ، ولازم نسترها ، بدّي استرها قبل ما أموت ، مش بيقولوا اللي بيغنوا : الحب مش عيب ، وهي حبّت .

قالت زوجته وقد ظهرت شكوكها سافرة .

- سلامتك يا بو خالد!

- مفكراني انخبلت ، ها؟ أنا فيي عقل بيوزّع عليهم كلّهم . طيّب أنا علي الطلاق حبيتك ، وحبيت المرة اللي قبلك ، وما تزعليش ، واللي قبلها كمان!

فخبطت الزوجة التي تحققت شكوكها صدرها هلعة ، وضحك هو ضحكة ليس لها معنى ، ثم قال بلهجة طبيعية استعادها فجأة :

- روحي نادي البنت ، وانسي اللي حصل! الكبير كبير بيحملش زعل على الاولاد ، شعبان من جيل ولادي وأنا سامحته .

فخرجت هي بين مصدقة ومكذبة . وحمل ثغره الهرم ابتسامة كادت تتحول إلى ضحكة ، لو لم يكتمها حين تذكر أنه يجلس وحده .

٢٢

حين غادر جواد مضافة أبي جهاد كان محنقاً بسبب عدم موافقتهم على اقتراحه ، وقد قر في ذهنه أنه لا بد من التخلص من المختار ، وما داموا مترددين فسيأخذ الأمر على عاتقه ، وليكن ما يكون . وكان مقتنعاً بأنهم سيحاولون منعه ، وسيتبعونه ليوقفوه ، ولذا فقد اختار طريقاً للعودة إلى القرية لا يتوقعون أن يمضي فيه ، وسار وهو يفكر في الوسيلة التي يمكن ان يقتل بها المختار . وخطر له أول الأمر أن يمضي إليه مباشرة ، إلى مضافته ، وأن يقتله برصاصة من بندقيته الكندية ، أمام الموجودين ، حتى يعرف الجميع أنه هو الذي قتله وأن الخائن قد مات على يديه . غير أن هذا الخاطر لم يستقر في ذهنه طويلاً . فقد خشي أن يتدخل الموجودون ويتمكنوا من منعه ، وخشي ملامة أبي جهاد له سواء نجح أو فشل . وتصور أنه لو قتل المختار خفية فستضيع المسألة ولن يفطن إلا القليلون إلى أنه هو الذي فعلها . وسيكون من الأسهل عليه بعد ذلك أن يواجه أبا جهاد ويقول له إنه فعلها بطريقة تساعده على إنكار مسؤوليته .

وفكر جواد في مثل تلك الطريقة ، وتراءت له خطط عديدة ، كان

يصرفها من ذهنه الواحدة بعد الأخرى . مشى وفكر . وكان اضطرابه يزداد كلما عجز عن الاستقرار على رأي قاطع . وقد قادته قدماه إلى دار بارعة التي لم يدخلها منذ يوم رحيلها . كانت كل أشياء الدار باقية على حالها لم تمسها يد ، وقد جفت الأعشاب التي نمت على أطراف باحتها . وكان الفراش الذي اعتاد أن يجلس عليه في أوقات الحر ممدوداً ما يزال في صدر الباحة في مستظل الحجرة الوحيدة في الدار . وكانت آنية الطبخ التي يعرفها متروكة ، مهملة قرب الطابون ، وقد علاها الغبار . وواجهه عند فتح باب الحجرة الهواءُ المحبوس برائحته ذات الشميم المنفّر . وكانت حوائج بارعة القليلة مرتبة كعادتها وهامدة ، وقد طالعه فوق كومة الفراش ثوب من ثيابها يبدو أنه ألقي على عجل عندما استبدلته آخر مرة بالثوب الذي ماتت فيه . وقد افتقدها في تلك اللحظات كما لم يفتقدها من قبل ، وأحس بضيق من تلك الدار التي خلت منها ، فغادرها على عجل . ومضى إلى المقبرة . ووقف أمام قبرها برهة ، ثم جلس بإزاء القبر وكأنه يدنو منها ليستشيرها فيما هو مقدم عليه . لو أنها حية فمن المؤكد أنها كانت ستعارضه ، بهظتها الحياة فصارت تخاف من أي شيء ، ولكنه سيقتل المختار ، وسيقطع رأس الحية التي سممت حياة القرية . وقد طالت قعدته عند القبر ، وهو يناجي بارعة تارة ويعود لما يشغله تارة أخرى .

وعندما سمع جواد ضجة الرجال الذين تجمعوا في ساحة البيادر ، نهض وقد خشي أن يلحظوه ، واتخذ طريقاً موارباً حتى وصل إلى دار الشيخ ، فاستقبلته أم حسان بوجهها المضطرب ، وقالت قبل أن ترد على تحيته :

- الشيخ بدّو يموت ، ومحدّش منكو مساوي إشي!

فرد ، وهو شارد الذهن :

- يموتو عدوّينه ، طول العمر إله .

ثم أكمل بلهجة نشطة :

- . . . وحياة رأس الشيخ غير بكره أروح ع «المجدل» وأجيب له حكيم ، ولو بالبارودة .

فقالت هي :

- بيطلعش منك إلا الحكي ، صارلو شهر ونص مرمي وانتو كلكو بتحكوا .

- استني . . . وبكره بتشوفي!

فلوت بوزها مشيرة إلى عدم اقتناعها ، وضايقته حركتها ، فغادر الحجرة . ولقيه حسان في باحة الدار ، وبادره قائلاً :

- بيقولوا إنّ اليهود بدهم يهجموا ، إيش رايح تساوي يا عم جواد؟

قال جواد وهو يرفع حسان بيديه ويحتضنه :

- رايح أساوي إشي ماحدش ساواه ، بس استنّى!

قال حسان بحماس الطفل الذي كانه :

- خذني معك ، احنا اتدربنا ، أحسن من المجاهدين .

وهتفت أم حسان من الداخل :

- بدري عليك ، بيكفّيني واحد!

فتبرم حسان وتملص من ذراعي جواد ووقف إزاءه :

- أنا مش صغير ، خلّصت الصف الرابع ، ولعلمك ، أنا بخافش من إشي . امبارح تراهنت مع الاولاد ، ورحت لحالي ع «بير الشوم» ، في العتمة ، مشق مصدق؟

وجاء صوت الأم من الداخل :

- مجنون ، أبوك مريض ، وانت فلتت ، يا ريت أخْذَتَك العفاريت!

أما جواد فقد قرفص بينما كانت الأم تنفث غضبها ، واحتضن حسان ، وقال له بفرح :

- جدع ، والله العظيم جدع ، زي أبوك .

ثم رفعه بيديه وأخذ يدور به . وتساءل حسان :

- بدّك توخذني معك ولا لأ .

- بوخذك ، بس مش هالحين .

فرفسه حسان بقدميه وأرغمه على أن يتركه ، وغادره غاضباً وانطلق خارجاً . ومضى جواد في إثره بخطوات ناشطة ، وقد استوت في رأسه الخطة بعد أن سمع حديث حسان : سيأخذ المختار إلى «بير الشوم» ، ويقتله هناك ويلقيه في البئر ، وإلى أن يكتشفوا أمره يكون الحلاّل قد حلّها . وقد أثلج ذلك الاكتشاف صدره وأشاع في نفسه المرح . ووصل ، وهو على تلك الحال ، إلى حيث يحتشد الرجال في ساحة البيادر . وصار يمازح من لقيهم ولا يعبأ بدهشتهم . وشهد ما جرى في الساحة من غير أن يتدخل بغير التعليقات الساخرة . وعندما فرغ شعبان من مشاحنته مع المختار ، دنا جواد منه وقال بلهجة مستخفة :

- كنت خايف انّك تخلّص عليه!

فقال شعبان من غير أن يفطن لسخريته :

- خلّينا في المهم ، لازم نوزّع المجاهدين حراسات ، مين عارف إيمتى بينفذوا إنذارهم .

وردّ جواد بلهجته المستخفّة :

- وزّعهم ياخوي ، أنا عليّ شغلة ثانية .

فنظر شعبان إليه برهة غير فاهم ، ثم تركه وانصرف ليجمع المجاهدين ويصدر إليهم التعليمات . وقد راقبه جواد ، ورو ح الاستخفاف بما يفعلون ما

زالت تسيطر عليه . وظل واقفاً ، بينما أخذوا ينصرفون وقد بدأ الظلام يحل شيئاً فشيئا . وغرق من جديد فيما يشغله إلى أن نبهه صوت شعبان :

- مصمم متجيش معانا؟

فردّ جواد بلهجة خلت من الاستخفاف :

- بقول لك عليّ شغلة .

ولكي يقنع صديقه ، انصرف على غير هدى . وقادته قدماه على الطريق الذي يمضي نحو المستعمرة ، وقد أخذ يفكر في وسيلة يستدرج بها المختار إلى البئر . وتبين له أن ذلك ليس سهلاً . فتباطأت خطواته وسط السهل الذي تلفّه الرهبة والصمت والقلق . لو ذهب إلى المختار ودعاه للخروج فلن يقبل ، ولأي سبب يقبل ذلك الرجل الحذر الذي يشكّ فيه أصلاً؟ وانصرف ذهنه إلى حسان ، لماذا لا يستخدم حسان ، سيصدق المختار الولد إذا دعاه بحجة أن أباه محتاج إيه . ولما اتضحت في ذهنه تلك الفكرة فقد عاد مسرعاً إلى دار الشيخ ، ونادى حسان فأتاه الولد راكضاً ، فأخذه ومضى به ، هارباً من الأم التي خافت على ولدها وأخذت تدعوه ليرجع .

توارى جواد في مكان مظلم بمواجهة دار المختار بعد أن تفاهم مع حسان على أن يدعو المختار ثم يعود . وعندما عاد حسان صرفه جواد بحجة أن أمه قلقة عليه ، ووعده بأن يمرّ عليه ليأخذه بعد أن تغفو الأم ، وأوصاه بأن يظل يقظاً حتى يأتيه . وانتظر جواد حتى خرج المختار ، فهدده ببندقيته وطلب منه أن يسير أمامه ، واتجه به على الدرب الذي يوصل إلى «بير الشوم» .

ولكم أن تتصوروا كيف سيطر الهلع على وليد أبي حامد في بداية الأمر حتى أخرسه . وقد أمسك جواد بالبندقية ضاغطاً عليها بكل قوته ، وكأنه يضغط علي إرادته لكي لا يتردد في تنفيذ ما اعتزمه ، وكان قد صار كلّه

مضطرباً . وفجأة تساءل المختار بلهجة حنونة ، فاجأت جواداً :

- إيش ناوي تعمل يا ولدي؟

سأل ذلك ، وهو يسير أمام جواد ، وهما يلتفان حول البركة .

- اخرس ، متحكيش ولا كلمة!

- ما وصلتش بنا لها الحد . . .

- اسكت ، مترفعش صوتك!

- كيف بدّي أسكت ، انت انجنيت؟!

- بقول لك اسكت!

- مش رايح أسكت ، ليش أسكت ، إذا كنتوا انجنيتوا أنا لسّه في راسي عقل .

فنغزه جواد بفوهة البندقية نغزة أفلتت منه رغم إرادته . وصرخ المختار بأعلى صوته : «آخ!» ، وسقط على الأرض ، وأخذ جواد يستنهضه ، غير أنه تشبث بالأرض ، وظل يصرخ :

- بتضربني في يوم عرس بنتي؟

وصرخ جواد بدوره من غير أن يتنبه لما قاله المختار :

- اخرس! يا عجوز الكلب ، بدّك تموت زي الفطيسة .

ويبدو أن المختار قد صحا لحظة من لوثته وأدرك ما الذي ينوي جواد أن يفعله به ، فنهض متحاملاً على نفسه ، وسار من جديد بخطوات داخلها الاضطراب ، ثم عاد بعد قليل إلى لهجته الحنونة :

- بلاش يا ابني ، برضه بيهونش عليك تمنعني أحضر عرس بنتي ، ما شعبان صاحبك وبيزعل .

- اخرس . بقولك! وما تتهبلش علي يا نجس!

- مش خرسان . أنا وليد أبو حامد .

ومضى حوارهما من جديد في ذلك النحو . ومن المدهش أن جواد لم يطلق النار ، على الرغم من أنه كان يعتقد أن استهبال المختار ليس سوى حيلة ، بل إن قتله لم يخطر بباله في تلك اللحظات . كان قد وضع في ذهنه أن يأخذه إلى البئر ، وقد غاب عن باله ما عدا ذلك ، وأقبل رجلان من الحراس ، نبههما الصوت ، مستفهمين ، فاختفى جواد على الفور .

أدرك جواد أن الرجل أفلت منه ، وسيطر عليه الإحساس بالخذلان ، وتساءل : لماذا لم يوجه له رصاصة في المضافة وليكن ما يكون؟ هل كان ذلك تحسباً للنتائج أم جبناً من مواجهة المسؤولية؟ ولماذا لم يقتله في الطريق؟ دارت في رأسه تلك الاسئلة واختلطت ، واحتدم اضطرابه . ولم يَدْرِ ماذا يفعل . وأحس بحاجة لأن يرى أبا جهاد ، وفكر في أن الوقت متأخر لكن حاجته كانت أقوى . فاتجه بخطوات متسارعة نحو «الخيام» . كان يجري ثم يعود إلى المشي حين يتعثر أو يتعب . ووصل القرية وقد بلغ اضطرابه ذروته . واستوقفه حراسها وتعرفوا عليه ، وحين لاحظوا اضطرابه سألوه عن السبب فأجاب متهرباً : «شيء لا أستطيع أن أحكيه» . وسأل عن أبي جهاد ، فأفهموه أنه أخذ مجموعة واتجه إلى المعسكر يستطلع ما فيه ، وداهمه إحساس بالتوحد . وقد حاولوا ان يسرّوا عنه لكن إحساسه لم يفارقه ، وغادرهم عائداً إلى قريته ، سار إليها بخطوات متثاقلة تتنازعه هموم ثقيلة . ولم يعرف إلى أين يمضي بالضبط . وخطر له أن يستعجل الخطو وينضم إلى الحراس . ثم لم يلبث أن نفى ذلك الخاطر . وبزغ القمر وهو على الطريق ، ولاحت أمامه عن قرب معالم القرية الهاجعة . كان الهدوء يلف كل شيء فيزيد كآبة نفسه كآبة . وقد ترامت على جانبي الطريق الحقول بين محصودة وغير محصودة . ولاحت أغمار الزرع المحصود تحت ضوء القمر وكأنها كائنات هاجعة ألجأتها الهموم إلى الارتماء بغير

حراك فوق الأرض الحانية . وبدت أشجار البرتقال في البيارة مبهمة الأشكال وقد انغرست جذوعها في العتمة حيث لا يصل الضوء ، وامتدت فروعها لتقول شيئاً ما ، لعيناً وقاسياً ومقبضاً للنفس .

وانتبه جواد إلى أنه يمر بمحاذاة «بير الشوم» ، واجتذبه بياض كومة الكلس اللامع ، ونازعته نفسه كي يمضي إليه . ولم يستطع أن يقاوم نازعه الجديد ، فانعطف نحو اليمين ومضى حذراً على الدرب الوعر ، والكومة تبرز أمامه مثل عمامة هائلة لجنيّ مخفي . شجع جواد نفسه ودنا من حفرة البئر وألقى نظره . كان الظلام ينتصب داخل الحفرة فلم ير غير حوافّها المنارة بضوء القمر . وقد داهمه إحساس قوي بالرهبة فجاهد كي يتغلب عليه . وصارت مجاهدته تحدياً . فانبطح على الأرض وأدلى برأسه داخل الحفرة وصرخ : «جواد مش جبان» . فردد الجوف المعتم صدى كلماته ، وأخذ هو يكررها حتى صار الصدى طنيناً متلاحقاً يملأ نفسه بمشاعر شتى متداخلة . وهجع وقد استغرقه الوضع كلية فلم يفطن إلى وقع الأقدام التي اقتربت من البئر . وبدا أن القادمين لم يفطنوا بدورهم لوجوده . وقد تنبه ، فقط ، حين سمع لغطاً اختلطت فيه اللغتان العربية والعبرية . واعتقد لأول وهلة أنه واهم ، وأن ذلك من عمل الجن ، فتسمر في مكانه . وقال صوت بعربية فيها لكنه أجنبية :

- قلت لكم ، هنا لا يأتي أحد .

وردّ صوت بالعبرية بكلام لم يفهمه جواد . وكان قد بدأ يخرج من توهمه وهو يصغي إلى الحوار والأصوات القريبة منه . ولم يجد ما يفعله أفضل من أن يظل ساكناً وقد تأكد أنهم من الأعداء . وصارت كل حواسه متنبهة لما يدور حوله . وكان يحس رجع حركتهم ولا يدرك ماذا يفعلون . وميّز بين الأصوات صوتاً عبرياً يتكلم أكثر من غيره ، وأدرك من الحوار أن

صاحب الصوت يفهم العربية حين يخاطب بها، لكنه يردّ دائماً بالعبرية.

ثم صرخ صوت من خلفه: ما هذا؟ وقد أدرك بغريزته أنه هو المقصود، وسرت في بدنه رعشة باردة جعلته يتحرك، وأتته على الفور ركلةٌ تلقاها على جنبه وسؤالٌ عدائي: «ماذا تفعل هنا؟»، فنهض وظل صامتاً، وواجه راكله. ورأى جواد أمامه مع الرجل بضعة رجال آخرين يلبسون الملابس العسكرية ويحملون رشاشات صغيرة الحجم، وقد علقت على خصورهم مسدسات. واستاقه الذي ركله نحو رجل يجلس على حجر كلسي. وسأله الرجل بعربية ركيكة:

- إيش أنت بتعمل؟

وعرف جواد فيه الصوت الذي ميّزه، وظل صامتاً.

قال الرجل كلاماً بالعبرية، وتوقف لحظة حين قدم له أحد أعوانه بندقية جواد التي وجدوها حيث كان ممدداً بجانب الحفرة. ثم قال الرجل عبارات أخرى، لووا بعدها ذراعي جواد وربطوا يديه وراء ظهره وأوثقوا قدميه ونحوه جانباً، وألقوه على الأرض، وانصرفوا لشؤونهم.

وأخذ يرقب بعينيه ما يجري، صاروا يتحادثون بالعبرية وحدها. وبعد أن أجروا ما بدا لجواد أنه مشاورة قصيرة، انطلق عدد منهم وبقي قليلون، وجاءه الذي ميّز صوته، وقد حزر أنه آمرهم:

- مجاهد، مش هيك، عليك بارودة.

- ...

- لأ، جدع! مابتردّي! لازم بنشوف، اسمك بنعرف.

- ...

- انا لازم بنعرف، إذا مش هلأ بعدين، مجاهد، منشان شو انت أجا عند البير؟

- ...

ونادى الآمر اسماً ، فلباه شاب ضيئل الجسم نشط الحركات ، تقدم نحوه مسرعاً واستمع إلى كلام الآمر بالعبرية ثم توجه نحو جواد :

- القائد بيسألك ، ليش انت هون؟

- صدفة .

- مش معقول ، نحن بنعرف إنه الفلاحين ما بيجوش لهون أبدا .

وتبادل الشاب مع الآمر حواراً قطعه صوت رصاص انطلق من ناحية القرية . وانصرف الآمر والشاب كلاهما عن الأسير . عندها فقط ، أدرك جواد دفعة واحدة حقيقة الخطر الذي داهم القرية .

كان ذلك هو الهجوم المرتقب ، حشدوا له وهاجموا أضعف القرى ليبثوا الرعب في سواها .

وأصبح ذهن جواد مشتتاً بين الأفكار التي ملأت رأسه وبين محاولته أن يحزر مجريات المعركة من خلال متابعة أصوات الرصاص المنطلق . كانت أصوات الرشاشات هي الطاغية ، وكانت تتناهى إلى سمعه بين الطلقات أصوات رجال يتنادون ، ولا يفهم فحوى نداءاتهم ، وأصوات عويل مفجع لنسوة لم يستطع بطبيعة الحال أن يتعرف عليهن . وانطلقت أصوات قنابل لها دوي هائل ومتمكن . ثم لم يلبث أن ظهرت نيران حرائق من هنا وهناك ، بينما ظلت أصوات مختلف الأسلحة تتلاحق . وتململ هو في وثاقه ، وحاول أن يتحرك ، غير أن وثاقه كان محكماً فأقعده ، وسيطر عليه الإحساس بالألم والقهر . وشخصت عيناه نحو القرية التي صار كل ما فيها يحترق . وصارت أذناه تميزان أي صوت مهما ضؤل . ورسم في ذهنه صورة تطابق مدلول الأصوات التي تنتهي إلى مسمعه . تصور المجاهدين وهم يدافعون عن القرية ، والمهاجمين بأسلحتهم المتفوقة

يحصرونهم ويضيقون عليهم الخناق ، والحلقة تضيق وتضيق ، بينما يتناخى الرجال من أجل الصمود ، ويأملون بالنجدات التي قد تصل من القرى المجاورة .

أما الذين حول جواد فكانوا مشغولين عنه ، يتابعون أخبار الهجوم بجهاز اللاسلكي ويرسلون الأوامر ، ويتهيأون لشيء لم يستطع أن يحزر ما هو . وهو نفسه لم يكن مشغولاً بهم إلا قليلا ، وكأنه ليس أسيرهم .

خفّ تواتر الطلقات وأصبحت زخات الرشاشات تنطلق متقطعة بين وقت وآخر كأنها تلاحق شخصاً . وانبثق من الأفق الشرقي ضوء السحر الذي يسبق الفجر ، بينما صار القمر شديد السطوع باستدارته الكاملة في وسط السماء . وأقبلت من جهة القرية مجموعة من الأهالي يقتادهم رجال مسلحون ، وكانت مجموعة أخرى تتبعهم ، وثالثة ، ورابعة ، وانتظمت على الطريق قافلة من مجموعات وافرة العدد يسوقها المهاجمون نحو البئر وأيديهم على أسلحتهم وحركاتهم نزقة ، قافلة صامتة ، يلفها الرعب والرهبة والقلق الذي تفصح عنه حركات متحفظة من الواضح أن أصحابها لا يدرون ماذا يفعلون . ووصلت أولى المجموعات إلى البئر ، ثم تبعتها المجموعات الأخرى . وتبادل جواد مع القادمين نظرات ، مشتتة أحياناً ، ومركزة أحياناً أخرى .

ونشط الآمر وهو يصدر الأوامر المتلاحقة . وقد فصل الرجال عن الآخرين من النساء والأطفال . وجاء إلى جواد من فك وثاق قدميه واقتاده ليوقفه في صف الرجال . ثم صدر أمر للجميع بأن يجلسوا مقرفصين ، وأن يضعوا أيديهم على رؤوسهم ، وأن لا يتحركوا أو يتكلموا . وانتظمت حول البئر حلقات من الأهالي الذين امتثلوا للأوامر . ولم يستطع جواد أن يستقر في جلسته مقرفصاً بينما كانت يداه موثقتين . وقد لاحظ أحد المهاجمين

ذلك فجاء إليه وأوقفه . وأحاط المسلحون بالمقرفصين في حلقة حراسة محكمة ، بينما تجمع معاونو القائد حوله وسط الحلقات في الفسحة التي أبقيت خالية حول البئر . وتبادل القائد حديثاً على جهاز اللاسلكي مع صوت كان يسمعه الجميع ، ثم ناول الجهاز لأحد معاونيه .

ثم ظهرت على الطريق الذي أتت منه مجموعات الأهالي مجموعة صغيرة تسير وسط حراسة مشددة . وكان اولئك نفر من المجاهدين وكان معهم جرحى ، وسارت خلفهم جماعة أصغر منها ، تبين جواد أنهم جماعة من المهاجمين يجرجرون بينهم الشيخ حسن ومعه زوجته وابنهما حسان الذي التصق بأمه ، ومعهم عزمي الدحدول بجسده الممتلىء وإليتيه اللتين ترتجان وراءه .

وقد اقتيد الشيخ مباشرة إلى الآمر ، وكان مسلحان من المهاجمين يسندانه ، بينما اقتيدت أم حسان وحسان إلى الحلقات . ولاحظ جواد ، وكان ذهنه قد صفا صفاء مدهشاً ، كيف تزحزحت نسوة ليفسحن لها ولابنها مكاناً أقرب ما يكون إلى وسط الحلقة .

ووجه الشيخ حسن ، إذن ، بالآمر ، وقال أحد مقتاديه : الشيخ حسن! ونطق الآمر بكلمات عبرية ، نشط رجاله بعدها ، وابتدأت المجزرة . . .

لماذا أصفها لكم؟ هل بينكم من لم يشهد مجزرة أو يسمع أو يقرأ أوصافاً كاملة لها ، أو يشترك في مناسبات إحياء ذكريات المجازر التي تلاحقت في تلك السنة فوق أرض فلسطين أو وقعت بعدها . وهل أستطيع أنا أو أي واحد ممن وصفوا تلك المجازر أو كتبوا عنها أن يحيط بمشاعر الناس وهم يرون الضحايا من أحبائهم وأقربائهم تتساقط أمامهم ، بينما يعلمون أنهم سيكونون الضحايا اللاحقين؟ وأيّ فائدة ستجنونها إذا وصفت لكم كيف أجهزوا على الناس ، وكيف أُلقيت جثثهم في البئر؟

أليس من الأفضل أن أحدثكم عن ذلك الأمر الفريد الذي تم فجر ذلك اليوم : لقد تمكن حسان من الإفلات ، وهو نفسه لا يعرف كيف واتته الشجاعة ، وهو نفسه يقول ربما كان الخوف هو الذي أسلم ساقيه للريح فمضى يجري ويجري ، والرصاص يلاحقه ، وصيحات الحقد من الجلادين ، وصيحات الفرح من الذين لم يُجْهَزْ عليهم بعد .

أما جواد فقد هرب عامداً ، حفزته حركة حسان حين أفلت ، ووجد في يديه قوة لا يعرف من أين واتته ، فقطع رباط يديه وانطلق يجري وراء حسان حتى أدركه . ولأمر ما ، تعثر حسان وسقط في اللحظة التي أدركه جواد فيها ، فحمله جواد معطياً ظهره هو للرصاص كي يحمي حسان ، وأتته الطلقة وهو يحمله ، فسار به خطوات أخرى وهو مصاب ، حتى أتته طلقة أخرى ، فأفلتت يداه حسان ، وأشار له كي ينحدر نحو الوادي ، وبقي جسد جواد ممدداً فوق الأرض .



٢٣

صحا ناطور البيارة على صوت الرصاص ، واتخذ لنفسه مكاناً يشرف على القرية ، وراقب عن بعد ما كان يجري فيها ، وقد مط شفته مرة ، وظلت ممطوطة كأنما نسيها على ذلك الوضع . وظل في مرقبه إلى أن توقف إطلاق الرصاص في القرية ، وكانت الحرائق قد شرعت تأكل دورها كلها ، فانحدر من مكانه المشرف ، وقد نوى أن يعود إلى مسكنه في أسفل البيارة . وكان يبدو بجسده الهائل ووجهه الكامد كأنه كائن لا صلة له بذلك العالم الذي حددته أحداث تلك الليلة . أما في داخله فقد كان الناطور يدرك في صورة مبهمة أن الهزيمة قد حلت بالقرية ، وكان في الصورة ذاتها مصمماً على ألا يتأثر بما جرى ، وقد عزم على أن يبقى في البيارة كما كان دائماً . ورأى عند المنحدر هيكل رجل يسير كأن الأمر لا يعنيه هو الآخر . واقترب الناطور من الرجل تحت تأثير دافع لا يمكن تحديده فعرف فيه المختار وليد أبو حامد ، فمطّ شفته لحظة ثم سحبها ، وظهرت على سحنته جهامة من ذلك النوع الذي تعجز الكلمات عن وصفه ، وقد لحظه المختار ، وأرسل نحوه نظرة مجانبة ، وقال من غير أن يتوقف :

- ما عزموكش على العرس؟

وبالصورة الغامضة ذاتها ، أدرك الناطور أن الأمر غير طبيعي ، فهبط المنحدر متعجلاً واستوقف المختار ، واقتاده ، وهو مسلس قياده تماما ، إلى الحجرة التي يسكن هو فيها ، وسأله بلهجة خلت من أي دهشة :

- إيش صار يا بو خالد؟

قال المختار :

- إشي بيجنّن ، أبوها وما أحضرش العرس! بترضاها لعمك أبو خالد؟

فهز الناطور رأسه وظهرت في عينيه علامة اندهاش .

قال المختار :

- أنا بحكيلك كل اللي صار ، اتفقنا نجوّز زكية لشعبان ، والليلة كانت ليلة عرسهم ، أجو بسم الله الرحمن الرحيم الجنّ أهل بير الشوم ، وحلفوا إلا إنّ يكون العرس عليهم ، بيصير ، ما بيصير ، الجماعة قالوا : لا يمكن ، انت يا وليد ابو حامد إلك أفضال علينا ولازم نسدّك ياها ، قول : قبلت ، راحو على البير يحضروا حالهم ، وتمّددت أنا في دارنا ، قلت ارتاح قبل السهرة ، ويا دوبك بدّي أغفى ولا جاي إبن ملك الجن ، قال أبوي مستنيك وبيصيرش إشي قبل ما تيجي ، قال هالكلمتين واختفى . . .

وصار يحكي من غير أن ينظر إلى الناطور ، حتى أتم روايته ، ثم أعلمه أنه ذاهب إلى المحكمة حتى يشكو إليها مسلك أولئك الذين أفسدوا العرس ومنعوه من حضوره .

صدر للمؤلف

*** روايات :**

- المحاصرون
- بير الشوم
- سمك اللجّة

*** دراسات :**

- الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤م ، دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية .
- العمل العربي المشترك وإسرائيل ، الرفض والقبول ، ١٩٤٤-١٩٦٧م .
- جذور الرفض الفلسطيني - ١٩١٨ - ١٩٤٨ .

*** شهادات :**

- دروب المنفى ١ ، الوطن في الذاكرة .
- دروب المنفى ٢ ، الصعود إلى الصفر .
- دروب المنفى ٣ ، زمن الأسئلة .
- دروب المنفى ٤ ، الجري إلى الهزيمة .
- دروب المنفى ٥ ، أين بقية الحكاية .
- الحنين ، حكاية عودة .

THE WELL OF THE EVIL OMEN



بيرالشوم

اتّكأت رواية فيصل حوراني هذه على الأحداث الّتي داهمت فلسطين في العام ١٩٤٨م، إلاّ أنّها أشادت عالمها الخاصّ بالاعتماد على المخيّلة الروائيّة في المقام الأوّل، وهكذا رسمت «بير الشوم» صورة نابضة بشتّى الألوان والإيقاعات لأشخاص عديدين وعلاقاتهم بعضهم ببعض. ولئن توزّع النصّ بين المستويين التاريخيّ والروائيّ، فإنّ هذا التوزّع، كما وصفه النقد الجادّ، منح الرواية الكثير من الأهمّيّة والفرادة، وبامتزاج المستويين، كما تجلّى في بناء الرواية، ظفرنا بنصّ تجرّد من سلطة السرد الجافّة، وأطلق حركة الحدث التاريخيّ لتعبّر عن نفسها في سياق روائيّ.

نشرت «بير الشوم» أوّلَ مرّة في العام ١٩٧٩م، ويسعدنا أن ننشرها في طبعة جديدة جهدِنا كي نجنّبها أخطاء الطبعات السابقة.

ISBN 9953-36-735-3

